الدكتور كمال السامرائي

حديث الثمانين

الجزء الاول

الى الأخ الاستاذ احمد [illegible]
المحترم
مع التقدير

[illegible]
٢٨/٢/١٩٩٥

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ــ ١٩٩٤

الدكتور كمال السامرائي

حديث الثمانين
سيرة وذكريات

(الجزء الاول)

كتبت هذه المذكرات لنفسي ولأولادي ،
ولمن بقي من أهلي ومن رحل

كمال السامرائي

مقدمة لا بد من قراءتها

هذه ذكريات كتبت أكثرها من الحافظة ، غير أنني لم أدخل فيها إلاّ ما هو واضح لديّ الى حد اليقين ، وأدخلت قسماً آخر منها مما اعتدت أن أسجله على جذاذات باشارات ولغوز عن خواطري وأحداث أيامي منذ أوائل حياتي التي وجدت فيها نفسي ميالاً لتسجيل تلك الذكريات ، وفي ذاكرتي منذ ذلك الحين خزين ضخم عن سنيّ حياتي الأولى ، وأعمالي في مهنتي الطبية فيما بعد ذلك ، يبعث بعضها في نفسي السرور والفخر ، وبعضها يثير فيّ الندم والغم والخجل • وكان أغلب هذا الشطر الأخير جراء العجالة التي كانت تركبني حين أشعر بضرورة المنافسة العلمية وحب التميّز ، وانتهاز الفرص •

وقد تملكتني منذ بدء تسجيل ذكرياتي نزعة قوية الى أن أكون صريحاً قدر وسعي ، وواضحاً دون مواربة ، وأن لا أدخل فيها ما فيه الإدعاء بصواب أفكاري وتصرفاتي وأعمالي ، مع أني مقتنع ان أية سيرة ذاتية لا يحتمل أن يتحاشى كاتبها أشياء من هذا القبيل • كما قررت أن أتجنب الكلام عن القضايا السياسية • وركّزت في هذه الذكريات على ما كان عندي من أفكار في حقل اختصاصي الطبي ، وذكر بعض الحالات المرضية التي لها مغزى خاص في ممارسة المهنة أو ما لهذه الحالات من علاقة في الحياة العامة•

ولا أدعي أنني اجتماعي وذو معشر أكثر من زملائي الأطباء ، ولا عالم باختصاصي إلا بمستوى بعض منهم في هذا الاختصاص ، وقد أكون وسطاً بين من انغمر في بحوثه وأعماله الطبية ، وبين من جمع الى هذه المهنة هوايات أخرى كالأدب ودراسة التاريخ ، أو العمل بالتصوير الفوتوغرافي ، أو بتربية الزهور والحيوانات البيتية ، لذلك تضمنت هذه المذكرات كثيراً من الأمور العابرة التي تحدث في حياة أي شخص ، مغموراً كان أو مشهوراً ، كما

تضمنت أموراً أخرى لا تدور إلا في حياة من يمارس صناعة الطب أو معالجة الأمراض النسائية بالتخصيص ، ولهذا قد يسر في هذه الذكريات ما هو تافه لا متعة فيه لغيري ، غير أن وقائعها بأي حال من صنع يدي ، أو بوحي من فكري ، وهذا ما يبرر إدخالها في هذه الأوراق التي أعدها بهذه النظرة ، قد كتبتها لنفسي في الدرجة الأولى ثم لزوجتي ولأولادي وأفراد أسرتي الآخرين . وقد قيل أن « من يكتب تاريخ حياته فكأنه يعيش حياته مرتين » ، ومن لا يريد أن يعيش حياة الصبا مرة أخرى ؟

وقد كتبت هذه المذكرات بحسب تسلسلها التأريخي من السنين والأشهر والأيام ، وقد يقع فيها خطأ في ضبط هذه التواريخ ولكن ليس في مضامينها مثل ذلك .. كما أهملت ذكر تاريخ وفيات الأشخاص ، ذلك لأن مذكراتي كتبت وأكثرهم في قيد الحياة . ويحصل في هذه المذكرات أن لا يكتمل التحدث عن بعض الأشخاص أو الأحداث في زمن محدد ، فأذكر أولها في تأريخ وأعود لأكمل الموضوع في تأريخ لاحق ، وسوف أشير الى هذا التقطيع لكي لا يأتي السرد مبتوراً أو بنهاية غير واضحة .

وهدفي من الشمول في مذكراتي هو أن أجعلها ممتعة للقارىء الطبيب ولغير الطبيب أيضاً . وأنا في الوقت نفسه لا أدعي أن فيها فوائد علمية أو عملية من خالص أفكاري وتجاربي ، كما لا أزعم أن فيها فلسفة أنفرد بها وحدي ، أو عمل جليل يستحق تسجيله للعبرة والتاريخ ، كما يفعل رجال الفكر وقادة الشعوب . وبالرغم من أنني حاولت جهدي أن لا أكتم أمراً مما يزيد من متعة القارىء أو إفادته ، غير أنني أخفيت مضطراً الكثير مما له علاقة بشخصية المرأة ونفسيتها حين تمرض ، كما تجنبت سرد الأدوار التي لعبها الحمق والحقد في حياتي وحياة زملائي على الرغم من ضرورة التعرض لها بقدر ما يتطلبه سياق الأحداث ، ورسم صورة واضحة لشخصي ولغيري، ودوداً كنت أو مخاصماً أو مشاكساً ، ولذلك خلت بعض مواقفي وخطوات مسيرتي في هذه الذكريات من التفسير والتبرير ، فبدا السياق في بعضها

منقطعاً أو مبهماً • كذلك تحاشيت ذكر ما ينتقص من خصوصيات زمـلائي ومعارفي التي وقفت عليها رواية او عياناً إلا القليل منهم وبحذر شـديد ، وحسـن نية ، ومع ذلك اطلب من هـؤلاء المعذرة إذا ضاقت صـدورهم بصراحتي • وقد ذكرت أسـماء بعضهم بحرف او بحرفـين ، وحاولت ان لا يكون معرفة مدلول اي منهما سهلاً • واهملت ذكر الالقـاب والكنى وسنة من توفي منهم • وادخلت في اول هذه الذكريات نبذة عن حياتي ايام الطفولة التي وعيتها ، وأيام الصبا التي أذكرها بوضوح ، ومعلومـات عن جغرافية مسقط رأسي سامراء وتاريخها ، وقد يكون هذا الجزء الأخير من ذكرياتي غير ممتع للقارئ غير انه ضروري لوضعي في الصورة التي خطتها الأقدار لحياتي • ولا شك ان تلك الحقبة كانت هي الأساس الذي قامت عليه ، وتكونت منه شخصيتي بما فيها من مناقب ومثالب •

أما الذي سـجلته عن حيـاتي كطالب جامعـي أو كطبيب ممارس أو تدريسي في كلية طب بغداد ، فإنه جزء من تاريخ هذه الكلية ، بل من تاريخ العراق الحديث بشـكل عام ، وتسجيـله ضروري قبل أن يلفه النسـيان والضياع ويغطيه التراب •

وجعلت هذه الذكريات بموجب ما تقدم خمسة أقسام ، الأول منها في حياة الطفولة والصبا في سامراء ، والقسم الثاني في أيامي بالمدرسة المتوسطة في الحلة ، والقسم الثالث في أيامي بالمدرسة الاعدادية المركزية ببغـداد • وكرست القسم الرابع لسني حياتي بكلية طب بغداد ، أما القسم الخـامس فجعلته لما بعد التخرج في الكلية ، وفي ممارسة الطب وتعليمه بكلية الطب• وأدخلت في هذا القسم الأخير بعض الخطوات التي مشيتها في تجـاربي في الطب النسوي ، والمبادرات التي أدخلتها فيه •

وعسى أني بهذا الكتاب أضفت معلومات على تاريخ الطب والأطباء في بغداد الحديثة ، ولله الحمد وحده ومنه العون والرضا •

الدكتور كمال السامرائي

القسم الاول

سامراء القديمة والحديثة ، وأسرتي ودراستي الاولى فيها

أروي ما يأتي عن أبي رحمه الله :

بعد أن أقام جدي (محمد أغا) صلاة الظهر مدَّ ذراعه اليمنى وطوى طرف سجادته الى جانبه الأيسر ، وتربَّع على ما بقي تحته منها • ثم نادى على ولده الأكبر (توفيق) وهو أبي ، وطلب منه أن يقعد أمامه ، ثم دسَّ يمناه في جيب (زبونه) وأخرج منه ورقةً فكَّ طياتها وقرَّبها من عينيه ليقرأ ما هو مكتوب فيها • وكانت هذه الورقة رسالة حملها إليه (الكروان) من كركوك قبل يوم واحد ، وقرأها بينه وبين نفسه أكثر من مرة ، ورأى أن يقرأها مرة أخرى أمام ولده (توفيق) الذي قعد أمامه طائعاً في انتظار أوامره •

قال جدي يخاطب أبي توفيق :

— أريد أن أزوِّجك يا ابني !

وسكت جدي ، أما أبي فقد أعقلت لسانه هذه المفاجأة مما سمعه من أبيه ، إذ لم يكن زواجه موضع بحث بينهما في يوم من الأيام ، فضلاً عن أن أبي كان ما يزال بعد في منتصف العقد الثاني من عمره ، لذلك ذهل وحار في ما يجب أن يقوله لأبيه ، وأي موقفٍ يتخذه ، أما جدي فلم ينتظر رداً من ابنه توفيق ، وفي حسابه ان ما عرضه على ولده هو أمنية في غاية ما يرجوه الأبناء من الآباء • كما كان بديهياً لدى جدي أن لا يناقش الأبن الارادة الأبوية ، فخفض أبي رأسه حياءً أو امتناناً ، واكتفى بالتعقيب عن موقفه بقوله :

— نعم يا أبي •

وسكت ، أما جدي فاستطرد يقول :

ـ المكاري (صالح السماعين) يعود الى كركوك صباح يوم الجمعة ، يعني (وبدأ يعدّ بأصابعه) بعد خمسة أيام وأنت وأختي زينب وعمك حسن تسافرون معه ، وهناك في كركوك إبن عمي (وَيْس) يساعدك في إتمام مراسيم الزواج من حنيفة بنت السيد عبدالله • والعم الذي أشار إليه جدي هو أبو المرحوم مفتي كركوك الشيخ رضا افندي واعظ جامع (بريادي) حتى أواخر العهد الملكي في العراق ، وهو أيضاً صاحب المدرسه الدينية المعروفة باسمه في تلك المحله بقلعة كركوك •

وسافر أبي الى كركوك وعاد الى سامراء بعروسه التي هي أمي ، وتمّ زواجهما بحفل عائلي متواضع • ولم يكن بين أبي وعروسه سابق تعارف ، ولا رأى أحدهما الاخر ، وهي حاله مالوفه في زمانها • وكثيرا ما يخطر ببالي بعد أن علمت بطريقة تلك الخطبة والمجيء بالعروس الى سامراء ، ما حدث في تلك الرحلة المصيرية ، والشقة بين سامراء وكركوك قد تستغرق اكثر من نهار وليلة ، فكيف كان أبي يداري خطيبته ويعنى بها أثناء ذلك الطريق الطويل ، وأي شعور ثار في نفس كليهما حين كان أبي يمسك زندها ليعينها على ركوب الدابّة أو الترجل عنها ؟

★ ★ ★

كان جدي ربع القامة ، ويرتدي الجبّة ، ويعتمر طربوشاً أبيض يلفّ حوله بما يشبه (الكشيدة) التي يرتديها من يحج بيت الله الحرام ، على أن جدي لم يكن من بين هؤلاء • وهو ابن حسن بن أحمد بن حجي وَيْس بن حسن بن صالح • ويروي لي الشيخ حبيب الخيزران عن أبيه أن بيت جدي كان من بيوت سامراء القديمة ، وان أبي (توفيق المحسد) كان ذا شأن أيام الحكم العثماني بسامراء • كما توفرت لي معلومات أن أسرتي من عشيرة بني جميل التي سكنت الحدود العراقية السورية وكان منهم (بنو أسد) • ولأسباب معاشية تفرق أفراد بيت أبي جدي فمنهم من سكن العمارة ومنهم

من رحل الى كركوك ومنهم من آثر البقاء في سامراء • وكان سكان كركوك يتكلمون اللغة التركية شأن كثير من سكان العراق في العهد العثماني ، ومن يتكلم بهذه اللغة كان يعرف (باسم الكردي) فلما عاد جدي الى سامراء اطلق عليه أسم (الكردي) بينما هو لا يعرف من اللغة الكردية كلمة واحدة •
وتزوج جدي من إمراة عبيدية دون عقب منها ، وبعد وفاتها تزوج أختها فانجبت منه خمسة اولاد وابنتين ، وكان ابي اكبرهم جميعاً •

ويروي شيوخ سامراء ان جدي كان تقيا ورعا يقيم الصلاة بأوقاتها ، ويقول ابي انه بينما كان جدي في ليلة صيف ظلماء يتفقد الابريق ليتوضأ لصلاة الفجر زلت قدمه وكان يومها شيخا عتيا فسقط على الارض ودكت عظام حوضه وتوفاه الله بعد أيام قليلة •

وقد سكن أبي واعمامي في محلة واحدة ، وفي بيوت متقاربة وقريبة من بيت جدي • ولم تكن يومئذ في سامراء مدارس بل فيها كتاتيب لتعلم قراءة القرآن الكريم ، وهذه ايضا قليلة جدا • فتعلم ابي قراءة القرآن على أملا رشيد الدوري ، كما تعلم عليه الكتابة على لوح صقيل من المعدن الخفيف باستعمال اقلام القصب ، ومداد اسود مصنوع من مسحوق العفص والملح وسخام القدور محلولة بالماء • وكان الذين يعرفون القراءة والكتابة يومئذ قلة ويخاطبهم الناس بلقب (الأفندي) • وثقافة هؤلاء الأفندية ضئيلة جدا ليست أكثر من القراءة والكتابة • مع ذلك ، كان الناس ينظرون إليهم بشيء من التقدير ، وتعتمد عليهم الحكومة العثمانية في توظيفهم في بعض دوائرها ، فعمل أبي مستنطقا في دوائر الشرطة ، وارتدى البزة الخاصة بهذه الوظيفة وقوامها السترة والسروال والنطاق المذهب و(الكلاو) الرمادي اللون والمحلّى بالهلال والنجمة المصنوعتين من معدن أبيض برّاق •

أما أمي (حنيفة) بنت السيد عبدالله ، فيدعي أهلها وآخرون ممن يعرفون أبيها أنها من نسل السيد جبيل (بكسر الجيم) صاحب الضريح

المتواضع القريب من مدينة بلد من جهتها الجنوبية ، وتربته لا يزال يزورها بسطاء الناس ويتبركون بها ويرصدون لها النذور والقرابين ويمسحون جدرانها بخضاب الحناء . ويضيئون مبنها الوطيء بالشموع والفوانيس النفطيـــة .

وأمي مثل أبي متدينة لا تفوتهـا إقامة صلاة الصبح ولا الصلوات الأخرى . وحين وعيت على نفسي وجدتهـا عصبية صارمة مع إخـوتي وأخواتي . ودقيقة في أعمال البيت ونظامه ونظافته ، على أنها كانت عطوفة على من يطرق بابنا من الفقراء والمحتاجين ، ولا تنسى معونتهم في الصيف أو في الشتاء ، وفي شهر رمضان والعيدين . والجدير بالذكر أيضـا أنها كانت تداوي العيون الرمدة والرطبة ، وهي تصنع دواءها على نحـو غريب قد تكون أخذته من أمها التي كانت قد توفيت قبل مولدي ، فتأخـذ أمي بيضة دجاجة وتثقب قشرتها في أحد قطبيها ، وتقطر فيها من خلال هذا الثقب قليلاً من لبن نفساء ترضع بنتا (لا ولدا) ثم تضع هذه البيضة في مكانٍ أمينٍ تلوحه الشمس طيلة أيـام الصيف ، فإذا جفّت محتوياتهـا بعد ذلك طحنتها وحفظت ذرورها في قارورة صغيرة لتستعملها علاجاً للعيون المريضة . وكانت أمي تعمل ذلك إحتسابا لوجه الله تعالى ، والله وحده يعلم كم أضرت عيون الناس بهذه المعالجة وكم نفعت منهم !

وكان أبي وأمي دوماً على وفاق ، ولا يختلفان على أمر ذي أهمية تعكر سكينة البيت وراحة من فيه . على أن أمي كانت بشكل عام أكثر سـيطرة على إخوتي وأختيّ ، وعلى أبي أحياناً ، إلا مرة واحدة سمعتها تعـارض موقـف أبي عرفته حالاً أنه يتعلـق بزواج أختي ، سمعتهـا حين دخلت البيت عائدا من المدرسة ، تقول :

– اسمعني يا أبا مجيد ، الرجل طيب وأبوه من أصحابك

وسمعت أبي يقول لها :

ـ لا تعيدي الكلام في هذا الموضوع ورأيي النهائي الرفض ، وابن عمها هو الزوج الطبيعي والملائم لابنتك يا أم مجيد •

فقالت أمي :

ـ ابن عمها صغير وليس في سن الزواج •

فأجابها بحزم :

ـ يكبر ، يا أم مجيد •

وبدا لي أن أمي لم تقتنع بما قاله أبي فانسحبت الى المطبخ وعلى وجهها كل علامات عدم الرضا •

★ ★ ★

وقد أنجبت أمي من أبي خمسة أولاد وثلاث بنات ، وكنت أنا أصغرهم جميعاً ، أما اولهم فاسمه (شاكر) وقد دفن حياً وهو بعمر عشر سنين تحت أنقاض جدار في دارنا حين كان العمال يهدمون إحدى حجرات البيت لتوسيعها • ولما أُخطر أبي بهذا الحادث المفجع لم تنفعه الهرولة الى مكانها إلا ليشاهد كف ابنه في آخر حركاتها بين الحجارة وكأنه بتلك الحركات يودع الأهل والدنيا الى الأبد •

مدينة سامراء

الخليفة المعتصم بالله المتوفى سنة ٢٢٧هـ/٨٣٣م هو الذي بنى هذه المدينة ، واتخذها عاصمة لدولته • ومع انها بقيت مأهولة منذ ذلك التاريخ، غير انها تدهورت بسرعة غريبة منذ نقل الخليفة العباسي المعتمد على الله المتوفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م عاصمة دولته من سامراء الى بغداد ، ولم تسترجع سامراء تكوينها الاجتماعي إلا في القرنين الأخيرين ، وبصورة تدريجية بطيئة •

وتقع سامراء على بعد مائة وعشرين كيلومتراً شمالي بغداد ،ومكانها على مرتفع قريب من شاطىء دجلة الشرقي • ويبدو هذا النهر لمن يقف

على ذلك الشاطىء الصخري العالي وكأنه ينظر الى قاع بئر عميقة. والصخور التي على هذا الشاطىء كتل ضخمة من حصى كبيرة وصغيرة بتلاحم شديد ، وقد انفصلت فيما مضى من الازمان عن مواضعها فسقطت بثقل هائل على ساحل النهر فغاص بعضها في مائه وارتمى بعضها الآخر على الأرض العالية التي تنحدر الى النهر ، كما في بعض كتل الصخور التي لم تسقط في شقوق لا تنفذ الى طول سمكها . ولا يعرف كم مضى عليها من السنين دون أن يكتمل انفصالها كما انفصلت الكتل الأخرى .

وفي شمال هذا المجرى من النهر ينساب الماء بسرعة على أرض حصباء تسمى (اللبّى) وسرعة الماء عليه لا تساعد على أن تعيش فيه إلا الأسماك الكبيرة كالشبوط الأحمر والبز ، وصيدها وبيعها أحد الاعمال التي يعيش عليها بعض قليل من أهل هذه المدينة .

ومنطقة سامراء غنية بآثار مؤسسيها الخليفة المعتصم بالله وابنه المتوكل على الله ، وكثير من هذه الآثار لا تزال شاخصة وبحالة جيدة الى الوقت الراهن ، من بينها وأشهرها (المسجد الجامع) ومئذنته (الملوية) التي تعلو قمتها عن الأرض باثنين وخمسين متراً وهي أعلى المآذن الاسلامية على ما أعلم . وقد تكون هذه المئذنة قد استخدمت مرصداً لمشاهدة القادمين الى المدينة من بعيد . ويكون الصعود إليها من مدرب يلتف حولها على عكس دوران عقربي الساعة حتى يصل الى قمتها التي يسميها السامرائيون (الجاون) ولا يذكر السامرائيون شخصاً كبيراً أم صغيراً سقط من مدرب (الملوية) إلا رجلاً أكتشف بعد ذلك أنه من مجانين دار الشفاء في بغداد ، وقد خرج ليومه معافى على ما زعم هو نفسه ليلقى حتفه بسقوطه من الملوية . كما تمارس بسيطات النساء العقيمات رمي عباءاتهن من (الجاون) الى الأرض فإن انفتحت العباءة قبل وصولها الى الأرض استبشرن باحتمال الحبل في يوم قادم .

ومن آثار العباسيين أيضاً (دار الخلافـة) المطلة على نهر دجلـة من شاطئه الشرقي ، وبركة المتوكل ، وتل (العليج) ، وغير هذه آثار كثيرة قد يزيد عددها على الثلاثين أو الأربعين وجميعها على الضفة الشرقية من نهـر دجلة باستثناء (الصليبية) وقصر العاشق (المعشوق) الذي أقامـه الخليفـة العباسي المعتمد قبالة دار الخلافة في الجانب الغربي من سامراء •

★ ★ ★

وكانت سامراء في أيام صباي دائرية المساحة ، ومحاطة بســور ضخم البنيان ، وله أربعة أبواب أغلق الباب الجنوبي منها في زمن لم أدركـه في عمري بجدار من الحجارة ، فاكتسب منذ ذلك اليوم اسم (الباب الملطوش)• أما باب بغداد فهو منفذ في شرق سامراء ، وقد تكون هذه التسـمية قد جاءته من كونه مخرجاً للكراوين المسافرين الى بغداد والعائدين منهـا الى سامراء • أما باب (الناصرية) فهو المدخل الشمالي من المدينة ومنه يدخـل المزارعون الى المدينة ليبيعوا فيها محاصيلهم الزراعية ، ولا يعرف أصل هذا الاسم • ويعرف الباب الرابع باسم القاطون (القاطول) وهو البـاب الذي يدخله القادمون من بغداد بالقطـار الذي يقف عند قريـة « القلعـة » في الجانب الغربي من نهر دجلة • وتسمى نهاية الطريق الذي ينحدر من هذين البابين الى نهر دجلة بشريعة الناصرية وشريعة القاطون • وكانت المداخـل الثلاثة التي ذكرناها حتى أواخر الثلاثينات من هذا القرن تسدّ ليلاً بأبواب ضخمة وثقيلة مصنوعة من خشب شجر الجوز الصلد ، ومغلّفـة بصفـائح سميكة من الحديد • ولا يعرف بصورة دقيقة وموثقة تاريخ تشييد سـور المدينة ، ومن أنفق على بنائه إلا أنه بالتأكيد ليس من أعمال العباسيين بل هو أحدث من أيام هؤلاء بقرون •

ومما يتحدث به (المكاري) المعمّر السيد رمضان الدوري ، انه في يوم من الأيام ، وهو في طريقه من قرية (الدور) الى (بلد) لشراء التمر من هذه

المدينة ، طرق سمعه أن ثمة حملة عمل دائبة لتسوير سـامراء (بالسخرة) ، فصار يبتعد بدوابه عن حدود سامراء ويجتازها ليلاً ليتفادى أخـذه الى المشاركة في بناء السور • ويقول سيد رمضان ان عمره يومئذ كان بحدود العشرين سنة • وكان سيد رمضان حين أدركت حياته يدخل بيتنا وهو يضرب بعصاه حصى أرض مدخل البيت ، فتستبقيه أمي حتى يحضر أبي ليتنـاولا معـاً طعام الغداء • وكان رمضان يومئذ صغير الحجم محدودب الظهـر ، أدرد ، يدخّن التبغ بغليون مصنوع من الطين المزجج بلون السـنجاب • وتأمرني أمي أن أمرس له ثريد التشريب ليسهل عليه ازدراده ، ثم يأمـرني أبي بعد الانتهاء من تناول غدائه أن أغسل يديه • وكنت أكره أشـد الكره ان أفعل ذلك ، ولكن أين لي الجرأة على أن أرفض طلب أبويّ •ولا أذكر متى توفي سيد رمضان ، وقيل انه بلغ من العمر مائة وعشرين سنة •

أما المعمّر الآخر الذي أدرك بناء سور سامراء فهو (جواد الحمامة) ، وكان مزامناً للسيد رمضان ، ويدعي أنه كان من جملة من شـارك في بناء السور • وقد يكون تاريخ بنائه في الثلث الاول من القرن التاسع عشـر ، وقيل ان الذي أنفق على تشييده محسن ايراني وقيل بل هي سيدة هندية •

الحضرة العسكرية :

يتوسط مدينة سـامراء ضريحا الإمامـين العاشر والحادي عشر علي الهادي وابنه الحسن العسكري • وقد أقيم بناء الضريحين بحـدود مطلع القرن التاسع عشر •

وتعلو الضريح العسكري قبة ضخمـة جميلة الهندسـة ، ومكسـوة حجارتها بصفائح من الذهب • وعلى مدخل هذه الحضرة مئذنتان رشـيقتان سامقتان مزينتان بالفسيفساء الزاهيـة الألوان • وباحة الحضرتين واسـعة يحيط بها من كل الجهات ، ومرصوفة بحجر الحلان الموصلي • كمـا يحيط الباحة سور قوامه عدد كبير من الأواوين ، ولها أربعة أبواب أوسـعها هو

الجنوبي من الباحة ، وهو المدخل إليها من (سوق سامراء الكبير) • ويعلو هذا المدخل طاق تتدلى من قمته سلسلة ضخمة الحلقات وبلون الذهب ، يضطر الداخل الى باحة الضريح أن يخفض رأسه ليجنب رأسه الاصطدام بها ، وبهذه الحركة ينحني الداخل الى الباحة ليؤدي دون وعي منه التحية الواجب تأديتها لصاحبي الضريح • كما تعلو هذا الباب قبة منشورة الهندسة تحمل ساعة كبيرة تسمع دقاتها بالتوقيت الاسلامي (الزوالي) في جميع نواحي المدينة وأطرافها ، في الأحوال الجوية الاعتيادية • ولا تزال هذه الساعة تعمل بدقة وانتظام الى اليوم الراهن ، ورنين دقاتها يوحي بعمرها الطويل وبالحشمة والروح الديني •

وعلى يمين مدخل هذا الباب ايوان محصّن بشباك من الحديد ، وبداخله ثلاثة حباب كبيرة ، ومن وراء هذه الشباك يقعد على كرسي وطيء رجل بدين يداور مياه الحباب ويملأ الطوس النحاسية من مائها ليقدمها للعطاشى حين يمدون أيديهم من خلال فجوات الشباك •

وكان هذا الرجل الذي يقعد على الكرسي الوطيء ذا وجه مخيف موحش كأنه من السباع التي تتحفز لافتراس طريدة • ويوماً اختفى هذا الرجل وعرفنا حين ذاك أن طبيب سامراء الهندي (حسن خان) قد أمر بابعاده الى مجذمة العمارة حين تأكد من إصابته بالجذام ، وقد أُخذ عنوة من مسكنه بالرغم من وساطة علماء المدرسة الايرانية بسامراء لابقائه •

وقريب من ضريح الحسن العسكري شمالاً وضمن مجمع الحضرة العسكرية يقع المسجد الكبير بسامراء ، تعلوه قبة ضخمة مكسوة بالقاشاني المزجج والمحلى بالزخارف والنقوش بأشكال في غاية الابداع • والى جانب المدخل الى هذا المسجد باب تنحدر منه درجات من الرخام الأبيض الى (سرداب الغيبة) وفي قعر هذا السرداب كوّة غير عميقة محصنة باطار من خشب الساج محفور على ضلعه الأيمن اسم الخليفة الناصر لدين الله العباسي

المتوفى سنة ٦٠٦ هـ • ويعتقد بعض البسطاء من الناس أن الإمام الثاني عشر ، صاحب الزمان (المهدي) ابن الحسن العسكري قد اختفى عن طريق هذه الكوة •

أهالي سامراء :

سامراء عشائرية التكوين والتقاليد ، وتتجمع العشيرة عادةً في حارة واحدة من المدينة ، أو في مكان زراعي مما حولها قريب أو بعيد عنها ، وتعرف لهذا السبب حارات وأراض بأسماء ساكنيها من العشائر ، فكان منها محلة البو بدري ، ومحلة البو باز ، ومحلة البو عباس ، ومحلة البو نيسان وغير هذه المحلات • ويتكابر السامرائي بانتمائه الى العشيرة التي ينحدر منها • كما ينسب السامرائي عادة الى أبيه بعد إضافة (أل) التعريف الى اسم أبيه فيقال كمال التوفيق وعباس المحمد ، وعباس الجونة ، وجاسم العلي الأكبر ، ومهدي العرنة وغير ذلك من الأسماء •

ولا تعرف أية عشيرة أقدم من غيرها في سامراء ، ولا بد أن أياً منها قد انحدر من رجل جاء إليها من مكان ما فنسلَ أبناءً وأحفاداً حتى صار منهم عشيرةً باسم ذلك الأب الأعلى • كما دخل سامراء بعد ذلك أقوام من مدن مجاورة لسامراء كالدور بشكل خاص وتكريت ، غير أن أكثر هؤلاء النازحين إليها احتفظوا بنسبتهم الى مدنهم الأولى مع انهم تعايشوا مع أهل سامراء كما لو أنهم من هذه المدينة •

والأكثرية من أهل سامراء والعشائر المحيطة بها يعملون بالزراعة إما على مياه المطر (الديم) أو يزرعون (الخضراوات) في فصل الصيف بالداليات (البكرات أو الكرود) أو بمكائن ضخ ماء دجلة الى الأراضي العالية•ولكل عشيرة أرضها الخاصة بها يتوارثونها جيلاً بعد جيل •

وتتفاخر العشيرة بعدد نفوسها وشرف أعمالها ، وقوى رجالها،وتنحدر

هذه العصبية الى صبايا المدينة وأولادها ، فيتقاتلون فيما بينهم باستعمال العصي أو رمي الحصى بالمقلاع ، على ان التوادد والتزاوج بين أفراد العشائر المختلفة غير نادر ، فيكون جميع أفراد عشيرة الزوجة أخوالاً لأبناء الزوج.

النساء في سامراء :

المرأة السامرائية متحفظة جداً داخل بيتها وخارجه ، وتبالغ في تحجبها إذا خرجت من بيتها ، فتلبس الواحدة منهن عباءتين واحدة فوق الأخرى ، تحمل إحداهما على كتفيها لتطول حتى تغطي قدميها ، وتحمل الأخرى على رأسها لتنسدل فوق الأولى • ولا بد من (پوشية) حجاب تغطي به وجهها لتخفي معالمه المحرمة • ويحدث التزاور فيما بين كبيرات نساء سامراء في أوقات ما بعد الظهر في العادة ، والأمهات والعجائز هن طرفا هذه اللقاءات حصراً •

والمرأة بأي عمر ، لا تدخل السوق ، ولا تقف على أبواب الدكاكين بأي حال ، وفي أي وقت • والرجل هو الذي يشتري حاجيات البيت يوماً بيوم• وباعة الأقمشة النسائية يبعثون بنماذج بضاعاتهم الى نساء البيوت ليخترن ما يفضلنه منها •

والزوجة السامرائية طائعة لزوجها حباً وخوفاً ، ومحافظة للعهد معه صبراً ووفاءً ، وتبقى إذا ترمّلت تلبس السواد طوال حياتها بعد ذلك •

ولم تكن تباع في سامراء ملابس نسائية جاهزة بل تخاط ملابس النساء بأيدي نساء البلدة المحترفات لهذه المهنة •

وقبل تأسيس اسالة الماء بسامراء سنة ١٩٣٢ كان كثير من نساء المدينة تنقل الماء من نهر دجلة بقرب يحملنها على ظهورهن أو على ظهور الحمير ، الى بيوتهن أو الى بيوت مخدوميهن الموسرين • كما كان في كل بيت رحى لطحن حبوب الحنطة ، وتنور لخبزها ، ولم تدخل ماكنات الطواحين سامراء إلا في أواخر العشرينات •

بيوت السكن في سامراء :

وبيوت سامراء متلاصقة لا يفصل فيما بينها إلا جدران أعماق حجراتها، وأكثرها بطابق واحد ، وسطوحها وطيئة ، وبارتفاعات متقاربة حتى ليستطيع الشخص أن ينتقل من بيت الى بيت عبر هذه السطوح ليصل الى حارة بعيدة لا تصلها السابلة إلا عن طريق طويل متعرج .

وأكثر بيوت سامراء نظيفة ومريحة بالرغم من أن هندستها ومتاعها وأفرشتها وأوانيها في منتهى البساطة والبدائية . ومدخل البيت دهليز قصير ينعطف يميناً أو يساراً قبل أن ينفذ الى فناء البيت ، وهو على الأكثر قليل النور إلا في مدخله ونهايته ، وتكون أرضه مرصوفة بحصى مختلفة الحجوم يتعثر الماشي عليها فيحدث أصواتاً يسمعها من في البيت قبل أن يلجه القادم ، وربما كان القصد من هذه الحصى على أرض الدهليز الاعلان عن خطوات القادم الى الدار فتأخذ النساء وقارهن وتسترهن سواءً كان القادم من أهل البيت أو بعيداً عنه .

والحياة في هذه البيوت بسيطة وساذجة إلا أنها منظمة ودافئة للروح ، ودافعة الى الألفة . وقد تجتمع العائلة لتناقش مشاكلها البيتية عرضاً دون تحضير ، وبتساهل وبرود .

★ ★ ★

البيت الذي ولدت فيه :

يقع بيتنا فيما بين باب الناصرية وسوق اليهود ، وهذا هو السوق الثالث في المدينة وقد عرف بهذا الاسم لوجود ثلاثة حوانيت فيه أصحابها من اليهود ، أحدهم بزاز اسمه يوسف الحسقيل ، والثاني صائغ فضة اسمه معتوق العبدالله ، والثالث صائغ ذهب اسمه عاشير . كما كان في هذا السوق يهودي آخر كث اللحية يعمل إسكافياً متنقلاً وراء الفيء في الصيف ودفء الشمس في الشتاء ، فيجد المكان المناسب له بحسب ذلك ،

ويفرش عدته البسيطة على قارعة الطريق • كما كان هذا اليهـودي نفسه سادن الكنيس الذي يطلق عليه الأهالي اسم (التوراة) التي تلاصق بيتنا • واسم هذا اليهودي ولقبه يوسف (الرگاع) •

وبيتنا نموذج لأكثر بيوت سامراء ، فهو يتكون من طابقين من جانبه الشمالي وطابق واحد من جانبه الجنوبي ، وهندسته لا تخلو من الذكـاء والغائية المقصودة ، إذ فيه حجرات تقابل أبوابها اتجاه الشـمال لتدخلهـا الريح الباردة في الصيف ، وحجرات تقابل أبوابها الجنوب وتكون هذه دافئة بحرارة الشمس لتستعمل في فصل الشتاء • ومن مرافق البيت بئر يدلـى ماؤه لغسل حـوش البيت المرصوف بالطـابوق الفرشي • وهذا الحـوش مكشوف ليستطيع ساكنه أن يمد عنقه من باب حجرته ليرى غيوم السـماء أو نجومها وهـذا أمر يهمّ أهل سـامراء عموماً لاعتمـاد الكثير منهم على زراعة الديم •

وفي بيتنا سراديب ثلاثة ، إثنان منها في الجانب الشمالي من البيـت ، أحدهما لخزن المؤن ، والثاني لنساء العائلة في أيام الصيف ، وسرداب واحد في الجانب الجنوبي من البيت وهو للرجال وحدهم • وفي هـذا السـرداب كوة تسمى (الزنبور) تتصل بمنفذ يرتفع لينتهي بسطح البيت ، وهو يساعد بشكل واضح على حركة هـواء هذا السرداب • وتعتقـد أمي أن في هذا السرداب (مَلَك صالح) وتمنع دخول الأطفال الصغار إليه بوصفهـم لم يطهروا بعد ، وفي أجسادهم لا بد من وجود وساخة ، كما كانت أمي توقـد في كل ليلة جمعة شمعة تضعهـا على الدرجة الاولى من سـلم السرداب • وانتشر هذا المعتقد بين نساء المحلـة ومن ضمنهن (عزيزة) بنت يوسـف الحسقيل ، وصرنَ ينذرن لتمنياتهم الشموع تبركاً لذلك الملك الصالح •

وفي الطابق الثاني من بيتنا أربع حجرات تطل اثنتان منها على حوش البيت ، واثنتان على الطريق الذي يربط باب سور الناصرية بسوق اليهود ،

وواحدة من هذه الحجرات مشيدة على طاق واسع يربط فيما بين بيتنا والبيت الذي يقابله عبر الطريق ، ونوافذ هذه الحجرة عالية ، تطل أربع منها على سوق اليهود الواقع جنوبي الطريق ، وأربع أخرى تقابلها تطل على الطريق الذي ينتهي بباب سور الناصرية في شمال المدينة •

وفي البيت مطبخ واسع على يمين المدخل الى حوش البيت ، ولم يكن لهذا المطبخ باب ليصد عنه الريح والمطر ، بل هو منفذ للدخان في الدرجة الأولى • ويستعمل الحطب لطهي الطعام ، فيتكاثف ذلك الدخان فيه وتصير جدرانه على مر الأيام بلون القير • وفي قعر هذا المطبخ (تنور) ، يخبز فيه عجين الحنطة أو يطهى شواء اللحوم ، والى يسار هذا التنور كوة تنفذ الى بئر عميقة يدلى منها الماء على (دولاب) خشبي لغسل حوش البيت •

والى جانب المطبخ اصطبل لا تخلو في أكثر شهور السنة من إحدى أفراسنا الثلاث ، واحدة منها ناصعة البياض من (رسن) (حمدانية السمرى) واسمها (ذروة) ، والأخرى رمانية اللون واسمها (نسمة) أما الفرس الشقراء فاسمها (صبيحة) • وكانت أمي واختاي تحبان هذه الخيول وتعطفان عليها بحنان ، وأسمعهن أحياناً يكلمنها بنغمٍ رقيق كما يكلمن الأطفال الصغار• وكانت هذه الخيول إذا اقتربت أمي منها مدّت أعناقها لتمسّ بها كتف أمي إمتناناً لما تأتي به لها من العلف ، وهكذا أيضاً تفعل مع أختي •

ومربط الفرس الحمدانية في الشتاء داخل حجرة ملاصقة لمربطها في الصيف القريب من المطبخ ، وملاصق من الجانب الآخر للحجرة التي ينام فيها أبي ، ومربط هذه الفرس معتمة لا نافذة فيها سوى فتحة صغيرة تعلو مدخله ، وكانت الخفافيش تلج من خلال هذه الفتحة لتتعلق بأرجلها بعقود الحجرة ، وقد تسقط هذه الخفافيش على قطاة الفرس أو على الأرض فتطير ثانيةً ولكن على غير هدى في ظلام هذه الحجرة فتصطدم بالفرس فتثور هذه فزعةً وتضرب بحوافرها الخلفية الجدار الذي يفصل المربط عن حجرة

منام أبي من جهة وعن حجرة جارتنا الأرملة (ملحة أم عباس) من جهة أخرى فيستيقظ لها أبي كما تستيقظ جارتنا (ملحه) حين يكونا في غمـرة النوم.
ولم ندرك علاقة الخفافيش بضربات رجل الفرس اثناء الليل إلاّ ذات يوم كان ابي يشكو من هذه الظاهرة المزعجة في مجلس شيخ البو نيسان (مهـدي العرنة) فقال احد الحاضرين في المجلس لابي ان الخفافيش لا تقـع على الفرس بل تنحدر إليها عامدة لتتلمّس طريقها الى عرقوب رجلها فتلتصق به لتغتذي من دمها فتحاول الفرس إبعادها عن رجلها فتضرب بحافريها الجدار، ثم اردف ذلك الجليس يقول لابي : (ابعد تلك الخفافيش عن المربط بسد النافذة الصغيرة التي تعلو بابه فلا تدخلها الخفافيش لتزعج الفرس وتزعجكم) وقد عمل ابي في اليوم الثاني بنصيحة ذلك الجليس فتوقفت ضرباتالفرس على جدار حجرة المربط ، فكانت الليالي التالية بعد ذلك هانئةً مريحة لأبي ولجارتنا ملحه أم عباس ، وكنا نرى الخفافيش بأعداد هائلة قبيل غـروب الشمس وهي تطير نحو نهر دجلة أو عائدة منها الى داخل بيوت سامراء أو الخرائب التي حولها .

وتخرج الخفافيش من وكناتها الى الفضاء لتستروح نسائم المساء قبيل انحدار الظلام (ولذلك يسميها السامرائيون خشاف الليل) ، وتقنص في طيرانها الذباب والحشرات التي تتطاير مرتفعة في هذه الساعات ، وكأنها على موعد لتكون عشاءً دسماً لهـذه الخفافيش . وهذه الحيوانات من صنف (اللبونات) ، وذات وجه كوجه الثعلب بما فيه الأذنان المنتصبتان ، وفراؤها رمادي قصير ناعم ، وهي تسكن الخرائب على الأكثر ، وقد تعيش فيسقوف البيوت المسكونة ، وهي تدخلها من أبوابها الوسيعة أو من منافذها الصغيرة التي تعلوها، وتلتصق بسقوفها ثم تزحف على بطونها لتستقر في مكان تختاره وهي متعلقة بأقدامها بما يبرز من السقوف .

كما لا يخلو كثير من بيوت الناس من أعشاش طيور السندوهند وهي

تصنع هذه الأعشاش من الطمى الليّن الذي تحمله بمناقيرها وتلصقه على زاوية من أطواق الحجرات فيكون منها ما يشبه نصف (قفة) بعمق يكفي لاحتضان بيضها وفراخها بعد ذلك •

والسند وهند طيور جميلة يغلب عليها اللون الأسود البراق ، وتغرد بزقزقة متواصلة وخصوصاً حين تتوجه الى أعشاشها • وتعتقد السامرائيات أنها من الطيور ذات الحرمة وقتلها محرّم • وهي من الطيور المهاجرة فتغادر هي وأفراخها بيوت سامراء في أول شهر تشرين لتعود الى أعشاشها نفسها في بداية شهر حزيران ، فاذا دخلت البيوت من منافذها استقبلتها أم البيت بالترحيب والتهليل •

أما طير اللقلق فيعيش على مرتفعات البيوت ، أو على قباب المساجد ، أو أكواخ الريف ، وهو مثل طيور السند وهند يهجر سامراء متى حلّ البرد فيها ، وهي مثلها أيضاً لا تطرد عن أعشاشها ولا تستهدف للضرب ، والعائلة منهما بذكر وأنثى ، وتضع الأنثى بيضتين فقط ، ويتناوب الزوجان على احتضانها • وحين يحط أحدهما على عشه ليأخذ دوره في الحضانة ، يطقطق الاثنان بمنقاريهما الأحمرين الطويلين ، إيذاناً بعودته الى بيته أو تفاخراً بمقامه بين عائلته •

ويقال أن الذكر من اللقالق غيور على أنثاه أشد الغيرة • وقد سمعت ممن أثق به (وهو طبيب من أهل كفري) أن أحد الصبيان الخبثاء طرد اللقلق من عشه وأبدل بيضتيه ببيضتين من بيوض الدجاج ، فلما عاد اللقلق الذكر الى عشه ليحتضن البيضتين ، دهش باستغراب حين رأى البيضتين صغيرتين فظن أن أنثاه قد خانته مع طير آخر ، فانتظرها حتى عادت لتأخذ دورها من الحضانة ، فطردها عن عشه ولاحقها وهو ينقرها بمنقاره ، ثم عاد الى العش ونقر البيضتين اللتين فيه وحطمهما كلياً •

كما أذكر من الحيوانات التي عرفتها في صغري بسامراء ما كان يعرف

(بالدعلج) ، وانا لم ار هذا الحيوان حيا ، بل رأيته قتيلاً في طرقات المدينة، وهو بحجم الكلب الصغير ، وجسمه مغطى بأشواك بطول (فتر) وبلـون اسود في طرفها المدبب وبلون ابيض في باقي طولها ، وكنا نبريهـا لتكون أقلاما للكتابة • ويقول صيادوها انها إذا هوجمت تنفض عن جلدها هذه الأشواك فتنطلق منه كالنبال • وقد يكون في ذلك مبالغة أو خيال •

الحياة الاجتماعية في سامراء :

يندر أن يبقى الرجال خارج بيوتهم بعد أذان المغرب ، والأكثرية منهم يعودون عند غروب الشمس لتناول العشاء مع أفراد عوائلهم • وقد يخرجون بعد ذلك الى إحدى المقاهي أو احد دواوين الشيوخ •

ولم تكن أدوات تناول الطعام كالملاعق والشوك يومئذ معروفة،ويقدم الطعام في صحون على سماط يفرش على الأرض أو في (صينية) ترفـع على محمل خشبي وطيء فيتجمع حولها رجال البيت ويتناولونه بأصابعهم • أما النساء والأطفال فينتظرون دورهم بعد أن ينتهي الرجال من تناوله •

والعاطلون عن العمل يرتادون المقاهي أثناء النهار ، ويتحدثون بأصوات عالية لا تخلو من التباهي أو التهديد لطرف من أطراف المقهى أو لشخص ليس من بين هؤلاء •

★ ★ ★

وكان في سامراء (دواوين) لأكثر شيوخ عشائر سامراء ، من أبرزهـا ديوان عباس المحمد الحمد ، رئيس عشـيرة البو عباس ، وديوان الشـيخ مهدي العرنة رئيس عشيرة البو نيسان وديوان جاسم العلي الأكبر رئيس عشيرة البو باز • وكنت ألمس وداً بين أبي وبين الشيخ عباس المحمد الحمد فيكثر أبي من التردد الى ديوانه في الليل فأحمل الى جانبه الفانوس النفطي لأنير له الطريق الى ديوان الشـيخ ، الذي يكون حينذاك مكتظـاً بروادە وأتباع عشيرته وهم يتحدثون بأصوات عالية • وجلّ أحاديثهم ما له علاقة

بالزراعة ومشاكلها وما يحدث من خلاف بين المشاركين.وينعقد بوقت قصير دخان المكاير (والنواركيل) بكثافة في حجرة الديوان فيثير السعال في صدور المعمرين وينفض المجلس ، وينهض جلاسه لمغادرة الديوان ، فأرفع الناوس حينذاك وأتقدم أمام أبي لنقطع المجاز المظلم ونخرج الى الطريق .

وقلما يتحدث أبي معي أثناء ذهابه أو آيابه من ذلك الديوان . وقد اسأله عن هوية رجل أراه لأول مرة ، فيجيبني بتفصيل دقيق لا أرى له داعياً ، وخصوصاً حين يذكر اسمه واسم أبيه وأمه ، واسم زوجته وأسماء أولاده ، والعشيرة التي ينتهي إليها .

★ ★ ★

وفي ليـالي رمضان يمارس الرجال لعبة (المحيبس) في المقـاهي أو في بيوتهم ، وتكون هذه اللعبة بين فريقين من اللاعبين ، فاذا خسر أحد الطرفين اشترى ما يكفي لكلا الطرفين من الزلابيـة أو البقلاوة فيتناولها الغـالب والمغلوب في هذه اللعبة .

وفي الأعياد والأعراس يلعب الشباب (الساس) في سـاحات الـدور الوسيعة . وتقبع النساء متسترات بالعباءة والحجاب على طرف السطوح التي تشرف على أرض اللعبة ، يراقبن اللعبة من وراء الخمار.وقد يزغردن لمن يحببن من اللاعبين فتنشط حينذاك حركاتهم وتشتد حماستهم الى درجة العنف أحياناً .

وفي أيام العيدين يمارس أصحاب الخيول مطاردة بعضهم بعضـاً على ساحة طويلة متربة تكثر فيها الحصى الناعمـة . وفي هذه المناسـبة يكون استعراض الجياد ممتعاً يتفاخر فيه صاحب الفرس السبوق .

مولدي ونشأتي :

ولدت بسامراء سنة ١٩١٤ ، والقابلة التي استقبلتني الى الدنيا اسمها (زهـرة العلّو) . وهي نفسـها التي استقبلت أخـوتي وأخواتي الذين

سبقوني مولداً • وزهرة العلو سيدة وديعة ومحترمة وكبيرة السن شأن أكثر القوابل يومئذ في سامراء ، وتعرفها الأمهات بأنها خفيفة اليد في توليد الأمهات ، وتحسن مداراة النفساء ووليدها ، فيحترمها رب البيت وتأنس لها أم البيت وتخاطبها باسم (جدّة) كناية عن مكانة الجدة بالنسب بين أفراد العائلة •

ولما فتحت عيني على الدنيا وصرت أعرف أشخاص البيت لا أذكر أنني رأيت يوماً ما قيل لي أنه أبي ، إذ كان في تلك الأيام أسير الانكليز في (سمرپول) بديار الهند بوصفه أحد موظفي الحكومة العثمانية بسامراء ومناوئاً لدخول الانكليز الى العراق •

وكانت أمي في أيام غيابه تأخذني في ليالي الصيف المقمرة الى سطح البيت ، وترفع براحة يدها حنكي لأتطلّع الى القمر ، وتلقنني أن أسأله عن أبي ؛ أين هو ؟ وعن يوم أيابه ؟ وأردد معها وهي تقول (يا گمرنا العالي وين أبونا الغالي ؟) • وأظل أنا أرنو الى القمر ولا أقول شيئاً ، وتستمر أمي تنظر الى القمر وهي تقول أشياءً أخرى لا أفهمها • ثم ترفعني بعد ذلك بيديها لأكون بمستوى ستارة السطح المطل على الطريق ، فأتشبث بيديّ على حافتها ، وأمد عنقي لأراقب السابلة في الطريق ، وهم يعودون الى بيوتهم بعد السهر في مقهى (صالح الحبيب) بسوق اليهود • وألاحظ أمي تنصت باهتمام الى ما يتحدثون فيه ، فان سمعت منهم ما يدل على الفرج أو الفرح ، استبشرت وقالت وهي تقبلني بسرور طافح : إنّ أباك بخير يا كمال •

وأذكر يوماً وصلتنا فيه رسالة من أبي وفي طيّها صورته الشمسية أي (عكسه) بلغة تلك الأيام • وتلاقفت أيدي أمي وأختيّ الصورة ، وقالت إحداهن وهي تحدق فيها :

— أنا لا أرى شيئاً من أبينا في هذا العكس !

ومدت الأخرى عنقها لتنظر الى الصورة وقالت :

ـ بلى ، هذا رأسه وهذا كلاوه وهذا وجهه .

وعادت الأولى تنظر الى الصورة وقالت :

ـ والله صحيح ، وهذه عيونه وهذه لحيته .

وأخذت أمي الصورة بيديها وعرضتها أمام عيني بحبور ، وهي تمر بأصابعها على معالم وجهه وتقول لي : هذا بابا . وحين أستعرض كل ذلك في هذا اليوم يتملكني الاستغراب حين أذكر عدم استطاعة أختيّ التعرّف على والدي من صورته الفوتوغرافية . وأختاي وأمي لسن مثقفات ، واختي الصغرى للغرابة كانت تعرف قراءة كتاب مولد النبي محمد (ص) وليس غيره من الكتب فلا أستغرب الآن أن لا يسهل على أختي ولا على أي من الناس الذين لم يكثروا من رؤية الصور المسطحة التي تنقصها كامل أبعادها الثلاثة أن يشخّصوا محتوياتها وأجزاءها الدقيقة .

★ ★ ★

لا أذكر متى تفتحت مداركي وتفهمي للأحداث اليومية التي زامنتها في طفولتي الأولى ، على ان بعض ما أذكر منها يبرز في ذاكرتي واضحاً ومحدد المعالم ، وكأنه قد حدث في يوم قريب ، والبعض الآخر كانت أحداثه لا تزال تدور أمامي حتى هذه الساعة . فأذكر مثلاً الجندي التركي الذي خرج من بين طابور جماعته وهم يعبرون الطريق الذي يشرف عليه بيتنا ، وتقدم مني مسرعاً بينما كنت واقفاً على عتبة بيتنا و(نتش) من يدي قطعةً من الخبز كنت ألهو بقضمها ، فهرولت خائفاً الى داخل البيت وارتميت وأنا أبكي بحضن أمي ، وقصصت عليها ما حدث لي على باب البيت ، فخرجت أمي تستوضح الأمر ، وعادت إليّ وهي تقول :

ـ لا تخف يا ابني ان هؤلاء من ملة الاسلام ، ومسحت بفوطتها السوداء دموعي ، وأخذت بيدي وقادتني الى حجرة المؤن المظلمة ، وتناولت رغيفاً

من الخبز ورصّت على وسطه (صلبوخاً) من التمر ، وطلبت مني أن أحمله الى الجنود الذين يعبرون الطريق أمام بيتنا ، فامتنعت خوفاً منهم ، فتركتني أمي ويست صوب الباب ، ولما رأيتها أبطأت تقدمت منها بوجل وحذر ، وشدّ ما أذهلني أمرها ، فقد وجدتها وأنا التصق بها ، ترتجف وهي ترفع طرف فوطتها لتمسح بها عينيها المبتلتين بالدمع • ولم أرَ الجندي الذي نهب مني قطعة الخبز ، بل رأيت جموعاً من صنفه يسيرون بتراخٍ وبلا نظام على الطريق المترب الذي يصل الى باب الناصرية ، فيثيرون بين أقدامهم ومن ورائهم الغبار ، وكان كل واحد منهم مثل ذلك الجندي الذي أخافني ، متعباً وثيابه خلقة ووجهه مكدود ومكسو بمزيج من التراب والعرق •

والتصقت بجانب أمي التي ما زالت ترتجف و(الفوطة) تحت عينيها الدامعتين • ورأيت على الجانب الآخر من الطريق جارتنا العجوز (ريحانه) تقف على عتبة دارها وهي أيضاً تبكي بصمت وتضرب صدرها بجمع يدها وتلطم خدها المجدور وتخدشه بأظافر أصابعها •• أنا لم أزل أذكر هذا الحادث وكأنه نقطة البداية في حياتي ونشاط مداركي بالرغم من أن أهلي يدّعون أنني لم أكن يوم انسحاب الجيش العثماني ومروره بسامراء بعمر يمكن أن أعي فيه ما حدث يومئذ بتلك التفاصيل الدقيقة التي أذكرها لهم ، بينما لا أذكر يوم دخل الانكليز سامراء إثر انسحاب الجيش العثماني منها • ولكنني رأيت الخنادق المتعرجة التي تقاطع الطريق الذي يصل الى شمال العراق • وقد علمت من أهلي أنهم داهموا يوماً بيتنا وفتشوا ما فيه وأخذوا منه بعض ما وجدوه من الكتب والاوراق وحملوها في أحد أدراج المنضدة التي كانت في غرفة الطاق ، وبقي وجه هذه المنضدة كالوجه الأعور، يعوزها ذلك الدرج الى آخر أيام تلك المنضدة • كما اقتادت القوات الانكليزية أبي ومعه الشيخ مهدي العرنة أسيرين أو رهينتين لمواقفهم المعارضة للانكليز ، وبقيا بالأسر في سمربول وهنجام زهاء سنتين •

عودة أبي من سمرپول

أذكر أنني رأيت أبي لأول مرة حين كنت أستسلم ليدي أختي لتدخل قدمي في الحذاء الذي جاء به إليَّ من بغداد عند مروره بها أثناء عودته من سمرپول . وطلبت مني أختي آنئذ أن أنظر الى أبي الذي وقف ينظر إليَّ بشوق وحنان ، غير أنني لم أستجب لأمرها بل مكثت أنظر الى حذائي الجديد الجميل ، فتقدم مني أبي وحملني بيديه وقبلني وضمني الى صدره، إلا أنني نفرت منه وعدت أكمل ارتداء حذائي .

ميجر بري يحكم في سامراء

ولا أذكر كيف آل الحكم في سامراء الى رجل من أهلها اسمه أحمد محمد صالح وهو من أعيان البلدة وأخيارها ، ويعرف فيما بينهم باسم (أحمد بگ) . وهذا اللقب تركي جاءه تقليداً لوجهاء الاتراك المعروفين بهذا اللقب لا خلعة من السلطان العثماني . وكان أحمد بگ يرتدي الطربوش الأحمر خلافاً لأهل سامراء الذين يرتدون اليشماغ والعقال الاسود . كما كان في سامراء حاكم آخر وبدرجة أعلى اسمه (ميجر بري) وهو من ضباط الجيش البريطاني الذي عمل بامرة الجنرال (مود) ، ولا أذكر معالم هذا الحاكم ولكنني أذكر معالم كلبه الأبتر الذيل ذي الفراء السنجابي الكثيف المتهدل. ويروى أن ميجر بري كان قاسياً في أحكامه على أهالي سامراء ، فيعاقب من يخالف أوامره بجلد ظهره بالسوط أمام جماهير الناس بمكان في السوق الكبير يقابل مدخل الحضرة العسكرية .

وأذكر بشكل غير واضح خلافاً حدث بين هذا الانكليزي الشرس وبين عشائر سامراء المحيطة بها مما دفع تلك العشائر الى أن تهاجم المدينة وتحاصرها أكثر من ثلاثة أيام قاسى منها سكان سامراء الجوع والعطش . وكانت البئر الوحيدة التي يستساغ ماؤها هي الموجودة في بيت (الطيف المراد) أما آبار

بيوت سامراء الأخرى فناؤها (مج) ولذلك كان أهالي سامراء في أيام الحصار الذي فرضته العشائر على المدينة يقفون بطوابير في انتظار دورهم لدلي الماء من تلك البئر •

أمي عالجت خراجاً في يدي وكذلك

عالجتني من حمى بطريقة شعبية

أُصبت وأنا في سن الخامسة تقريباً بخراج في كفي اليمنى ، فورمت وصارت تؤلمني ، فأبكي ولا أرتاح منها ليلاً ونهاراً • وذات صباح دخلت بيتنا الأرملة (حنا الجابر) ولما سمعتني أنتحب دخلت وراء أمي الى المطبخ وسمعتها توشوش في أذنها اسم دواء ، لم اسمع منها مفرداته ، غير أنني سمعتها تؤكد لأمي أن هذا الدواء مجرّب على أن يستعمل في الليل لا في النهار ، وانه كما يقول (دهدي) الحلاق أفضل علاج لحالة يدي • وبعد غروب الشمس لطخت أمي كفي المتألمة بمادة عجينية القوام ، ولفتها بكمية كبيرة من الصوف • وأذكر أنني لم أرتح في تلك الليلة الى رائحة نتنة تنبعث من تحت لحافي ، وحين استيقظت في الصباح كان ألم كفي قد خف الى قدر كبير ، ثم توقف نهائياً • وظهر لنا أن خراجاً كان في راحة يدي قد انفجر فاندلقت منه مدّة وخف الضغط منها على أنسجة يدي فتوقف الألم • وعرفت بعد ذلك أن (الدواء) الذي لطخت أمي يدي به كان مسحوقاً من الزجاج مخلوطاً بغائط لا يزال دافئاً بحرارة الجسم •

وبعد أشهر على ما أذكر أصبت بحمى طالت معي نحو أسبوعين فاقترح أحد أصدقاء أبي الذين يمارسون علاج بعض الحالات المرضية بالطرق الشعبية أن يضعوني في (عكّة) وهي الجراب الذي يحفظ فيه الدهن أو الدبس ، فكرهت هذه الفكرة وقاومت تطبيقها عليّ ، وتوسلت بأمي أن تنبذها ، وأخيراً خضعت لإرادتها ، فأدخلتني في (العكّة) بعد أن حورتها لتلائم شكل وحجم جسمي • وبقيت حبيساً في هذه العكّة حتى جفّت على

جسمي ، ثم قطعوها إرباً إرباً بمقص وحرروني منها ، وقد فارقتني الحمى ولم تعاودني بعد ذلك •

دخولي الى الكتّاب

قادني أبي ذات صباح الى كتّاب الملا (محمد الأملس) ، فكرهته بخوف من أول نظرة • كان في نحو الأربعين من العمر ، ذا لحية سوداء مشعثة وقد وخطها الشيب من جانبيها ، وعينين دامعتين ، وأسنان طويلة صفراء ، وعلى رأسه عمة خضراء ملفوفة بغير إعتناء حول طربوش أحمر فاقع• وكان قوام طلبته عشرين صبياً أو خمسة وعشرين بالأكثر ، يقعدون متربعين على حشيات متنافرة الاشكال والألوان ، يجيئون بها من بيوتهم • وكان للملا ابنة في منتصف العقد الثاني من العمر ، ذات بطن منتفخة وشعر منفوش • وكانت تكثر من الصراخ لأتفه الاسباب ، فيسترضيها أبوها الملا بما يجمعه من جيوب طلبته من المأكولات • وكان الصبيان في هذا الكتّاب يقرأون بأصوات صاخبة ، ويهزّون جذوعهم الى أمام والى وراء ، والملا بين الفينة والفينة يصيح بصوت هادر مرعب ، وهو يرفع عصاه الطويلة في الهواء ثم يضرب بها الأرض ، ويقول :

ــ أنت إرفع (حسّك) ، خلّيني أسمعك يا ولد •

يقول الملا ذلك وهو لا يعني أحداً من طلبته بالذات ، ثم بعد مدة يصيح :

ــ العمى يا أثول ، زبرة لا فتحة •

وهذا أيضاً يقوله وليس هناك من أخطأ بـ (زبرة) أو ضمة أو فتحة •

وانتهى هذا اليوم وأنا لم أفهم شيئاً ولا علمت ماذا يجب أن أتعلم •

★ ★ ★

كان دخولي الى الكتّاب حدثاً تحولياً في حياتي الأولى ، فلم أعد ألعب في ساعات الصباح مع أصدقائي في (دربونة) المحلة ، وعليّ أن أحافظ على نظافة ملابسي وحذائي ، وأعيد في بيتي قراءة ما تعلمته في (الكتّاب) ،

وأن أستيقظ مبكراً لتغسل أمي وجهي وتلبسني ثيابي • فاذا فرغت من تناول فطوري الذي كان في العـادة قليلاً من حليب الغنم أو الشـوربة ، حشت جيوبي بقليل من الحلوى أو التمر الجاف ، ودفعت (جزو عمّ) من القرآن الكريم تحت إبطي وهي تقول لي بأمر :

— رأساً الى الملا • سمعتني ، لا تقف هنا ولا هناك •

فأنطلق مسرعاً إطاعة لأمرها ، فلا أقـف إلا عند الحلقـة التي يشكلها أترابي حول الحشية المرتفعة التي يتربع عليها الملا ، فيستقبلني هذا صارخاً :

— تعال يا ولد

فأتقدم منه مسبل اليدين خافض الرأس ، ولما أصير قريباً منه يصـرخ مرة أخرى :

— تعال ، بعد ، اقترّب

فأتقدم بضع خطوات لأصير قريباً منه ، فيدس يده في جيب ثوبي ويأخذ نصيبه الأكبر مما فيه من حلوى وغيرها ، فأنخرط بعد ذلك الى جانب الطلبة وأعمل مثل ما يعملون ، فأهز جذعي الى أمام والى خلف ، وأزعـق مقلداً الصبي الذي الى جانبي ، فاذا حان وقت أذان الظهر انصرفنا الى بيوتنـا فرحين متدافعين • وأدخل بيتي وأنا أحمل تحت إبطي (جزو عمّ) لأضعه فوق رفٍ عند مدخل الحجرة التي نتناول فيها غذائنا ، وبالرغـم من أني حريص على وضعه بهذا المكان ، لكثرة ما تؤكده عليّ أمي ، فهي حين تراني عائداً من الملا لا تنسى قط أن تطلب مني أن أضع (الجزؤ) في ذلك المكان بالذات • كانت أمي جدّ دقيقة في مثل هذه الأمور ، وقد أخذت عنها شيئاً من هذه العادة • كما لا تنسى حين نقعد حول (صينية) الغداء أن تسألني:

— غسلت إيدك ؟

فأجيبها وأنا متبرم في سرّي :

— غسـلتها !

ولما ننتهي من تناول الغداء تصيح بي :

ـ وين جزوك ؟ (أين جزءك ؟)

وأعرف أنها تريد مني أن أقرأ أمامها ما تعلمته في كتّاب الملا في ذلك اليوم ، فأقول لها :

ـ ماما ، (خلّي) الأكل ينزل الى معدتي أولاً •

فترد عليّ بسخط :

ـ أعرفك ، ما تريد تصير آدمي ، أريد أسمعك ، گوم جيب الجزو بالعجل•

ولا عصيان لأوامرها ، فأجيء (بالجزو) وأتربع أمامها على حصير فوق الأرض ، وأفتحه على فخذي ، وأدسّ رأسي بين دفتيه لأقرأ ، وأمي تروح وتجيء فيما بيني وبين المطبخ ، وأسمعها تقول وهي بعيدة عني :

ـ أريد أسمعك ، إرفع حسك •

وأرفع صوتي قليلاً ، وقد تجيء وتجلس الى جانبي ، لتنقل نظرها بين فمي وصفحة الجزو التي أقرأ فيها • وكان ذلك يحـرجني ويربكني ، فلا تستقيم قراءتي ، وتكثر أغلاطي فيها ، حينذاك تنظر إلي بغضب وتقول :

ـ غلطت ؟

ـ لا يا ماما ما غلطت ، خلّيني أقرأ •

ـ (زين) أقرأ •

وأمي لا تعرف القراءة ، ولا تعرف من آيات القرآن الكريم إلا ما ترده في صلاتها حفظـاً ، ومن هنا فطنت الى علاج تدخلها في شؤوني عندما اقرأ أمامها ، فصرت أتجاوز الكلمة التي يصعب عليّ قراءتها • فعرفت أن ذلك يرضيها ويسعدها ويبعدها عني •

وأمي تعتقد ، لفرط تديّنهـا ، أنني إذا تعلمت قـراءة القرآن صرت (آدمياً) على حد قولها ، وهذا هو أبي تعلم قراءة القرآن فصار رجـلاً جباراً كما تراه • واخوتي تعلموا قراءته فصاروا في خدمة الحكومة ، لذلك

صارت تعتقد أن القراءة في القــرآن أفضل من الراحة بعد الطعام ، وأكثر فائدة وضماناً لتوفير النعمة ، وإحلال البركة في البيت .

وذات يوم طلب مني أبي فجأة ان أقرأ أمامه ما تعلمته في كتّاب المــلا محمد الأملس ، فلما بدأت أقرأ أمامه كثرت أغلاطي في القراءة ، فســألني متى قرأت هذه السورة ؟ قلت له أنني لا أزال فيها ، فطلب مني ان أقــرأ أمامه سورة تعلمتها في المــلا ، فتلكأت في قراءة هذه السورة أيضاً ، وكثرت أغلاطي فيها ، وانحدرت من وجهي قطرات العرق على صفحات القرآن الذي كنت أقرأ فيه أمام أبي . وفجأة قال لي : يكفي .

وأخذ القرآن الكريم من بين يدي وتركني مذهولاً . وفي صباح الغد أخطرتني أمي وهي تستحضر لي فطوري ان أبي سيأخذني الآن الى المــلا هاشم . فتوسلت إليها أن تقنعه بأن لا يفعل ذلك ، فردتني بصرامــة وهي تقول ان الملا محمد الأملس لم يحسن تعليمك قــراءة القرآن . وما كدت أتم فطوري حتى نهضت أمي وأحضرت جزو القرآن بنفسها على غير عادتها، وطلبت مني أن أغسل فمي وأتهيأ لمصاحبة أبي الى كتّاب الملا هاشــم . واقتفيت خطوات أبي في طرقات لم آلفها من قبل ، ودخلنا من باب وســيعة تعلو مستوى الشارع الى ســاحة كبيرة غطيت بعضها بالحصر . وفي ركــن مسقوف قريب منها رأيت عدداً من الصبيان في مثل عمري يتحلقــون حول رجل طاعن في السن ، ذي لحية طويلة بيضاء الشعر وطلعة نورانيــة ووجه مشرّب بالحمرة ، وعينينّ زرقاوين تنبعث منهما حرارة ويقظة ، فلما تقــدم أبي منه نهض هو ليقوم من مكانه احتراماً وتقديراً لأبي ، فاذا هو قصــير القامة بدين محدودب الظهر ، وتبادل التحية مع أبي بحرارة ، وكررا التحية بشيء من المعاتبة ، ثم التفت الملا إليّ وأنا منكمش الى جانب أبي ،وصاح بي أن أقترب منه ، فلما صرت بحذائه مدّ يده المكتنزة يتلمس بها أذني ، ثم فركها بخشونة وهو يقول لي :

ـ آني عندي قراية ما عندي لعب •

أما أبي فعقب على ما قاله هذا الملا قائلاً :

ـ انت تعرف شغلك يا ملا ، آني ما عليّ ، وغادر الكتّاب •

ونادى الملا على (الخلفة) حسين ، وهو شاب أطول مني وأكبر عمراً ، وقال له بأمر :

ـ خذ كمال يمّك ودير بالك عليه •

وسرعان ما عرفت أن تعليم قراءة القرآن عند هذا الملا لا تختلف عما رأيته في كتّاب الملا محمد الأملس ، وهي القراءة بصوت عالٍ ، صبي يقرأ في سورة الفاتحة ، وآخر في سورة (ق) وآخر في سورة (النمل) وهكذا ، والملا بين حين وحين يصيح مستهدفاً صبياً لا على التعيين أن يرفع صوته ليسمعه •

وبعد أيام بدا لي الملا هاشم ليس قاسياً كما بدا لي أول يوم رأيته ، ولا مخيفاً كما يبدو مظهره ، فلم أره يوماً يستعمل (الفلقة) ، بيد انه كثيراً ما أو في الأقل في اليوم مرة ، ينادي غاضباً بصوته الخافت أن يتقدم منه أحد الصبيان فيقرص أذنه دونما سبب أعرفه •

ولما (ختمت) قراءة القرآن ، احتفلت عائلتي بهذه المناسبة ، وكانت أمي أكثرهم فرحاً بها ، فألبستني أحسن ثيابي ، وكل ما تملك العائلة من حلي ذهبية وفضية وأحاطوني بزمرة من أصحابي في كتّاب الملا ، بعضهم يرفعون على رؤوسهم المصحف الشريف ، وآخرون يلتفون حولي ليحرسوا ما أتحلى به من غالي الثمن • كما شارك في هذا الحفل بعض من أولاد محلتي وأقاربي ، وتحرك هذا الموكب من المشاركين في حفل صاخب ، وئيداً من كتّاب الملا هاشم الى بيتنا ، تتقدمهم جملة من حملة الصواني المزينة بأوراق الآس وأوراد الختمة وزهرة الشمس والشموع ، وفرقة صغيرة تضرب على الطبل والغرناطة وأخرى تردد (الحمد لله الذي علمنا القرآنا) ، ومن بعيد

رأيت أمي ومن ورائها بعض النسوة على مدخل بيتنا يزغردن من وراء أكفهن التي يرفعنها تحت أنوفهن . واستقبلتني أمي وضمتني الى صدرها بحرارة، وأظنني شعرت في تلك اللحظة أنني قد كبرت وان أمي في قابل الأيام ستعاملني معاملة جديدة لينة . وبقيت أرقب واقع هذا الأمل طويلاً دون أن ألمسه . فقد بقيت أمي تنظر إليّ كما كانت تنظر قبل أن أختم قراءة القرآن ، طفلاً يحتاج الى ردع وتوجيه .

وذات ليلة من شهر تموز أو آب ، جفاني النوم بسبب الحر والتعرق. كان عليّ وأنا صغير الأسرة أن أستلقي على فراشي على سطح البيت فور انتهائي من تناول طعام العشاء ، قبل الآخرين من أخوتي وأختيّ ، فهؤلاء كبار لهم امتيازاتهم العائلية ، فيعملون ويسهرون ما يشاؤون . كما كان عليّ حين أضطجع على فراشي أن أرتدي (اللبّادة) وهي لباس أشبه بالقميص محشو بالقطن ، خوفاً من برد ما بعد منتصف الليل على ما تقوله أمي ، إلا أنني يجب أن أرتديها في أول الليل حتى لو كان الحر من فيح جهنم . وبحسب أوامر أمي يتعين عليّ أن أغفو لا أن أستلقي على الفراش فقط . وفي تلك الليلة كان الحر فيها شديداً ، وخفت أن اخلع اللبادة لأن ذلك لا يرضي أمي وعصيان أوامرها عمل منكر ، وحين اعتقدت أنها قد نامت ، تناولت كوز الماء القريب من سريري ونضحت بمائه فراشي ووسادتي . وعثر حظي فجاءت أمي لتلقي نظرتها الأخيرة عليّ ، فتلمست بكفّها فراشي فلما أحست به مبتلاً ، ظنت أنني بلت فيه وأنا نائم ، فتناومت وتصنعت الشخير لعلّها تؤجل عقابي الى الصباح ثم الله كريم ، إلا أنها قرصت أذني بقوة ، ولم أكن نائماً بعد ، فتظاهرت بفزع المفاجأة ، ولم تفت عليها الحيلة ، فطلبت مني بغضب شديد أن أنهض لتبدل فراشي ، ولم تمهلني لأفهمها أنني لم أبل في فراشي أملاً في أن ذلك يخفف من غضبها عليّ ، وأردت أن أتكلم فأسكتتني بلطمة على خدي ، وأرجعتني

الى فراش آخر جاف وحار وانا أشهق بالبكاء ، الى أن أخذني النوم الى عالمه الخالي من غضب الأم •

★ ★ ★

وكان كل من في البيت من أبي وأمي وأخوتي وأختيَّ متدينين ، ويقيمون الصلاة بأوقاتها،وكان يبهرني نشاطهم في باكر الصباح حين يستيقظون لأداء فريضة صلاة الفجر ، وألتذ بانتعاش حين أفتح عيني على صوت أبي وهو يصلي ، ويتهجّد ، ويطيل الدعاء الى الله ان يسبغ عليه الستر والعافية، والرزق له ولأولاده واخوته ولأمة المسلمين • وبعد صلاة الفجر تدب الحركة في كل أركان البيت وفي مطبخه للتنظيف وتجهيز طعام الفطور الذي نتناوله عادة في فناء البيت صيفاً وفي حجرة المؤن شتاءً حين يكون فيها الموقد الأرضي يلتهب بخشب الغضا تحت قدري الشوربة والحليب •

★ ★ ★

وأذكر أني كنت أترقب ليالي الجمعة بفارغ الصبر ، وهي الليلة التي يزور فيها أهالي سامراء ضريح الإمامين علي الهادي وابنه الحسن العسكري• ويتهيأ بيتنا لهذه المناسبة فيحمي الحمام ، وندخله واحداً بعد واحد ، ونرتدي بعد الاستحمام ثياباً نظيفة تستحضرها أمي قبل يوم ، وهي تتشدد في تطبيق ذلك دون تساهل ، (لأن دخول الحضرات المقدسة بجسم وسخ حرام وخطيئة ، وزيارتها في ليالي الجمع توفر النعمة والبركة والعافية)• وكانت هذه الاستعدادات تنقلني الى عالم روحاني أتهيبه وأخافه ، واذا أقبلت على ضريح أحد الإمامين توقفني أمي عند مدخله لأقرأ سورة الفاتحة على روح صاحب الضريح ، ثم نطوف حول الضريح نردد في صدورنا ، أو بصوت خافت سورة الفاتحة والدعاء الى الله ليهبنا العافية والستر والبركة•

★ ★ ★

وكانت حضرة الإمام العسكري يومئذ تضاء بالشموع ، فلم يكن

الكهرباء قد أدخل الى سامراء بعد ، وضياء الشموع اكثر ملاءمة وتناسقاً لجو هذا المكان •

كما كنت أترقب ليالي الأثنين ، وهي ليالي أخرى مقدسة ، في إحداها ولد النبي محمد (ص) ، فيقام فيها (الذكر) بمدحه في (تكية) الشيخ وهيّب العباس ، والشيخ محمد الغلام ، والشيخ أحمد الشيخ محمد • وينقر فيها محاسيب الشيوخ على الدفوف ، ويرتلون المدائح الوجدانية بذكر الرسول (ص) وجذوعهم تتمايل ذات اليمين وذات الشمال • وينهض أحد (محاسيب) الشيخ ويصيح بأعلى صوته : مدد ، مدد يا رسول الله ، ويرد عليه ثانٍ : صلوات على (ابو) ابراهيم محمد ، ويعود الاول يصرخ : مدد (يا أبو خمرة) ، وفجأة تلمع في يد هذا المحسوب الأخير (الحربة) وهي قضيب من الحديد مدبب النهاية ، يطول حتى يصل الى محزمه ، ويتقدم من الشيخ صاحب التكية ويشير هذا بكبرياء بحركة خفيفة من يده إيذاناً منه أن يفعل هذا المحسوب ما ينوي عمله ، وانه تحت حمايته الروحانية ، حينذاك يثبت المحسوب مقبض الحربة على الأرض ، ثم يتلمّس طرفها المدبب بأصابع يمناه ، ثم يثبته في موضع من بطنه السفلى ويثني جسمه على الحربة ويدفع بثقله عليها ، ويتبع ذلك بثقله حتى يبرز طرف الحربة المدبب من خلف جسمه • ان ذلك شيء غريب ومرعب ، وقد لا تصدّق روايته ، أما مشاهدته عياناً فتثير العجب والذهول •• وفي غضون هذه الحركات تتصاعد الصلوات على النبي المصطفى من أفواه الحاضرين ، ويتزايد النقر والضرب على الدفوف ويعلو • ويتقدم من دفع الحربة في بطنه من الشيخ ليسحبها ببطء وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ، فاذا انتهى من اخراج الحربة يقفز ذلك المحسوب في الهواء بحركة بهلوانية اعلاناً عن انتهاء هذه المعجزة !

وليس في هذه العملية خداع نظر ، أو تحايل بحركات سريعة تضيع على المشاهد ملاحقتها لكشف عما يمكن أن يكون فيها ستر لما يشبه السحر

أو الشعوذة . فقد أخذت صور فوتوغرافية وسينمائية فثبتت واقعيتها خطوة خطوة . ولم أرَ أنا هذه الصور إلا أنني سمعت عنها فقط . على ان هذه الفعاليات ليست وقفاً على ذوي الطوائف الدينية من المسلمين ، فان بعض الهنود من غير المسلمين يمارسون هذه الحركات في بعض طقوسهم الدينية كجزء من صلواتهم في أضرحتهم المقدسة ، وقد يفعلون ما هو أكثر غرابة مما يفعله المسلمون في هذا الموضوع ، وسرّ ذلك غامض لا يعرفه إلاّ رب العالمين .

★ ★ ★

ولم تكن في سامراء محلات لهو لمن هم بعمري يومذاك ، وأمي لا ترتاح لمصاحبة أولاد محلتي ، وأصغر اخوتي يكبرني بست سنوات. وحاولت يوماً أن أقتني طيور الحمام فثارت أمي معارضة ورفضت رفضاً باتاً أي نقاش في هذا الموضوع بحجة ان الحمام يجلب النحس ويقطع الرزق ، وأمي لا يعصى لها أمر ، وأخوتي يطيعونها طاعة عمياء ، وتكفي منها إشارة لتصعق أي واحد في بيتنا .

وكنت أستمتع في طفولتي بأحاديث العجائز من النسوة حين يجتمعن في بيتنا في بعض ليالي الشتاء ، فيدردشن في مواضيع لا تقارب بينها ، أو يشاغبن على أزواجهن ، أو يحكين (السوالف) من آخر أخبار القدماء باسلوب ممطوط فيه الكثير من المبالغة والشكليات التافهة ، إلا انه كان بشكل عام ممتعاً وجذاباً بالنسبة لي . وتطلب أمي من أختي الصغيرة أن تقرأ (المولود) ، وهو كتيب صغير في مولد النبي محمد (ص) ، فتتحلّق النسوة حول فانوس نفطي يرتفع على منضدة خشبية مدهونة بلون أخضر مزوّقة حواشيها بماء الذهب . وكانت تستهويني هذه الحلقة ، وخصوصاً إذا كان فيها جارتنا (صالحة الجونة) ، وهي مطلقة في نحو الاربعين من العمر ، طويلة القامة نحيلة القوام ، وذات وجه مجدور داكن السمرة ،

وأنف مدبب دقيق ، وعينين صغيرتين دامعتين ، فتردد مع أختي ما تقرأه في كتاب (المولود) وهي تدس وجهها الى جانب وجه أختي بين دفتي الكتاب كما لو انها تقرأ فيه ، وهي لا تعرف القراءة قط ، إلا انها لكثرة ما سمعته من قراءة (المولود) من أختي صارت تحفظ كثيراً منه على ظهر قلبها ، على أن نغمة صوتها وجرسه الممتلىء جعلها أبرز ما في صخب هذه الحلقة .

فاذا سمعن صرير باب البيت عند عودة أبي من أحد دواوين شيوخ سامراء ، أخفت أختي كتاب المولود وانفرط المجلس فآسف لذلك إن لم أكن قد نمت قبل ذلك .

طه الفريح

وفي كل مدينة تقريباً مجنون أو أكثر ، وجنونهم على درجات ، فمنه ما يكون المجنون هادئاً لا أذى منه . وقد يكون هذا صنفاً من أصناف التخلف العقلي ، والبعض الآخر لا يؤتمن منه ولا يؤتمن عليه ، فقد يضرب من يتقرب منه ، وقد يقتل نفسه ، أو يقتل غيره . وقد وعيت على الصنفين في سامراء . وكان من أحدهما رجل بنحو الأربعين من العمر اسمه (طه الفريح) ، وقد جاء اسمه من كثرة ما يردده مع نفسه بجرس خفيض وهو يقول عن نفسه (طه الفريح ابن الچلب بن فريح) . وهو متين الجسم ، متوسط الطول مليح الوجه وبعينين كحلاوين ، ويلف جسمه بأكياس الجوت . كما كان يتغوط واقفاً في منعطفات الدرابين ، فينحدر غائطه على فخذيه وساقيه وقدميه . وهو دائم التجوال في طرقات سامراء وأسواقها ، ولا يستجدي الناس ، غير انهم يعطونه بسخاء ولكنه لا يأخذ منهم إلا القليل، ثم يعطيه لمن يصادفه من فقراء السابلة في الطريق دون تعيين ، وهو يدخل البيوت في الأيام المطيرة فلا تخافه النساء ولا الأطفال ، ويبش بوجه هؤلاء ويلاطفهم بلغة غير مفهومة ، وكثيراً ما نسمعه في ليالي الشتاء يغني تحت طاق بيتنا نوعاً من أنواع المقام العراقي ، أو العتابة أو السويحلي أو النايل بلغة تمر فيها بعض الحروف أو الكلمات العربية ولكنها لا تكوّن لغة نعرفها .

وصوته في نغم العتابة والفرافيات يرق له السامع فينصت إليه ويعزلـه عن كل أفكاره وأعماله • ولا يعرف أهل سامراء اقارب لطه الفريع ، ومنهم من يقول انه من عشيرة البو باز ، ومن يقول انه ينام واقفا كما تنام الخيول ، او ينام متكئاً على جدار بيت ، أو على باب حانوت معلق • ويقال أيضا انه ينام في المقابر أحيانا،كما يؤكد آخرون انه ينام في احد بيوت (البو رحمان)• وقد توفي طه الفريع في ظروف غامضة ودفن قرب باب الملطوش بظاهر سور سامراء قبل تهديمه • وبالجملة ، للسامرائيين آراء مختلفة وبعضها متضاربة في طه الفريع ، فيعده البعض مخبولاً بينما يعده بعض آخر انه من أوليـاء الله وصار هؤلاء بعد وفاته يتبركون بمخلفاته ، ومنهم من يزور قبره قرب الباب الملطوش وينذر له الشموع وخضاب الحناء • على ان بعض القصص إن لم يكن جميعها قد ألصقت بطه الفريع مدحا أو تبجيلاً ، قصصـاً ليس فيها للمنطق نصيب ، فقال أحدهم انه تركه في بغداد وأخذ القطــار الى سامراء فوجده قد وصلها قبله • وكان ذلك الشخص يوماً مشغول البال في أيهما أفضل أن يشتري مضخة ماء أو عدداً من الضأن ، وتردد في اختيـار أحدهما ، وما عنده من المال هو كل ما يملكه ولا يريد أن يجـازف به في مشروع فاشل ، فاذا هو في ذلك اليوم وجهاً لوجه مع طه الفريع في منعطف طريق عند بيته ، فأوقفه طه الفريع وهو يقول له دون مقدمات :

— إبن فريع يقول انصب المضخة •

فاستمع الرجل الى نصيحته وعمل بموجبها ، وفي موسم واحد استفاد منها بقدر ما صرف لها من المال •

ولا بد أن أسوق هنا ملحقاً لحكاية طه الفريع ، وهو أنني ذات يـوم زارني في بيتي شخص ذو منزلة حكومية مرموقة وسألني بينما كنا نتحدث عن سـامراء :

— تعرف طه الفريع ؟

— طبعاً أعرفه ، وهو يقدك منذ سنوات بعيدة .

فقال لي :

— أعرف أنه توفي ، ولكنني اسألك كيف مات ؟

فقلت له :

— كما يموت كل الناس ..

— أقصد هل مرض ومات وأين قبره ؟

— لا يعرف ذلك أحد ، ويقال أنه ابتعد في الفيافي التي تحيط بسامراء فمات عطشاً وأكلته الذئاب .

فضحك مني ذلك الزائر ، وقال :

— لا يا عزيزي الدكتور ، أن طه الفريع ولي من أولياء الله وقد توفي وغسلته الملائكة بماء الورد ، ورفعته الى السماء ..

فلما بدا على وجهي الاستغراب ونفي ما سمعته منه قال :

— نعم ان ذلك مؤكد .

وأمسكت عن محاجة هذا الزائر الى ان غادر بيتي وهو يعتقد أنه أفادني بمعلومات عن طه الفريع فاتت لولاه عليّ .

ومن أخبار طه الفريع التي لا أنساها قط الحادث الآتي :

ذات ليلة ظلماء من شهر تموز يوم كنت طالباً في ثانوية بغداد وقد جئت الى سامراء في العطلة الصيفية ، وفيما أنا أقترب من باب بيتنا أحسست بهاجس داخلي دفعني الى أن أنظر الى ما تحت (الطاق) فاذا بي أرى كومة سوداء تتململ بلا معالم ، وركزت نظري على هذه الكومة فاذا هي رجل عار كما ولدته أمه قاعداً القرفصاء وكمن يريد أن يستر عورته ، وهو يرفع رأسه نحوي الذي بدا لي طويلاً كرأس الحصان ، ثم تكشفت لي عيناه فاذا هما تحدقان فيّ بشزر وغضب ، وتراءتا لي حمراوين تقدحان شرراً وحقداً .

وحين أطلت النظر إليه دون ارادة مني لأجلو الحقيقة من الخيال ، حينذاك داهمني ذهول ورعب شلَّ قواي ، فأردت ان أصرخ خوفا ورعبا ولكنني عجزت ، وأردت أن أهرب فما استطعت ، ثم سمعت كمايسمع النائم تحت وطأة حلم ثقيل ضربات اقدام تدب متعجله على الأرض وتقترب مني ، فاذا هو طه الفريح يقول لي : لا تخف من هذا المجنون ، وفي لحظات قبض على رقبته وأبعده عني كما يقاد الكبش • وتبع ذلك ظهور الشيخ (محمد الشيخ آحمد) من بين ظلمة الليل وتقدم غاضبا من ذلك المجنون وصرخ في وجهه ثم هوى على ظهره بعصا غليظة قام على أثر ذلك المجنون مطويا على بطنه وهو يسحل وراءه سلسلة ثقيلة من الحديد ، بخطوات بطيئة مسح بها الأرض والشيخ محمد يتابع ضربه بعصاه حتى أدخله بيته المجاور لبيتنا • أما آنا فقد تنفست الصعداء والتفتُّ الى طه الفريح لأشكره فرايته قد اختفى • وعرفت في اليوم التالي ان مجنونا في تكيه الشيخ محمد قد هرب حين نام حارسه وتسلل زاحفا حتى وصل تحت طاق بيتنا ليخيفني الى حد الموت •

في المدرسة الابتدائية

يوم دخولي الى المدرسة الابتدائية سنة ١٩٢٤ لم تكن في سامراء إلا مدرسة واحدة بهذا الاسم • وهي في الأصل دار كبيرة بدهليز واسع مفروش بالحصى ، وفناء فسيح تحيط بجهتيه الجنوبية والشرقية خمس حجرات بسعاتٍ متفاوتة ، وكل منها بنافذة واحدة الى جانب بابها ، إلا واحدة منها كانت طويلة بالنسبة لعرضها أقيمت على جانبها المطل على فناء الدار معالف للحمير والخيول والبغال التي تحمل الايرانيين الذين يقدمون الى العراق لزيارة العتبات المقدسة ، وقد طوّرت هذه الحجرة الطويلة لتكون منها حجرتان واحدة لادارة المدرسة والأخرى مخزناً لها • وعين للمدرسة مدير من أهل الأعظمية اسمه (إبراهيم عمر) ، وهو داكن البشرة وتغطي وجهه

ندوب واسعة من فعل (حبة بغداد) التي كانت منتشرة يومئذ في الاعظمية بشكل خاص حتى أصبحت علامة فارقة لمن يسكن هذه المدينة • ثم أضيف الى ملاك هذه المدرسة معلمان تخرجا معاً من دار المعلمين الابتدائية ، كان أحدهما (جمال الآلوسي) والآخر (داود يحيى) وكلاهما من أهل تكريت، وكان يصحب هذا المعلم الأخير أخوه طاهر يحيى (رئيس وزراء العراق في سنة ١٩٦٨) فكان هذا أحد زملائي في هذه المدرسة سنة ١٩٣٠ ، ثم أضيف الى ملاك هذه المدرسة معلمان أحدهما اسمه (عمر خطاب) وهو من أهل الأعظمية أيضاً ، والآخر اسمه (موشى معلّم) وهو من يهود بغداد ، لتعليم اللغة الانكليزية • وفي سنة ١٩٢٩ أضيف الى هذا الكادر المدرسي معلم معمم من أهل سامراء هو (سيد علي الياسين) أخو ملا طه الياسين العالم الديني ، وكان من أترابي في الصف الخامس طالبان هما مزاحم ماهر وآخر اسمه (عايد) ينازعانني بتصميم على الأولوية في هذا الصف ، وكنت أغار منهما بكبت ، ولا أظنهما كانا يعلمان ذلك ، فاذا حصلا في امتحان على درجة أعلى مما أحصل فيه ، فلا يطيب لي هذا التفوق ، مع اني أعترف أنهما يستحقانه ، إذ كان خط عايد أجمل من خطي ، ودفاتره أنظف من دفاتري ، وأجوبته على أسئلة المعلمين ترضيهم أكثر مما ترضيهم أجوبتي •

وعايد من عائلة غير موسرة على نقيض عائلتي ، فأخاف أشد الخوف أن يعرف أهلي تفوقه عليَّ ، وفي السنة الخامسة انقطع عايد عن الدوام في المدرسة ليعمل مع أبيه في السوق ، ثم عمل (بلاماً) في نهر دجلة ليحمل في قاربه من يريد عبور النهر الى الجانب الغربي وبالعكس • وقد فرحت في سري لذلك ، إذ خلا لي ميدان الصف من منافس عنيد ، وصار مزاحم ماهر مراقب صفوف المدرسة وصرت أنا معاونه • ولم أر (عايد) إلا بعد أكثر من تسع عشرة سنة فاذا هو عريف في شرطة المرور في منطقة (إمام طه) حيث أقيم بعد ذلك تمثال (الرصافي) ، وكنت يومئذ قد أصبحت طبيباً ولي

سيارة خاصة ، فاذا مررت به إبتسم له من بعيد فيفسح لسيارتي الطريــق حين تزدحم فيه السيارات ، ولما أصير الى جانبه يسألني ببراءة وتحبب :

ــ ابن عمي شلونك ؟

فأجيبه بالشكر وأنا أقول في سري (سبحان الله ، هو الآن شرطي وأنا طبيب ، وكان يوماً يتقدمني في المدرسة ، وأنا اليوم أتقدمــه في الجـــاه والمـــال !) •

وأســـأله :

ــ شـــلونك ؟

فيجيبني برضى وقناعة :

ــ نشـــكر الله ••

وأقــف قليلاً عنده وأنا أحاور نفسي بخجل فيما آل إليه كل منا ، ولله في خلقه شؤون •

وذات يوم حين وقفت بسيارتي الى جانبــه رفع رأسه نحوي من خلال نافذتها وطلب مني أن أتوسط له لدى مدير شرطة بغداد لترقيته الى رتبــة (خيطين) ، وقد استجبت لطلبه وحمدت الله ان مدير الشرطة استجاب لرجائي الذي رفعته إليه السيدة زوجته التي كانت يومئذ من مريضاتي • ورأيته يوم حمل الخيطين على عضده ، فرحاً ممتناً وهو يقول لي :

ــ ابن عمي أشكرك •

وعرفت بديهياً لماذا يشكرني ، فقلت له :

ــ أنا بخدمتك •

وكان في الحقيقة يستحق مني الخدمة والتقدير منذ كان معي في المدرسة الابتدائية وهو يتقدمني في سنتها الأخيرة ، فتأجلت خـــدمتي له الى هــذا اليوم لعدم توفر الفرص الى جانبه ليكمل تعليمه مثلما توفرت لي لأكمــل تعليمـــي •

ولم أرَ عايد بعد ذلك الى هذا اليوم •

قتيل على قارعة الطريق

كان الوقت ظهراً حين عدت من المدرسة الى البيت عن طريق سوق اليهود ، فاجتذبت نظري جمهرة من الرجال مجتمعين في منعطف السوق الى بيتنا ، وعلى وجوههم الوجوم وهم يتطلعون الى شيء ما ملقى على قارعة الطريق . ودفعني حب الاستطلاع لأعرف سبب ذلك . فدسست رأسي في فرجة بين أرجل أولئك الرجال ، فارتعبت أي رعب حين شاهدت رجلاً لم أتبين منه سوى رجليه ، وإحدى يديه وهي مبسوطة بارتخاء الى جانبه . أما رأسه وجسده فقد غطتهما عباءة سوداء ومن تحت طرفيها ينحدر ببطء دم يتجمع قريباً من صدره . وأخافني ما رأيته ، فهرولت الى بيتنا لأصل في الوقت المحدد حذراً من غضب أمي إذا تأخرت . وانتبهت أمي الى رعبي فقصصت عليها ما شاهدته في سوق اليهود ، فما كان منها إلا ان مسكت أذني ولوتها وهي تقول لي :

— الكذب فتنة ، والفتنة أشد من القتل .

وحاولت أن أؤكد لها صدق ما قلته لها ، غير أنها أسكتتني باشارة غاضبة ، وحين دخل أبي الى البيت سمعت أمي تسأله بهمس عن الحادث الذي أخبرتها عنه ، فأكد لها الحقيقة التي شاهدتها بعيني . وأنصت الى ما ستقوله عني ، فلم أسمعها تقول شيئاً ، ومرت من أمامي صامتة لتهيء (صواني) الغداء .

★ ★ ★

وبعد سنوات طوال عرفت قصة هذا القتيل واسمه (عزاوي) وهو من عشيرة البو عباس ، وذو يسار ونعمة ، وقد خطب لنفسه فتاة من عشيرته يحبها وربما هي تحبه أيضاً . كما انها قريبة من رجل آخر كثير الكلام قليل الفعل ولذلك كان الناس يلقبونه (جعيجع) أي ذي الادعاءات الكاذبة . وسمع عزاوي أن جعيجع ينهاه عن الزواج بتلك الفتاة . و(النهوة) معناها

القتل إذا لم ينته من ينهى • وهو تقليد عشائري يعمل به أهل سامراء • فقال عزاوي حين سمع بالنهوة من خصمه جعيجع :

— إذا كان جعيجع يستطيع قتلي فتباً لي ومرحباً بالموت •

ولم يأخذ عزاوي حذره من القتل • فانتظره خصمه جعيجع قرب قهوة صالح الحبيب ، وتقابلا ، واستل جعيجع خنجره من محزمه وهجم عليه،ولم يكن عزاوي مسلحاً ، وطعنه ثلاث طعنات متتالية فخرّ عزاوي صريعاً يرفس حتى انقطعت عنه الحياة •

مفتش المعارف نوري ثابت وشمعون أفندي

وأذكر حدثاً في يوم أخبرنا فيه مدير المدرسة إبراهيم أفندي ، أن مفتش المعارف (نوري ثابت) سيزور المدرسة للاطلاع على سير التعليم فيها • ودخل نوري ثابت (الصف السادس) الذي كنت فيه وكان رجلاً في نحو الثلاثين من العمر بتقديري ، وذا قيافة جذابة ، وملبس لائق بكبار موظفي الدولة ، ويتدلى من جيبه الأيسر الأعلى منديل من الحرير الأبيض • وكان يصحب المفتش نوري ثابت شخص ببطن منتفخة ووجه ممتلىء ، قدّمه المفتش نوري ثابت الى طلاب الصف كأحد رجال التربية الكبار في بغداد ، ورئيس مدارس الأليانس اليهودية في العراق اسمه (شمعون أفندي) • وكان هذا الرجل يحمل على أنفه عوينات داكنة ، وقد يكون في إحدى عينيه تشويه فاضطر الى اخفائه بهذه الطريقة •

كما قال المفتش نوري ثابت ان شمعون أفندي كبير معلمي الحساب في المدارس اليهودية ببغداد ، فطلب نوري ثابت منه أن يمتحن طلاب صفي في موضوع الحساب • فتردد شمعون أفندي أن يستجيب لهذا الطلب ، ثم قال أخيراً :

— طيب ، أسأل : المتر المكعب كم نصف متر مكعب ؟

ومن المتوقع أن يجيب الطلبة : بأنه إثنان • ورأيت إذا كان هذا هو

الجواب فالسؤال يبدو تافهاً جداً فاستبعدت هذه الاجابة ولا بد أن يكون الجواب غير ذلك • وأجاب أكثر الطلاب ان المتر المكعب إثنان بنصف متر مكعب، ورفعت يدي بعد أن سكت الطلبة منتظرين الجواب من شمعون أفندي ، فأجاز لي أن أجيب عن السؤال ، فقلت :

— ثمانيـة !

وضحك زملائي الطلبة استهزاءً بجوابي • أما شمعون أفندي فابتسم وقال :

— نعم ، أنت مصيب يا ولدي •

ودس يده في جيب سترته الداخلي ، وأخرج منه قلماً وقدّمه لي تقديراً لجوابي الصحيح • وكان ذلك القلم من نوع (الباندان) أي من النوع الذي يختزن في داخله الحبر فيسيل عند الكتابة دون حاجة الى غمسه في حبر المحبرة •

★ ★ ★

وكنت أتسلى في مساء كل يوم عند غروب الشمس حين اذهب الى باب سور الناصرية لأجيء بنعاجنا الأربع من قطيع الراعي (محمد البهاني) الذي يقف عند مدخل باب السور • وكان هذا الواجب يروق لي طالما يحررني من البقاء داخل البيت • كما كان هذا الراعي بلباسه الفضفاض المتهدل من كل أطرافه ، وعصاه الطويلة المعقوفة عند نهايتها ، ومن ورائه كلبه الأبقع الضخم ، ومن خلفهما قرص الشمس القرمزي وهي تنحدر رويداً وراء الأفق الفسيح ؛ كان كل ذلك يستهويني ويشرح صدري ولا يغيضني منها إلا سرعة أخذ نعاجنا الى البيت •

كذلك كان يستهويني رؤية أفواج الخفافيش التي تعج في الفضاء رائحة الى نهر دجلة أو عائدة منه ، وكنت أنا وأصحابي الصبيان الذين بعمري نستهدفها بضرب الحصى ونستغرب أشد الاستغراب حين تتفادى تلك

الحيوانات الطائرة الضربات بسرعة مذهلة فلا نصيب واحدة منها بالرغم من كثرة أعدادها .

× × ×

كذلك كنت أستمتع بالتردد على آثار العباسيين ، فأطوف مع أترابي في أيام العطل المدرسية أرجاء المسجد الجامع ، ونرتقي المئذنة الملوية ، وتتسلق دار الخلافة المطل على نهر دجلة لنتصيد فراخ الحمام وطيور الشاهين والبوم التي تحوم بين خرائب تلك الآثار ، فنعرف أمكنة أعشاشها من أصواتها الحادة التي نسمعها من بعيد ، فنتابع مسير طيرانها حتى تحط على تلك الأعشاش .

ومرة كنت وصديقي (سعيد عباس) في صباح أول يوم من عيد الأضحى تتسكع بين أطلال المسجد الجامع العباسي ، وهي عادة يألفها أولاد سامراء في هذه المناسبة ، فسمعنا أصوات فراخ طير الشاهين في جحر بأعالي حائط الجامع ، وحين رفعنا رأسينا لنضبط مصدر الأصوات شاهدنا هذا الطير في مدخل جحر عال وهو ينفض ما في جوفه في أفواه فراخه التي تزدحم على مدخل عشها . وأطال سعيد النظر الى تلك الفراخ في عشها ليقدّر علو مكانها عن الأرض ، ولم يكن أقل من تسعة أمتار ، فقال لي :

— سأتسلّق الجدار حتى أصل إليها .

فقلت له :

— إحذر يا سعيد فانه عالٍ .

— إن في الجدار حجارات بارزة تساعد يدي ورجلي أن أتسلقها بسهولة .

وكان إصطياد فراخ الشاهين متعة لا نستطيع ونحن في ذلك العمر مقاومتها بالرغم من اننا نعلم يقيناً ان أكثر هذه الفراخ تضرب عن تناول طعامها من أيدينا حتى تنفق .

وحين شرع سعيد بتسلق الجدار كان طير الشاهين يطعم فراخه بنتف

مما حمله بمنقاره من لحوم الجرابيع والفيران • وطار طير الشاهين حين رأى سعيد يقترب من عشه ، غير انه عاد يحوم وهو يزعق بغضب ، ويقترب من سعيد الذي كان يتشبث بحجارة مدخل العش ، ومرة كاد يضربه بجناحيه ومخلبيه ، وسعيد غير مكترث بذلك حتى وصل الى عشه ، وأخرج منه فرخاً ملأ كفه ، ووضعه في جيب دشداشته ، وأدخل يده في العش مرة أخرى ، وأخرج منه فرخاً آخر ، وشرع ينحدر من العش شيئاً فشيئاً ، وبحذر وخوف شديدين ، ولم يبق لتصل قدماه الأرض إلا نحو قامتين ، حينذاك انخلعت الحجارة التي يمسكها بيمناه ، فتهاوى على الأرض كجلمود صخر بلا حراك • ولم أعرف انه أصيب بأذى كبير ، فتجاهلته بدافع رؤية فرخي طير الشاهين ، فأخرجت الفرخين من جيبه وانشغلت بالنظر إليهما بعين الظفر ، وهما لا يكفان عن نفش ريشهما الناعم الرقيق الذي يشبه القطن المنفوش ، ويدفعان جسميهما عني بنفور ليتخلصا من قبضة يدي، ورفعتهما على راحة يدي ليراهما سعيد ، غير انه لم يبد مهتماً بصيده الثمين•وناديته مرتين فاذا هو بلا جواب ولا حراك ، ونفسه يتقطع ، ووجهه شاحب معصور الملامح ، فأجابني ببطء وصعوبة أخافتني ، وسألته :

— ما بك يا سعيد ؟

فأجابني بعد أن كررت سؤالي :

— رجلي !

— ما بها ؟

— لا أعلم •

وتلمست إحدى رجليه ، ثم تلمست الأخرى فصرخ متوجعاً ، فنهضت مذعوراً أنادي بأعلى صوتي لأطلب مساعدة راعٍ كان قريباً منا ، فأودعته عنده وذهبت لأخبر والد سعيد بما حدث لأبنه ، ثم حملناه في محفة على بساط الى بيته ليجبّر رجله المكسورة (أحمد الحمد حار) ، وبسرعة غادر بيته معافى •

وتباعد مسرى حياتي وحياة سعيد في المراحل التالية ، فامتهن التعليم ثم الصحافة ، والموت يتربص له بعد أن فشل في ازهاق روحه حين سقط من عش طير الشاهين ، فاذا هو ينال منه برصاصة طائشة في شارع الرشيد بالقرب من مدخل وزارة الدفاع وكان ذلك في اليوم الثاني من حكومة جميل المدفعي التي شكلها في ١٩٤١/٦/٢ وأعقبت فشل ثورة مايس سنة ١٩٤١ •

مرض أبي والطبيبان العجمي والهندي/١٩٢٩

في مساء يوم بارد من شهر كانون الثاني اجتذبت انتباهي حركات غير اعتيادية لا تخلو من قلق واضطراب بين أهلي من الرجال والنساء ، فقد كانوا يصعدون السلّم الى غرفة (الطاق) في طابق البيت الأعلى وينزلون عنها ، ويدخل عمي الكبير البيت ويليه عماي الآخران ، ويرتقون السلم الى غرفة الطاق بقلق واهتمام ، أما أمي وأختاي فلم يشاركن هذا التجمع في غرفة الطاق ، كنّ قابعات واحدة بجانب الأخرى عند مدخل الحجرة التي الى يسار مدخل البيت ، وأمي أكثرهن شروداً عما يدور حولها في البيت ، وهي تحرك بأصابعها حبات المسبحة الطويلة التي لا تفارق يديها • كان كل شيء غير مألوف لديّ ولا أعرف له سبباً • وسمعت من يقول : حضر الحكيم العجمي • فاستقبله أخي الصغير وقاده يصعدان درجات السلم الى غرفة الطاق ، فاقتفيت أثرهما وتسللت من بين أرجل الكبار الذين كانوا يحيطون بأبي وهو يتلوى على فراشه من آلام في بطنه ، وقد اضطجع على حشية وطيئة على أرضية الغرفة • وجلس الحكيم العجمي عند رأسه ، وعمي الصغير يمسك بيمناه الفانوس النفطي فوق رأسيهما • وسرعان ماجاء أخي الأصغر بفانوس آخر وحمله فوق بطن أبي التي بانت لي حينئذ منتفخة أكثر من المعتاد • وتبينت لي معالم (الحكيم) حين ازداد الضوء عليه فاذا هو مربوع القامة ممتلىء الجسم والوجه وذو لحية حمراء ، وعلى رأسه عمّة

بيضاء غير الذي ألفتها في سامراء • وسمعت الحكيم يسأل عما يشكو منه أبي بلغة عربية فصيحة غير انها مفككة • ورأيت أبي يحاول أن يجيب على سؤاله ، إلا انه كان متعباً ، وكانت عيناه غائرتين ، فاكتفى باشارة من إصبعه الى بطنه ، ولم يقل شيئاً ، ويبدو أن الحكيم قد فهم ما عناه أبي بهذه الاشارة ، فمدّ يده يتلمّس رسغ أبي ، ثم بسطها على بطنه يتحسس ما في داخلها • وبعد لحظة تفكير رفع رأسه وقال لعمي الكبير :

ــ بسيطة إن شاء الله • ملعقة ملح بقدح اسكنجبين ، فاذا تقيأ شفي باذن الله • ولم يغادر الحكيم بيتنا حتى استحضر أخي ما وصفه لأبي • فتقيأ مباشرة ، غير ان هذا لم يشفه ولا خفف مما كان يشكوه من ألم ، بل زادت تكراراً وشدة • ولا أذكر كيف انقضت تلك الليلة ، وحين أصبحت رأيت أهلي ما زالوا صاعدين نازلين من حجرة الطاق • كما رأيت وجوهاً جديدة من الرجال يدخلون بيتنا يسألون بلهفة عن حالة أبي • ورأيت من بينهم شاباً يرتدي الطربوش ، ولم أعرف هويته ولا رأيته قبلاً ، وتقدم ذلك الشاب من أخي الكبير وقال له بعتب :

ــ يا أبو يونس أنت عاقل ، فاطلب لأبيك طبيب الحكومة الهندي فهو أفضل لمثل حالة (الوالد) ، فعرفت حينذاك أن في سامراء طبيبين وانهما على مستويين مختلفين في نظر بعض أهالي سامراء • وجاء أخي الكبير بالطبيب الهندي • وهو طويل نحيف وداكن البشرة وذو لحية سوداء ليست قصيرة ، ويرتدي ثياباً نظيفة وعمة بيضاء بعذبة طويلة تنسدل على أعالي ظهره • وحاولت أن أرتقي درجات السلم الى غرفة الطاق لأرى ما يفعل الطبيب الهندي لأبي ، إلا ان أمي أمسكت بي لأقعد الى جانبها • وبعد دقائق خلناها طويلة عاد أخواي وعلى وجهيهما ما يدل على ارتياحهما لحالة أبي • وشرعا يشرحان لأمي وأنا أنصت إليهما دون اهتمام كبير طالما منعت من الصعود الى غرفة الطاق •• قالا لأمي أن أبانا مصاب باختناق فتق مغبني، وقد دفع الطبيب المعي المختنق وأعاده الى موضعه في داخل البطن ، فارتاح

ابي ، ولم يعد يتألم . فبكت امي فرحا ثم ضحكت وحمدت الله على فضله.
وفي هذه اللحظات ادركت مكانة ابي من امي واخوتي ، فاذا هو الكل مما في هذا البيت من رجال ونساء .

وانطبعت في مخيلتي صورة ذلك الطبيب وعمله السحري في إبراء المرضى ، فأعجبت به إعجابا يقرب من الحب . فيطوف في مخيلتي وجهه الطويل وابتسامته التي تكشف عن اسنانه البيض ، والبشاشة التي فيها البشرى والامل في الحياة للمريض واهل المريض . وبعد مدة لا استطيع تحديدها رأيت هذا الطبيب مرة اخرى وهو يدخل المدرسة التي كنت احد تلامذتها ، فاذا انا أشعر ان بيني وبينه تعارف منذ جاء ليفحص ابي في غرفة الطاق ، ولا بد انه يذكرني إذا رآني بين اترابي من تلاميذ المدرسة ، إلا انه لم يلتفت إلي ، وكل ما فعله هو ما فعل لغيري من تلاميذ المدرسة لفحص عيوننا واحدا بعد واحد . وقبل ان يغادر المدرسة إطلع على حباب الماء وبيت الخلاء . وبعد أيام قلائل رأيت أغطية خشبية على تلك الحباب، كما رأيت نافذتين فتحتا على جانبي غرف الدروس . وعرف التلاميذ أن كل ذلك كان بأمر من ذلك الطبيب الهندي . كما عرفنا ان ذلك الطبيب كان مسلما ولا تفوته صلاة الجمعة في الجامع الكبير بجامع الغيبة بسامراء .

دروس ميدانية

اعتاد مدير المدرسة إبراهيم أفندي أن يستصحب طلبة الصف السادس في كل سنة لمشاهدة الآثار العباسية في شمال سامراء ، وفي الوقت نفسه (ليگشطوا) الزخارف الجصية التي تزين جدرانها ليكتب بها معلمو المدرسة على السبورات السوداء ، وتكون هذه المشاهدات على الأكثر في أيام الخميس ، وتبدأ بالمسجد الجامع ومئذنته الملوية ، فيقف إبراهيم أفندي بين سور المسجد والمئذنة ، ويبدأ يشرح هذين الأثرين العظيمين ، ويقول :ـ ان علو هذه المئذنة نحو خمسين متراً ـ ويضيف بزهو ـ انها أعلى مئذنة في البلاد

الاسلامية ، وان في هذا المسجد الجامع اكثر من ثلاثين برجاً لتسند حائطه وتحفظ استقامته ، كما فيه عشرون بابا ليدخل منها المصلون .

ثم يقول : تعالوا يا أولادي نعد الابواب والأبراج ، ونخطو وراءه بغير انتظام الى داخل المسجد ، فنعدها فاذا الأبراج أربعون والابواب واحد وعشرون . وينتهي إبراهيم أفندي من درسه عن هذين الأثرين ، ثم يقودنا الى دار الخلافة ، وكنا يومئذ نسميها اختصاراً (الخليفة) ، ونصلها من الجانب الشرقي ، ونعبر هذه الدار الضخمة من تحت طاقها الوسيع العالي لنقف على جرف دجلة من جانبها الشرقي ، فيقول لنا إبراهيم أفندي وهو يشير بيده الى الغرب البعيد عبر النهر :

ـ ترون ذلك البناء الكبير على الجانب الغربي من نهر دجلة ، فذلك هو قصر العاشق (المعشوق) .

وحين عدنا أدراجنا لنمر من تحت الطاق مرة أخرى ، نرى قطعة خشبية منشورية المقطع تربط جانبي الطاق من طرفه الأعلى ، وكان يقف عليها في تلك اللحظة طير حمام ، ونسأل إبراهيم أفندي عنها فيتلكأ ويتلعثم ويقول :

ـ قد تكون هذه وضعت لتقف عليها الطيور !

ويتحرك الطلبة وراء عمر أفندي نحو حفرة واسعة غير عميقة تقع على الشمال الشرقي من دار الخلافة ويقول :

ـ هذه هي بركة المتوكل الخليفة العباسي .

ويكتفي بهذا القدر من التعريف بهذه البركة . ونتحرك في اتجاه الشرق من البركة ونقف على حافة حفرة واسعة وعميقة غير بعيدة من البركة تنفذ إليها كوة بمستوى قاعدتها ، ويقول :

ـ وهذه هي الهيبة التي يحبس فيها الخليفة صيده من النمور والسباع الأخرى .

ونرى سلماً متهدماً ينحدر الى أرض هذه الهيبة ، ونطلب من عمر أفندي

أن نتحدر منه الى داخل الهبية ، فينهانا بحزم وشدة :

ـ لا أبداً يا أولادي، فقد يكون في أحد جحورها بعض الحيوانات المفترسة.

ويقول له أحد الطلاب :

ـ أنا وأخي انحدرنا قبل أيام الى داخل الهبية ولم نر فيها أي حيوان •

فيقول له عمر أفندي :

ـ هذا غلط يا ابني ، كان يجب أن لا تفعلا ذلك •

ويقول له طالب آخر وهو يشير باصبعه الى كوة صغيرة مظلمة في إحدى زوايا الهبية ويقول له :

ـ سيدي ، يقول أبي ان تلك الكوة تمتد تحت الأرض حتى تصل الى سرداب الغيبة بجامع المهدي بسامراء الذي اختفى فيها الامام المهدي فيجيبه إبراهيم أفندي ، وكأنه الحجة في ذلك •

ـ هذا صحيح •

ويتحرك إبراهيم أفندي والطلبة من ورائه الى (تل العليج) وهو مرتفع ترابي ضخم جداً ، فنرتقيه مهرولين ولا نصل الى قمته الواسعة إلا وأنفاسنا متقطعة وأرجلنا خائرة ، ويكون إبراهيم أفندي آخر الصاعدين عليه، ويقف ليستريح ويلتقط أنفاسه ، ثم يقول ولم يكن قد سأله طالب عنه :

ـ كان للخليفة المتوكل من الخيل في عساكره ما تحتاج من الشعير لاطعامها بحجم هذا التل • وأضاف يقول : ان الخليفة أراد يوماً أن يعرف كم من الشعير تحتاج خيول عساكره في اليوم الواحد ، فأمر جنوده الخيالة أن يملأ كل واحد منهم (عليقة) فرسه بالتراب ويحمله الى هذا المكان فكان من مجموعه هذا التل الكبير •

وسأله طالب :

ـ ومن أين حملوا هذا التراب •

فأجابه إبراهيم أفندي بيقين وكأنه أمر بديهي :

— من تراب حفر الهيبة .

وطبيعي أن لا يكون إبراهيم افندي دقيقا في معلوماته عن تاريخ تلك الآثار ، وجميعها مما سمعه من اهل سامراء ، وفيها كثير من التلفيق ما تخالفه الحقائق ، غير انها كانت بشكل عام كافية وممتعة للطلاب الذين كانوا بعمري .

أخي عبدالحميد وجفيته المصلاويه

يوم دخلت المدرسة الابتدائية كنت قد أدركت بتفهم اخوتي الثلاثة ودور كل واحد منهم في مسؤوليات البيت والعلاقة فيما بينهم وبين أبوي واختي ، وهي علاقة أبرز ما فيها الاحترام والطاعة للكبير ، والالتزام بمواعيد تناول الغداء والعشاء . وكان اخي عبدالمجيد يشغل وظيفة مدير مال القضاء ، ويرتدي اليشماغ والعقال والعباءة ، ويكتب بخط الرقعة الجميل ، وله ولع بتربية الخيول ، وهو الذي يعنى بخيولنا الثلاثة ، ويعرف أنسابها من الامهات والآباء ، وأما أخي الثاني فهو عبدالحميد وكان موظفاً بدائرة بريد سامراء ، ويرتدي الطربوش والجاكيت والزبون . وقد تعلم بث الاشارات التلغرافية في دائرة بريد سامراء حين كان يديرها (شاكر أفندي) التركي الأصل . ولا أذكر أني رأيته ، وأخباره عندي على لسان أخي عبدالحميد ، وهي مدعاة للتندر . فقد كانت دائرته في غرفة تطل على شارع البو بدري ، فاذا جاء من يريد طابعاً بريدياً أدلى له شاكر أفندي علبة يربطها بخيط لتصل الى أرض الشارع ، فيضع فيها المراجع ثمن الطابع ويرفعها شاكر أفندي ويأخذ منها ما وضعه المراجع ويضع فيها مقابل ذلك الطابع بالفئة التي تقابل قيمته ، ثم يدلي العلبة مرة أخرى الى المراجع فيلصق المراجع الطابع على غلاف رسالته ويودعها في داخل العلبة ليسحبها شاكر أفندي إليه .

وأذكر عن أخي حميد اهتمامه بهندامه ولباسه ، وبموضع الطربوش على رأسه . وذات يوم سمعت أمي تعاتبه بعنف على تردده على بيت (ميشيل أفندي) ، وتكرر عتابها عليه ، فعلمت أن ميشيل أفندي كان يعمل مترجماً

لحاكم سامراء الانكليـزي (ميجر بري) وانه يعايش في بيته امرأة اسـمها (جليلة) • وفي يوم غضبت أمي على أخي حميد وطلبت منه أن يقسم بالقرآن الكريم أن لا يدخل بيت ميشيل ، ودخلت على عجل حجرة المكتبـة وجاءت بالقرآن الكريم وقالت تخاطبه بحماسة :

ــ إذا لم تحلف على هذا القرآن فسوف أقول لأبيك ما يقولـه الجـيران عنك وعن امرأة ميشيل •

وصعق أخي حميد بهذا التهديد ونهض غاضباً ليغادر البيت فصاحت به:

ــ حميد إرجع ، وين رايح ؟ تعال تغدّه ••

فأجابها :

ــ رايح الى المقهى ، ولا أريد أن أتغدى •

ــ ارجع أبوك على وشك أن يحضر •

ودخل أبي البيت في تلك اللحظة ، وقد سمع آخر ما قالته أمي،فسألها:

ــ خير إن شاء الله ؟

فأجابته وكأن شيئاً لم يحدث فيما بينها وبين أخي حميد •

ــ لا شيء يا أبو مجيد •

وعاد أخي حميد ليشارك أبي في تناول الغداء •

وبعد مدة وجيزة سمعت أن جليلة قد أبعدت عن سامراء إثر طلب تقدم به أهل المحلة • وأكثر الاحتمال ان نساء سامراء هن اللواتي حثثن أزواجهن على تقديم ذلك الطلب• وبعد أشهر معدودة جاء (الطيف القهوچي) باسطوانة وضعها على گرامفون (أبو البوري) كانت تغني فيها جليلة :

تعـوّد دَلِلـّـو   يمه الولـد دللـو

عـدوك عليـــل   وساكن الچـول

وهكذا عاد صوت جليلة في مقاهي سامراء بعد أن أبى أهلها أن تغني سراً في بيت ميشيل وحده •

وكان الى جوار بيتنا (دربونه) غير طويلة ، مسقوفة بعقود تضيق حتى تنتهي في عمقها عند مدخل بيتين أحدهما لتوراة اليهود والآخر لسادن هذه التوراة واسمه حسقيل،وهو الاسكافي الذي ذكرته آنفاً • وكان لهذا الرجل زوجة ذات بدانة أكثرها في بطنها اسمها(چحلة)أي كحلاء وبنت اسمها(شمّامة) وهي في منتصف العقد الثاني من عمرها ، مستطيلة الوجه ، ناعمة البشرة ، واسعة العينين ، ولها ولع بتربية القطط ، ولا تتردد بحكم جيرتها لنا أن تدخل بيتنا وراء إحدى قططها التي تهرب من قطيع أترابها • وقد تقف شمامة الى جانبي وأنا أقرأ أو أكتب ، ولم تكن هي تعرف القراءة والكتابة فتبدي إعجابها بما أخطه على صفحة دفتري • وفي يوم سألتني أن اكتب أمامها اسمي ، ثم سألتني ان أكتب لها اسمها ، كما طلبت مني ان أرسم قطة • ولاحظت يوماً انها تدخل بيتنا ساعة عودتي من المدرسة الى البيت، كما لاحظت انها تقف أحياناً في منعطف الدربونة ترقب عودتي الى البيت ، وأنا أتغافل عما يدفعها الى ذلك التصرف حتى وقت متأخر حتى تقدمت مني يومها وسحبتني بعصبية الى زاوية ، على طرف الدربونة ، وحصرتني بين جدرانها وهي تضغط بجسمها على جسمي ، وتعصرني بيديها ، وبأنفاس متقطعة ودافئة تزفرها على وجهي • وكنت يومئذ أصغر منها بكثير ، ولكنني مع ذلك أحسست بالرغم من ثقلها بشيء من النعومة واللذة الغريبة ، فتخلصت من قبضتها بتردد وربما بخوف أيضاً لم أدرك طبيعته • وتكرر مثل ذلك مرتين أو ثلاث مرات ، فاذا أنا أنشده كلما عدت من المدرسة،لا بمبادرة منها • وذات يوم رآنا أبوها حسقيل وهو يخرج من باب بيته ، فتخلصت من بين ذراعيها وهربت الى بيتنا مذعوراً ، ولم أعرف ماذا حل بها ، إنما أنا واثق أن أباها قد رآنا بعينيه الركيكتين الدامعتين لكنه على أكثر الاحتمال لم يميّز إن كان ما رآه شخصين متراصين أم شخصاً واحداً ، أو انه لم يعرف ما كنا فيه • غير ان تصوري قد أخافني الى حد الذعر ، ومن

يومها لم أعد أفكر بمقابلة شمامة ، فأسرع الخطى لأتجاوز مدخل الدربونة لكي لا تراني شمامة إن ترقبت عودتي من المدرسة •

الملا رضا الواعظ ـ ١٩٢٦

حل ضيفا علينا رجل بمثل عمر أبي تقريبا،مربوع القامة، وردي البشرة، صبوح الوجه ، عذب النظرات ، يكسو رأسه بطربوش ملفوف حوله عمة بيضاء ويرتدي جبة زرقاء ، ويلف حول رقبته شالاً كثيفاً رمادي اللـون • وحين جلس على حشية لصيقة بجدار الغرفة ، طلب مني أن أدنو منـه ، ولما صرت في متناول يديه طلب مني أبي أن أقبل يديه وهو يقول لي :

ـ عمك ملا رضا

وفعلت ما أمرني أبي على عجل ، ثم أسرعت أبتعد عنه الى أمي في المطبخ، وسمعت أبي وابن عمه ملا رضا يتحدثان مرة بالعربية ومرة بالتركية،ويتخلل حديثهما أحيانا بعض الحدة ، ويرتفع فيها الصـوت • ورأيت أمي تنصت إليهما باهتمام ، فأرادت أن تجعل ما يقلقها أمراً تافهاً أو طبيعياً ، فقالت لي:

ـ إنه ابن عم أبيك •

فقلت لها :

ـ لم أره قبلاً في بيتنا •

فقالت :

ـ إنه يسكن في كركوك •

ولم أهضم هذا التباعد بالرغم من أنني لم أكن أعرف مكان كركـوك من سامراء ، فسألتها :

ـ لماذا لا يسكن معنا في سامراء ؟

ـ لأن له وظيفة في كركوك •

ـ وما هي تلك الوظيفة ؟

ـ يعلّم دين ، وإمامي في جامع كركوك •

فسألتها :

ـ ولماذا لا نسكن نحن في كركوك ؟

ـ أبوك عنده شغل في سامراء •

ولا أذكر كيف انتهى حديثي مع أمي • ولما بدأت تتهيأ لتحضير سماط الغداء ، خفّت حدة النقاش في ما بين أبي وابن عمه ملا رضا • ونهضا الى تناول الغداء بتحابب وكأن لم يكن بينهما أمر اختلفا فيه •

وزار الملا رضا في بيتنا في مساء اليوم التالي بعض من أهل سامراء كان من بينهم محمد سعيد الجبوري وعبدالوهاب (أبو الدكتور عبداللطيف البدري) وكلاهما من علماء سامراء • وممن زار ملا رضا في ذلك المساء رجل اسمه (فدعم) ، وهو في العقد الرابع من العمر ، كثير النكت والمقالب، كما لا تفوته الفرصة ليحضر مادب من يتناول الخمرة من موظفي سامراء • ولما حان وقت صلاة المغرب نهض أولئك الضيوف واصطفوا وراء ملا رضا ليؤمهم في أداء الصلاة • وأذكر جيداً ، حين كان الملا رضا يتلو بعض الآيات الكريمة القصيرة بعد سورة الفاتحة ، ارتفع نحيب من القلب وبحرقة ، فاذا هو (فدعم) يختنق بالبكاء وينسحب من صف المصلين • وسمعت أبي بعد تناول العشاء يقول له :

ـ ما بالك ، يا فدعم ؟

فأجابه فدعم :

ـ الصحيح يا عمي أبو مجيد ، ان ابن عمك الملا رضا وهو يتلو الآيات القرآنية قد أثار في قلبي الخوف من نار جهنم ، ولا أظنني أنجو منها •

عمل صبياني ـ نيسان ١٩٢٧

وأذكر ذات صباح عيد ، وأنا أرتدي الملابس الجديدة المصنوعة من الحرير الصيني ، وحذاء (الروغان) الزاهي البراق • وأقنعني بعض أصدقائي أن نصيد سلحفاة من (شريعة الناصرية) ، وكان ذلك في أواخر شهر نيسان • ونهر دجلة في هذا الشهر يفيض على شواطئه ، فيجرف ماؤه الأشجار غير الثابتة وما يكون على جرفيه الذي تغمره المياه من حيوانات نافقة أو

زاحفة ، كان منها أيضاً السلاحف النهـرية والثعابين وهي تتشبث بالعيـدان والأشجار الطافية على سطح الماء ورؤوسها مرفوعة بنشاط لتجتاز طريقهـا الى البر • في ذلك اليوم عزمنا أن نصيد سلحفاة دون أن يخطر ببالنـا أن هذه الحيوانات إنما هي نهرية لا تقوى على العيش خارج الماء طويلاً • وفيما أنا أمد يدي مستعيناً بعصاً طويلة لأجذب إليّ سـلحفاة أغراني حجمهـا الكبير ولونها البني المخطط بانتظام ، اختل توازني فسقطت في مـاء دجلـة في مكان مليء بالأعواد والحشائش وما يلتصق بها من الوحل والقـار الذي ينحدر مع تيار الماء من عيون معدنية قريبة من الموصـل • ولم أنجـح في القبض على السلحفاة ، فقد غطست واختفت في أعماق النهر ، وخرجت أنـا من النهر في حال لا أحسد عليه فقد لطّخ القار والوحل دشداشتي المصنوعة من الحرير ، وبلّ الماء الكدر حذائي الثمين ، فحاولت غسلهما بالمـاء ورمل الشاطىء فاذا البقع التي لوثت دشداشتي قد اتسعت وصارت كأنها قـد نضحت في نفط أسود ، فلما فطنت الى ما صرت إليه فكرت أن أمضي بقية النهار في بيت عمتي زينب حتى إذا حل الظلام أذهب الى بيتي فلا يتبـين لأمي ما صـار لملابسي ، إلا أنني ما كدت ألـج بيت عمتي حتى زعقت في وجهي وهي تقول :

— يا ملعون ألا تعرف ان هذا اليوم (عيد) واننا جميعاً تتناول الغـداء في بيتكم ، هيا الى بيتكم وتلقّ أعمالك من أمك •

كيف أدخل البيت وملابسي ما زالت مبتلة وملوثة بالوحل والقار؟ وأمي إذا غضبت عاقبت وقست • ودخلت البيت بتردد وخوف قاتل ••

— كمال ، أين كنت يا شقي (وانتبهت الى ملابسي) وأضافت : ما هذا يا ملعون ؟

وتقدمت مني فتسمرت في مكاني ، وتلمست بيديها دشداشتي وعرضتها على الضياء فازداد غضبها عليّ فمدت ذراعها وقرصت أذني بشـدة ، ثـم

سحبت يدي إليها وعضت على زنـدي بقوة وغضب • ولما اعتقدت أنهـا أشبعت غليلهـا مني أردت أن أجلس على إحـدى الحشيات ، غير أنهـا صرخت بي :

ـ فوق ، إصعد الى غرفة الطاق ، وليس لك غداء في هذا اليوم• وهرولت أصعد السلم الى غرفة الطاق وأنا أشعر بجوع لا أحتمله • وبعد دقائـق عدت أنزل بعض درجات السلم لأنصت الى ما يدور من الكـلام فيما بين أفراد أهلي ، فلم أسمع منهم ما يشير إليّ • وأخيراً سمعت أبي يقول لأمي أن تنادي عليّ لأنزل وأتناول غـدائي • وانتظرت وكلي آذان صاغية فيما عسى أن تجيبه أمي ، فاذا هي تقول له :

ـ أبداً ، هذا شغلي ، وقلت يبقى بلا غداء ، يبقى بلا غداء •

فقال لها أبي بما يشبه الرجاء أو التوسل :

ـ أم مجيد ، اسمعيني

ـ أبداً ، ولا أريد أن أسمعك

وانتهى ذلك اليوم بلا غداء حتى العشاء •

المهرجان المدرسي الموهوم في بغداد

في السنة السادسة طلب مـدير المدرسة إبراهيـم أفندي من تلاميـذ المدرسة أن يجتمعوا في ساحة المدرسة ، وطال انتظارهم قبل أن يطلع عليهم المدير وبيده ورقة هزها في الهواء وقال يخاطبهم :

ـ انظروا يا أولادي ، هذا أمر من مديرية المعارف العامة وصلني البارحة وفيه يعلمنا باقامة مهرجان في بغداد لطلاب لواء بغداد ويكون لباس التلاميذ فيه موحداً ، قوامه قميص وسروال قصير من الخـاكي ، وخوذة باللـون نفسه ، وجورب طويـل باللون نفسـه أيضاً • وأنهى كلامـه بقولـه ان كل ذلك يكلف خمس روبيات ، وعلى كل طالـب أن يأتي من أهلـه بهذا المبلـغ لشرائها من بغداد • وبعد بضعة أيام وصلت تلك الألبسـة بأحجام

مختلفة ، فصار بعضها مما لا يناسب أجسام التلاميذ ، ومع ذلك أُضطروا لارتدائها فكان من بعضهم منظراً يثير الضحك • وفي اليوم الثاني أمر المدير باستعراض التلاميذ مشياً على ضرب طبل صغير ، في السوق الكبير فدهش لهم أهل سامراء حين رأوا أولادهم بتلك الملابس • ومضى شهر ولم يعلن المدير عن يوم سفر التلاميذ الى بغداد للاشتراك في الاستعراض المزعوم ، وتبين أخيراً ان أمر مديرية المعارف العامة الذي قرأه المدير أمام التلاميذ لم يكن إلا حيلة افتعلتها ادارة المدرسة لتوحيد زي التلاميذ ، غير ان هذه الغاية لم تتحقق حين حلت الأشهر الباردة من شتاء تلك السنة ، فعاد التلاميذ يلبسون ما اعتادوا أن يلبسونه من الدشاديش والستر و(العرقچينات) •

كما عرف تلامذة الصف السادس باستغراب ان الامتحان النهائي في هذه السنة سيكون في بغداد فركبهم حينذاك خليط من الخوف والرغبة في مشاهدة بغداد التي سمعوا عنها الكثير مما ليس لمثيله وجود في سامراء •

× × ×

الكرامافون في بيت النعلبند جعفر مردان

مضت سنوات المدرسة الست بلا أزمات أرهقتني أو أقلقت أهلي ، على ان أمي على مدى تلك السنوات كانت تعاملني كطفل لا يستقيم إلا بالتوجيه ، والأمر والنهي والشدة ، والضرب أحياناً • وهذا ما كان يغيضني ويحدّ من كبريائي وطموحاتي على ضآلتها • كما كانت تنهرني من الكلام بحضرة كبار رجال البيت والأقارب • وقد بقيت بعض رواسب هذه التربية في تصرفاتي حتى بعد عقود عديدة من عمري ، وربما الى سنوات من آخره •

ويوماً عدت من المدرسة وسمعت وأنا أمر على باب بيت (النعلبند) (جعفر مردان) غناء بنغم خاص ، فتوقفت أنصت لأسمعه بتعجب بعد أن تأكدت ان ذلك الغناء لا يمكن ان يخرج من فم بني آدم ، وتلصصت من

خلال شقوق باب البيت ، فرأيت بضعة رجال يحيطون بآلة يعلوهـا بوق كبير أحمر اللون ، ثم رأيت جعفراً يرفع قرصاً أسود عن سطح تلك الآلـة فوقف الغناء ، ويأخذ قرصاً آخر مثله كان الى جانب الآلة ، وسمعته يقول لأصحـابه :

ــ وهذا هو (نجم الشيخلي) ..

ويدور القرص فاذا أنا أسمع غناءً من نوع آخر ..

وكان جعفر مردان ، بتقديري ، بنحو الاربعين من العمر ، تغطي أكثر وجهه لحية سوداء كثة . ولا يعرف أحد في سامراء أصل عائلة هذا الرجل أكثر من أنه من أهل (كفري) الذين يتكلمون بلغة هي خليط من الكرديـة والتركمانية والعربية . ومع ان جعفـر مردان كان يعمل موظفاً في الشـرطة الخيالة بسامراء لتركيب حدوات دوابها ، غير انه لم يكن يرتدي ما يدل على انه موظف في دائرة الشرطة . كما كان متدينـاً وملتزمـاً بأداء الفـروض الشرعية في أيام الجمع والأعياد ، وهو في هذه الظروف يتطيب بماء الورد ويكحل عينيه ويرتدي أفضل ملابسه .

وكان لجعفر أخت في أواخر العقد الثاني من عمرها ، جميلة المحيـا ، واسعة العينين ، رطبة العود ، لينة الخلق بأدب وحشمة ، وهي كل عائلـة جعفر في سـامراء .

ويوما عاد جعفر من بغـداد ومعه الآلة التي عرفت بعدئذ في سـامراء باسم (گرامفون) الذي ذكرته آنفاً . وبقيت أنظر من شقوق الباب الى ما في حجرة جعفر واستمع الى ما ينبعث منها من موسيقى وغناء . وحين انتهـى ضيوف جعفر من الاستماع الى صوت نجم الشيخلي ، أبعدوا رؤوسهم عن فتحة بوق الگرامفون وهم يقولون بتعجب :

ــ عيش وشوف ، بعد ما يخلقون إلا الانسان!

فقال لهم جعفر :

ـ استغفر الله فالخلق لله وحده .

وحين رأيت ضيوف جعفر يتهيئون للانصراف ابتعدت عن باب بيتـه وهرولت الى بيتنـا ، وقصصت بتباه ما رأيتـه وسمعته في اليـوم التالي لأصدقائي في المدرسة ، ويا ليتني لم أفعل ذلك ، فقد وصل ما رويتـه لهم الى أمي ، وأمي لها طريقتها الخاصة في متابعـة أخباري خارج البيـت . والأمهات يتبادلن دوماً المعلومات عن أولادهن في صيغة التباري والمضارعة . فأقبلت أمي عليَّ وأمسكت بأذني دون مقدمة وسألتني :

ـ وين كنت قبل يومين (يا وكيح) ؟ قول وين كنت ؟

وكان جوابي السكوت ، فلا يجدي دفاعي شيئاً . واستطردت أمـي تقول :

ـ إذا سمعت تروح الى بيت جعفر ، أنت تعرف ما أفعله ، هذا حرام وكفر .

وأردت أن أقول لها شيئاً فصرخت بوجهي تقول :

ـ ما أريد أسمع منك ، أسكت .

مكتبة أخي رشـيد

كانت أمي لا تستسيغ ذهابي الى بيت أي من أصدقائي حتى لو كان ذلك للمذاكرة في دروسي قبيل الامتحـانات ، ولا تسمح أيضاً أن يجـيء أحدهم للدراسة معي في بيتنا . فأتوسل إليها ولا فائدة ، واذا ألححت عليها بالرجاء ، صرخت في وجهي تقول :

ـ أبداً ، ادرس وحدك !

ـ ماما ، إذا ندرس جماعة نفهم أحسن .

ـ أبداً ، تلتهون بالضحك والسوالف ..

وأكفر ، ولكن في سرّي ، فأين لي الجرأة أن أكفر على مسمع منها . وحين درجت الى الصف السادس في المدرسة وصار بمكنتي ان أقرأ الكتب غير المدرسية ، تملكني حب الكتاب والقراءة فيه ، فلا أقاوم اغراء قـراءة

ما يقع بيدي من الكتب ، أو ما هو غريب في عنوانه أو مضامينه ، فأحصل عليه حتى لو كنت لا أفهم دقائق ما في معظمه •

وكان في الحجرة التي تلي (مجاز) بيتنا كوّة بنيت فيها بضعة رفوف جصيّة وصفّت عليها بضع عشرات من الكتب لأخي رشيد الذي يتقدمني في العمر ، وكان يوليها عناية واهتماماً خاصاً ، ويكثر القراءة فيها • وكنا نشير الى هذه الكوّة باسم (المكتبة) • وذات يوم تناولت أحد تلك الكتب وأخذت أتصفحه ، فنهرتني أمي ونهتني أن (ألعب) بكتب أخي ، غير انها عادت اليّ بعد لحظات وسألتني مستعلمة إن كان بوسعي القراءة في تلك الكتب ، فكان سؤالها بالنسبة لمفهومي إيذاناً منها ان أطلع عليها ، فالتقطت منها وهي واقفة الى جانبي كتاباً بأوراق صفر باسم (كتاب الحيوان) فاذا بقراءته ليست صعبة كما ظننت ، واستهوتني غرابة محتوياته وقصصه عن الحيوان وأنواعه من الدواب والسباع والزواحف والطير ، وعرفت بعدئذ ان ذلك الكتاب من تأليف شخص اسمه (الجاحظ) • وبدأت منذ ذلك اليوم أقرأ بإذن من أمي كتب أخي واحداً واحداً ، وأطرح الكتاب ولا أرجع اليه إذا عرفت من أول صفحاته انه ليس ككتاب الحيوان فائدة ومتعة ، فانقطعت الى كتاب الحيوان للجاحظ دون سواه من مكتبة أخي رشيد ، ولم اقرأ غيره حتى كان ذات يوم زارنا فيه صديق أخي رشيد ، وهو من أهل الكاظمية ، ويعتمّ بطربوش أحمر يلف حوله قماش بلون أخضر ، وسمعته يحاور أخي ويمر في حديثهما اسم الجاحظ فأصغيت حينذاك الى حديثهما باهتمام بالغ لأستمع الى ما يقولان عنه ، فاذا هما لا يذكران شيئاً عن كتاب الحيوان ، فيأخذني العجب حتى اعتقدت انني أعرف عن هذا الكتاب أكثر مما يعرفان • وسمعتهما أيضاً يذكران (مقامات الحريري) ، واختلفا على نص فيه فنهض أخي الى رفوف مكتبته والتقط هذا الكتاب ليحتكما إليه ، فأنصت الى ما قرأ أخي فيه ، وقد أعجبتني صياغة عباراته

والسجع المستطرد فيه • وكنت قد رأيت هذا الكتاب على رف في المكتبة إلا أنه لم ينل مني اهتماماً بأي قدر ، فلما سمعت ما قرأه أخي فيه عدت الى الكتاب بعد أن غادر الضيف بيتنا ، وشرعت أقرأ فيه ، وفي هذه المرة أيضاً لم أرَ فيه ما وجدته من المتعة التي وجدتها في كتاب الحيوان للجاحظ • فصار لي هذا الكتاب أفضل ما في مكتبة أخي من الكتب جميعها ، وقد يكون هذا الكتاب العامل الأول الذي أنبت في نفسي حب الكتاب واقتنائه• وبعد سنوات من ذلك التاريخ البعيد صرت أعلم أن الكتاب شيء مهم، ومفيد، وممتع ، فأحببته حباً جماً ، ودفعت لامتلاكه غالي الثمن ، وعنيت به غاية العناية حتى أصبح لدي عدد كبير منها وخصصت لها أفضل حجرات بيتي وأوسعها •

الامتحان النهائي في بغداد/١٩٢٦

حين علمت أن امتحان الصف السادس النهائي سيكون في بغداد شغل بالي هذا الأمر أياماً وليالي تهيؤاً لرؤية بغداد وتهيباً من عظمتها كعاصمة للقطر العراقي • وفي اليوم المحدد للسفر إليها استيقظت مبكراً وارتديت ملابسي ، وأهلي ما يزالون يغطون في نومهم ، ثم سمعت أبي يسلأ إبريقاً ليتوضأ لصلاة الفجر • وبعد قليل دبت الحركة في البيت ، وفتحت أبواب حجراته واحدة تلو الأخرى ، وأوقدت النار في المطبخ لاعداد طعام الفطور ، بينما كنت منهمكاً في جمع ملابسي ودفاتري القليلة في صرة صغيرة وهي كل أمتعتي للسفر • وحتى ذلك اليوم لم أكن أدرك موقعي من قلبي أبي وأمي ، ولا مكانهما من قلبي ، وربما كنت أعدهما ضروريين لإعاشتي أكثر مما هما أساس كياني ، أو أنهما بالنسبة لي بأهمية الطعام لاغذائي ، أو البيت لإيوائي ، لا أكثر من ذلك • وفي تلك الأيام كانت أمي تعامل أختيَّ أكثر ليناً وحناناً من معاملتها لشخصي ، فأغبطهما على ذلك غيرة وحسداً • غير أن هذا الانطباع قد تبدد حين ضمتني أمي الى صدرها وهي تقبلني وتنشج

بالبكاء على فراقي وكأنني مسافر الى عالم الظلمات • ولما تقدمت من أبي لأقبل يديه مودعاً ، إحتضنني الى صدره وقبّل وجهي بحنان لم ألمس منه مثل ذلك قبلاً البتة ، وحين قصدت باب البيت لأغادره هرعت أختاي ورائي وقبلتاني بحرارة واحدة بعد الأخرى ثم انسحبتا بسرعة الى داخل البيت •

وكان أخي الكبير (مجيد) قد أصرّ أن يصحبني الى بغداد ، فعبرنا نهر دجلة في قارب انساب هيناً الى قرية «القلعة» على الجانب الأيسن من النهر ، حيث يقف القطار ليحمل المسافرين الى بغداد • ولم أكن قد رأيت قطاراً عن قرب قبل ذلك اليوم ، فدهشت لعجلاته الضخمة ، وزفير ماكنته، وكثافة الدخان الذي ينبعث منها • وانتظرت حركته بفارغ الصبر ، وكأني بذلك لأضمن سفري الى بغداد ، فهل يزحف هذا القطار كما تفعل العربات التي تجرها الخيول ببطء ثقيل ، أم ينزلق كما تنساب القوارب على صفحة الماء • وأخيراً صفرّت ماكنته إيذاناً ببدء حركته ، واستغربت أن لا يكون ذلك الصفير قوياً يناسب حجم الماكنة الضخم ، بل ناعماً وحاداً لا غير ذلك • واهتزت العربات المربوطة الى الماكنة تتحرك الى أمام ثم فجأة الى خلف ، وهدأت برهة ثم اهتزت ، وبدأت تسير ببطء ، ثقيلة متزنة ولم تلبث طويلاً حتى صار القطار يغالب الريح ليصل محطة بلد ، ثم محطة سميكة ثم محطة المشاهدة ثم محطة التاجي ، ثم محطة الكاظمية ، وأخيراً محطة بغداد ، وقد وصلها القطار في أول ظلمة الليل ، فانحدرنا من عربة القطار ووضعت (صرة) حاجياتي تحت إبطي أسرع الخطى وراء أخي • وفي باحة المحطة كان يقف عدد من العربات السود النظيفة ، مربوطة الى خيول حمر رشيقة ، وتتدلى على أصداغها ذيل بألوان زاهية ، وعلى صدورها أحزمة من الجلد مزينة بأزرار معدنية لمّاعة لم أر مثلها في حياتي بسامراء ، واستقللنا واحدة من تلك العربات فحملتنا عبر طرقات ضيقة الى بيت صديق أخي (مجيد) واسمه الحاج (حسين اللوز) في محلة (السوامرة) بجانب الكرخ •

ولما طرقنا باب مضيفنا سرعان ما رأينا من خلال شقوقه ضوء المصباح الباهت يتحرك نحونا من عل وببطء واضطراب ، ثم انفتح الباب وطلع علينا الحاج حسين اللوز وهو يرفع بيسراه الفانوس النفطي ، وتقدمنا وهو يردد عبارات الترحيب ، الى السلم الطابوقي الملتوي لنصعد الى غرفة الضيوف في طابق البيت العلوي المطلة على الطريق من جهة وعلى فناء البيت من الجهة المقابلة ، وكان في الغرفة حين ولجناها رجلان أحدهما في نحو الستين من عمره ، يلف على رأسه (اليشماغ) وفوقه عقال ضخم كالذي يلبسه وجهاء البصرة ، وهو أيضاً مثل العقال الذي يضعه أبي على رأسه ، كما تنسدل على صدر ذلك الرجل لحية غلب على شعرها الشيب • ونهض هذا الرجل من مجلسه مستعيناً بذكر اسم الله وفي يده خرطوم النركيلة التي كانت أمامه ، وتبادل التحيات والقبل مع أخي عرفت منها ان اسمه (الحاج علوان) من أهل بعقوبة • أما الرجل الآخر فكان أصغر عمراً من الرجل الأول بكثير، وأطول قامة وأرفع عوداً ، وكانت مقابلته مع أخي بتهيب وبرود •

وبدأ الرجال يسمرون حول الفانوس النفطي الكبير الذي يتوسط الغرفة • كم كانت أحاديثهم ممتعة ، إطارها أكثر فناً من موضوعها ، فيها عبث أكثر مما كان فيها جد ، وفيها براءة وبساطة وتفاهم وقناعة • ولما انتصف الليل جاء الحاج حسين (برقّية) كروية كبيرة بلون أخضر غامق يعرف باسم (الكرجي) ، وشطرها أقساماً بشكل الأهلة ، التهمناها بأصابعنا• وحان وقت النوم ففرشت لنا الحشيات جنباً الى جنب ، فصار منامي بين فراش أخي وفراش الحاج علوان ذي اللحية الكثة الطويلة ، وفي لحظات غط هذا الرجل في نومه وتعالى شخيره • أما أنا فجفاني النوم ثم نمت لأستيقظ بعد ساعات على صفير الخفير في الطريق ، وأحسست أني في حاجة ملحة للتبول ، وحاولت أن أتجاهل هذه الحالة الملحة إلا أنني ما استطعت ، وحرت فيما يجب أن أفعله ، وأنا لا أعرف الطريق الى (بيت الخلاء) في

هذه الدار المظلمة ، ولم أجد حلاً لمشكلتي إلا أن أنهض من فراشي بهدوء لئلا أوقظ النائمين معي في الغرفة ، وبخاصة الحاج علوان الذي رأيت لحيته في تلك اللحظات تعلو وتنخفض مع أنفاسه المثقلة بالشخير . وكانت الريح تصفر في خارج الغرفة وتهز قوائم النافذة الرخوة ، فرفعت إحداها ودفعت جسمي بين قضبانها وبلت في الطريق ، غير أن الريح كانت تصدّ البول وتردّه الى داخل الغرفة ، فابتل به بعض فراشي ووسادتي ولحية الحاج علوان أيضا ، وجمد الدم في عروقي حين رأيت هذا الرجل يرفع كف يمناه ، دون وعي منه ، ويمر براحتها على وجهه ولحيته التي بللها بولي ، وهو يقول : ما شاء الله والحمد لله والشكر . وخفت أن يستيقظ فيراني بذلك الموقف فقطعت تبولي وعدت الى فراشي بهدوء أشد مما نهضت عنه بهدوء ، وقلبت وسادتي التي نضحها بولي وعدت أندس في فراشي وكأن لم يحدث شيء على ما حسبت . وما لبثت طويلاً حتى غرقت في النوم .

وبينما كنا ننتظم حول سماط الفطور ، نهض الحاج علوان وتطلع الى الشارع ، ثم الى السماء وعاد الى مكانه وهو يقول :

— عجيب ، والله يا ناس عجيب !

وسأله الحاج حسين اللوز :

— شنو هو العجيب يا أبو حسين ؟

فأجابه الحاج علوان :

— حلمت ان السماء كانت تمطر واستيقظت فلمست لحيتي مبللة بالمطر ، شنو ها الموضوع !

فقال الحاج حسين يخاطب الحاج علوان :

— اي مطر يرحم أبوك ، أكو مطر بهذا الفصل ؟ أنت كنت تحلم .

فقال الحاج علوان :

— أنا قلت اني كنت أحلم ، ولكن كيف وجدت لحيتي مبللة بالماء ؟

وما ان سمعت تبادل الحديث عن المطر ولحية الحاج علوان التي بللها المطر (كما ادعى الحاج علوان) حتى انهمكت بتناول الفطور بنهم لأغطي موقفي الحرج ، وخوفي من أن يعرفوا فعلتي الشنيعة • وعاد الحاج حسين يقول وهي فرصته للمزاح مع ضيفه وشريكه وصديقه الحبيب الحاج علوان:

ـ لازم كنت مكشّف وحلمت يا حجي !

وقال الحاج علوان ببراءة ، ولم يفطن الى هذا الغمز في كلام الحاج حسين :

ـ شنو مكشف ، واذا مكشف ؟

وتدخل الضيف الشاب النحيف فيما بينهما وقال بجرأة يخاطب الحاج علوان :

ـ يقصد الحاج حسين ، لو كانت أم حسين بصفك بالفراش كان غطتك••

فأجابه الحاج علوان :

ـ شنو هالحچي يا ناس •• وبيت الله الذي حجيته أنا مسحت المطر عن وجهي بيدي ، ولكن كيف حصل ذلك والفصل في عز الصيف ؟

فقال الحاج حسين اللوز :

ـ ما قلنا شيء ، لو كانت أم حسين يمّك ما كان وصلك المطر ••

وقال الرجل النحيف مؤيداً الحاج حسين اللوز :

ـ والله ، ونعمين وثلاث من أم حسين •

وعقب الحاج حسين اللوز :

ـ كان صارت له أم حسين مشمّع وتلف أبو حسين ، ومنين بعد يوصله المطر ؟

وهنا برم الحاج علوان أبو حسين بتناثر النكات عليه فقال :

ـ هذا كلام ما أدري شلونه !

ونهض الى سماط الفطور ليسدل الستار على المزاح الذي استثقله برضا •

وفي صباح اليوم التالي قصدت (مدرسة المأمونية) التي يقابلها من أمام (طوب أبو خز َامة) وتجاور خلفها وزارة الدفاع • وكان مدير المدرسة إبراهيم أفندي قد سبق ان أخبرنا ان الامتحان سيكون في هذه المدرسة • كما كان أترابي من طلاب مدرسة سامراء قد نزلوا ضيوفاً على وزارة المعارف في المدرسة المأمونية •

ودام الامتحان ثلاثة أيام في إحدى قاعات هذه المدرسة ، وصرت مكملاً فيه •• وفيما كنت أستعيد دراسة الموضوع الذي رسبت فيه ، فوجئت يوماً بأبي يسألني :

ــ الامتحان مرة ثانية في بغداد ، أليس كذلك ؟

فأجبته :

ــ نعم يا أبي سيكون في بغداد •

ــ واذا نجحت فيه ؟

ــ أدخل إحدى المدارس المتوسطة أو دار المعلمين الابتدائية •

فعاد يسألني :

ــ يعني تدرس في بغداد !

ــ نعم أدرس في بغداد •

ــ اسمعني يا ابني ، أنت لا تزال صغير السن ، فلا تدخل امتحان الاكمال!

ولم أجب أبي على هذا الطلب إلا بالسكوت ، وأنا بين راض عنه ورافض له • فأعدت السنة السادسة ، وبعد نجاحي في نهاية السنة التالية ، اقترح أخي الأكبر أن أدخل مدرسة متوسطة الحلة حيث كان أخي حميد مأمور البريد فيها •

القسم الثاني

في المدرســـه المتوسطه بالحلــة

في الحله الفيحاء/١٩٢٧

قرر أبي أن أتابع الدراسة في المدرسة المتوسطة في الحلة حيث كان أخي عبدالحميد موظفاً بدائرة البريد التي فيهـــا • فاستأجرت مقعداً في ســـيارة أجرة من نوع (فورد) من (علاوي الحلة) بجانب الكرخ في بغداد • وكان الطريق الى الحلة ترابياً ومتعدد الدروب بحسب مشيئة سواق الســـيارات الذين يعملون في هذا الطريق ، فيسرعون في بعضه ويبطئون أحيـــاناً حين تتعثر سياراتهم على الطريق الذي خربته الأمطار والأهوية • وبعد أكثر من ساعتين وصلت دار أخي عبدالحميد الملاصقة لدائرة البريد التي يتولى أخي إدارتها ، وتقع على حافة الساحة الواسعة الترابية التي تطل عليها مدرســـة المثري اليهودي (مناحيم دانيال) • واكتشفت بوقت قصـــير ان كل ما في الحلة يثير استغرابي ، وليس له مثيل في سامراء ، فهي كثيرة الأشـــجار ، ومنغمسة في أرض رخوة رطبة ، ومستوى نهر الفرات فيها أعلى من أرضها وطرقاتها ، ومقاهيها المدهونة تخوتها بالألوان الزاهية ومنتشـــرة على طول ساحل النهر تضفي على جمال المدينة ما يثير البهجة في نفوس أهلها • وكـــل ذلك مما ليس له نظير في بلدتي سامراء •

وفي الحلة رأيت لأول مرة في حياتي أســـواقاً مسقوفة ، وســـاحات واسعة تصب فيها شوارع مستقيمة ، كما رأيت فيها حوانيت كثيرة ومليئة بأنواع المحاصيل الزراعية والبضـــائع المعمولة محلياً والمستوردة من خارج الحلة ، أو من خارج العراق • كما كان غريباً عليّ أن أرى المزارع والبساتين تتخلل بعض حارات هـــذه المدينة • كذلك كانت مجالس المـــدينة تختلف

اختلافاً بيناً عن مجالس شيوخ قبائل سامراء ، كن منها مجالس (آل القزويني) التي تعمر بكبار العلماء وهم يرتدون الملابس العربية التقليدية النظيفة بما فيها العمائم السود والبيض الخاصة بعلماء الدين في مدن الفرات الأوسط ، إلا ان أولئك الذين حضرت بعض مجالسهم لم يكونوا من علماء الدين فقط بل كانوا أيضاً رجال أدب وشعر وعلم • وكانوا حين يتطارحون أبيات الشعر يطوف على وجوههم تحسس عميق لمعانيه تهتز لـه جذوعهم وتلتمع عيونهم لصياغة ما ينشدون • نعم لقد رأيت الحلة غير سـامراء من وجوه كثيرة ، وفيها جاذبية وظـرف ، على ان ذلك وإن كان ما يقابلـه في سامراء من جفاف في ضروب الحياة ، فان الحلة لم تستطع أن تبعدني كلياً عن ذكريات مسقط رأسي ، فبقيت أذكر سامراء بحب وحنين ، وأتـوق الى رؤيتها في كل حين ، وأتحيز لها عند مقارنتها بأية مدينة أخرى عرفتها قبلاً •

المدرسة المتوسطه بالحلة

بعد يومين من وصولي الى الحلة أخذني أخي عبدالحميد الى المدرسـة المتوسطة ، وفي الطريق إليها ، قال ان مدير المدرسة واسمه (فرج فهمـي) صديقه ، وهو رجل طيب العشرة واسع المعرفة في تاريخ المسلمين • وحين دخلنا الى غرفة فرج أفندي نهض هذا بتكاسل عن كرسيه ، وتقدم من أخي وصافحه بترحيب حار باللغة التركية وهو يبتسم له حتى بانت بعض أسنانه المغلفة بالذهب ، وهو بعمر الخمسين أو اكثر•وكان في ماضيه ضابطاًفيالجيش العثماني • وفهمت من حديثه مع أخي عبدالحميد بأن عليّ أن أكون حريصاً على الدوام في المدرسة ، وعلى متابعة دروسها •

والمدرسة بطابق واحد ، يطل الجانب الشرقي منها على نهـر الحلة ، ويحتضن الجانبان الآخران ساحة مرصوفة بالطابوق (الفرشي) تنفذ إليهـا أبواب غرف أربع ، اثنتان منها لدروس الصفـين الأول والثاني ، وهما كل صفوف المدرسة ، وغرفة لادارة المدرسة ، وغرفة أخرى لمعلميهـا • وعلى

يسار مدخل المدرسه فناء واسع زرعت فيه أنـواع أشجار الحمضيـات ، والخضر الموسمية • وكان مدير المدرسة فرج افندي يولي هذه الحديقـة اهتماما كبيرا فياخذ الطلاب الى دروبهـا الضيقه ويشرح لهم ما فيهـا من صنوف الأشجار ، وطبيعـة كل واحدة منهـا بما في ذلك أشكال اوراقهـا وأنواع اثمارها ، وما تحتاجه من قطع أوراقها الجافه • قال مرة ان الاغصان الجافه في الشجرة النشطة كاطراف الانسان التي دب فيها (الغانغرينا) فيجب قطعها كما تبتر القدم التي تصاب بهذا الداء لمنع انتشاره الى المناطق الأخرى من الجسم • ولما سالناه ما هي (الغانغرينا) أجابنا وهو يردد سؤالنـا على نفسه ، ثم قال :

ـ (الغانغرينا) هي (الآكلة) والعياذ بالله •

وحين وصلنا معه الى نخلة في حديقة المدرسة قال عنها :

ـ انها شجرة مباركة ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وأحبهـا النبي نوح عليه السلام حتى انه أوصى بنيه من فرط حبه لها أن يغرزوا سـعفة منهـا على رأس تربة مثواه الأخـير • ثم أردف فرج آفندي : وان هـذه الوصية معمول بها من عامة الناس المسلمين حتى الوقت الحاضر • وانتهـز فرج أفندي فرصة اصغائنا الى حديثه عن النخـلة فاستمر يتكلـم بنشـوة وحماسة قائلاً : ان كل أجزاء هذه الشجرة نافع للانسان ، فيعمل من ليفها الحبال ، ويستعمل كربها للوقود ، ومن خوص سعفها تحاك المراوح اليدويـة والمكانس ، ومن أعواد سعفها تصنع السرر وأقفاص الطيور ، كما تستعمل جذوعها لتشييد سقوف الحجرات ودعائم لزرائب الحيوانات ، ثم ان ثمرها طعام لذيذ ، وذو قيمة غذائية عالية ، وفوائـد صحية كثيرة ، وظل شـجرة نخل التمر يحمي ما تحتها من أشجار الحمضيات من حر الصيف ،كما يحميها من قر الشتاء القارص • وحين وصل فرج أفندي الى شجرة توت ، قال :ان أوراق هذه الشجرة كما سترون بعد قليل أفضل غذاء لدودة القز •

كان لفرج أفندي معلومات عامـة وخصوصاً في التاريـخ الوسيط ، كما له إلمام في تراثيات العرب ، والعثمانيين بشكل خاص . وقد سمعته يوماً يذكر بمديح المؤرخ والأديب (طاش كـوپري زاده) و (ابن خلكـان) و (حاجي خليفة) ، إلا انني لا أذكر الآن المناسبة التي دفعته ليذكـر هذه الشخصيات ، كما اني لم أكن يومئذ أعرف من هم أولئك الاعلام الثلاثة .

ديدان القز في المدرسة

ثم قادنا فرج أفندي الى سقيفة من أعواد سعف النخيل التي أقامها بحظيرة الى جانب مدخل المدرسة ، ووقف أمام هذه السقيفة وقال بزهو :

— سترون يا أولادي كم تتلذذ ديدان القز بأكل أوراق التوت . وتبعنا فرج أفندي الى داخل الحظيرة لنرى عيدان السعف مرفوعة بطبقات ، وعليها تدب أفواج من ديدان القز ، بهدوء وارتياح وهي تقضـم حافـات أوراق التوت الطرية ثم ترفع رؤوسها لتلوك ما في أفواهها منه ، كما تفعل الأبقـار في المراعي . وأشار الينا فرج أفندي أن ننصت لنسمع صرير أشداقها وهي تمضغ ما صار في أفواهها من تلك الاوراق ... وما لبثت هذه الديدان ان نمت بسرعة مذهلة ، وانتفخت بطونها ، وتباطأت حركتها وهي دائبة تلتهم علفها بنهم وعجالة . وصار فرج أفندي ينتظر بفارغ الصبر ليرى كيف تقذف هذه الديدان من أفواهها خيوط القـز ، غير ان ذلك المشـهد لم يره فرج أفندي ، فقد هاجمت قطعان من النمل الكبير الجائع الشرس تلك الديـدان الوديعة والتهمتها عن آخرها في ليلة واحدة . ولا أنس البتة امارات الخيبة والحزن على وجه فرج أفندي لحظة دخلنا معه حظيرة تلك الديدان ، ورأينـا أشلاءها وما بقي من أبدانها الممزقة . كان فرج أفندي يبدو في تلك اللحظة كمن أخفى كنزاً فلما تفقده وجده قد اختفى بكليته .

× × ×

كان مجموع طلاب المدرسة المتوسطة يومئذ ليس أكثر من أربعين طالبا

وكان أقل من نصفهم في الصف الاول الذي أنا فيه ، وجلهم من أهل الحلة نفسها ، وثمة طالبين من المسيب وطالب واحد من كربلاء وطالب آخر من أهل أربيل واسمه محمد صالح محمود ، وهو ابن موظف في دائرة كمارك لواء الحلة ، وعائلته حلاوية غير انه ولد في أربيل ونشأ فيها بحكم وظيفة أبيه الذي كان فيها • وهو ضخم الجثة ، وردي السحنة ومثال من وجوه أخرى لسكان شمال العراق ، وهذا ما جعل من يراه يعتقد أنه من أكراد شمال العراق لا من عربه • وقد حاول محمد صالح أن يتعلم اللغة العربية الدارجة في الحلة ، فصار يلكن بمفرداتها بشكل يثير الضحك ، وأكثر مما يغلط بها صغار العمر ، فتحمّل الاستهزاء به على مضض إلا مرة واحدة حين ثار يوماً دون مقدمات ولطم واحداً من زملائه في الصف ، كان يكثر من الاستهزاء من تصرفاته والضحك منها ، وأخيراً سوي ذلك النزاع صلحاً ولم تصل أخباره الى ادارة المدرسة • وفيما عدا ذلك كانت الألفة والمحابية سائدة بين طلاب المدرسة جميعاً •

ومن زملائي في الصف الاول من كان يحفظ الشعر الوجداني والنسيب والوطني فاستمع إليه في كثير من الاعجاب وبشيء من الغيرة • وقد اقترح يوماً ذلك الزميل واسمه (طه باقر) ان نؤلف في المدرسة لجنة للخطابة والتمثيل • وصار من أعضائها طالب في الصف الثاني اسمه عبدالوهاب مرجان كما صرت أنا واحداً من تلك اللجنة • استأذنا ادارة المدرسة ذات يوم أن نقيم حفلاً نلقي فيه الخطب الوطنية ، فشجعنا المدير فرج على ذلك• وفي أول حفل أقمناه حضره بعض من أهل الحلة • وكانت خطبنا تكاد تكون مباراة في الصخب وعلو الاصوات حتى صارت أقرب الى الصراخ ، فنشتم دون ما سبب المستعمرين وبخاصة الانكليز منهم • ونصحنا فرج أفندي بعد انتهاء الحفل أن نكون أكثر هدوءاً وأقل حماسةً في أفكارنا وخطبنا وهو يقول :

ـ ان أصواتنا الى المستمعين لا يكون لها التأثير الذي تتوقعونه ما لـم تكن هادئة ورزينة • والهدوء من سمات شخصية المتكلم المؤثرة ، وإلا فهو يخسر أكثر جولاته في الكلام •

وقررت لجنة الخطابة والتمثيل سراً الكتابة الى صحف بغداد عن الحلة وأحوالها الصحية والثقافية والاجتماعية ، ثم اختصرنا هذه الشمولية وحددنا ما نكتبه عن المعارف في الحلة • وكان الواجب الذي ألقته عليَّ اللجنة أن أكتب عما ينقص المدرسة المتوسطة من المعلمين بينما مضى من السنة أكثر من ربع أيامها • فكتبت بهذا الموضوع الى جريدة العراق ببغداد لصاحبهـا (رزوق غنام) باسم مستعار هو (يونس يحيى) وهما اسما ولدي أخـي الكبير عبدالمجيد • ونشرت جريدة العراق هذا الخبر في صفحتها الثالثة ،ولم أقرأ هذا الخبر لأنني يومها لم أكن أتابع قراءة الجرائـد • وطلبني مـدير المدرسة فرج أفندي الى غرفته • وما كدت ألج إليها حتى طلب مني أن أغلق بابها من ورائي • ووقفت في مكاني منه ، ثم طلب مني أن أتقدم إليه ، وقال لي ، وهو يدفع جريدة العراق على منضدته أمامي ويشير باصبعه على عمود فيها ، وهو يقول لي لماذا كتبت هذا في الجريدة يا ابني ؟

ولما قرأت ما في ذلك العمود في الجريدة التي لم أكن قد رأيته بعـد شعرت بزهو من انني صرت فجـأة شخصاً يذكـر وله مكانته ، أو في الأقل أصبحت كاتباً بنظر محرري الجرائد ، ومع ذلك لم أنس اتفاق أعضاء جمعية الخطابة والتمثيل على حفظ أسرار هذه الجمعية في الكتمان فقلت له :

ـ ليس لي علم بما أقرؤه بهذه الجريدة •

فنظر الى وجهي ليسبر قدر صدقي فيما أجيبه وقال :

ـ كمال ، أنا صديق أخيك حميد أفندي ، يعني أنا مسؤول عنك فيمـا تتصرفه في المدرسة وخارج المدرسة ، الى جانب مسؤوليتي الحكوميـة عن طلاب المدرسة واحداً واحداً •

وعدت أنظر بطرف عيني الى كلمتي بجريدة العراق وهي مبسوطة أمامي على طاولة فرج أفندي • ولم يخطر ببالي قط أنه طلبني إليه ليوبخني أو يعاتبني على ما كتبت فيها ، فقد كنا نسمع منه بتكرار ، تذمره من عدم اكتمال الكادر التعليمي في المدرسة ، فعددت الكلمة التي نشرتها في الجريدة مساندة لموقفه من وزارة المعارف لتجاهلها اتمام نواقص المدرسة ، غير أن فرج أفندي فاجأني وهو يضرب بكفه على صفحة الجريدة المبسوطة أمامه :

ـ كان عليك أن لا تكتب في الجرائد يا ابني ، فأنت لا تزال طالباً ولست مسؤولاً إلا عن المواظبة على دروسك ، والواجبات المدرسية أهم من الكتابة في الجرائد •

فعدت أقول له بتلعثم مفتعل لا يخلو من خوف :

ـ أي جريدة ، أي كتابة في الجرائد ؟

فقال لي بجزع :

ـ كمال ، أصدقني فأنت الذي كتبت هذا الخبر وبعثت به الى الجريدة •

ورفع الجريدة وضرب باصبعه على مكان الخبر فيها ، وقال :

ـ عرفت أنك كتبت هذا من أصدقاءك أعضاء لجنة الخطابة والتمثيل •

ولسذاجتي صدقت كلام فرج أفندي ، ولو انني استبعدت أن يشي بي أحد أعضاء لجنة الخطابة وهم الوحيدون الذين يعرفون حقيقة الأمر•

فعاد فرج أفندي يقول لي :

ـ كمال ، ابني أريد أن أساعدك ، فالمتصرف جميل بك العزاوي غاضب على من كتب الى الجريدة ، فأصدقني لأعرف كيف أساعدك •

وخفت أشد الخوف حين ذكر لي اسم المتصرف ، لا من هذا الرجل ، بل كان خوفي من أن يسمع أخي حميد تورطي في موضوع يثير غضب المتصرف عليه • فقلت لفرج أفندي :

ـ نعم ، أنا الذي كتبت ذلك في جريدة العراق •

وسألني :

— وحدك ؟

— نعم وحدي .

وقال لي بحدة :

— رجعت الى عنادك !

— نعم وحدي ، و (يونس ويحيى) هما ولدا أخي الكبير عبدالمجيد .

فقال لي :

— المتصرف غاضب ، ولا بد أن نقابله لنستغفر منه وتقدم له التوبة أن لا تعود الى الكتابة في الجرائد .

وتناول فرج أفندي سدارته من على المشجب ووضعها على رأسه ، وتقدمني بخطى عسكرية اعتادها على ما يبدو من حياته في الجيش العثماني. ومشيت وراءه مضطرباً ومرتعباً من مقابلة المتصرف جميل بك . وحين صرنا على باب غرفته في الطابق الثاني من دائرة المتصرفية ، قال لي فرج أفندي:

— لا تنس أن تعترف فذلك يتيح لي المداخلة فيما بينكما لاسترضائه .

ودخلت وراء فرج أفندي الى غرفة المتصرف ، وهي غرفة واسعة تطل شبابيكها العالية على نهر الحلة من فوق أعالي بعض الاشجار المثمرة في حديقة المتصرفية ، ويحتل الجانب الأيسر منها منضدة ضخمة وراءها كرسي ذو متكأ عالٍ يملؤه شخص أسمر السحنة وعلى عينيه عوينات ، منهمك في قراءة خارطة غطت حيزاً واسعاً من سطح المنضدة . وكان ذلك الشخص هو المتصرف جميل بك العزاوي . وحين صار فرج أفندي قريباً منه ، حياه بما يليق بالمتصرف وبغرفته ، ثم قال له لينبهه عن وجوده في غرفته :

— جميل بك ، هذا هو كمال توفيق ، وقد جاء إليك ليعتذر على ما كتبه في جريدة العراق .

فقال له المتصرف جميل بك دون ان يرفع رأسه عن الخارطة :

ـ تفضل استرح ..

وكان فرج أفندي قد سبق وجلس على كرسي ليس بعيداً عن منضدة المتصرف ، أما أنا فتركني واقفاً عند باب الغرفة من داخلها كما أوصاني بذلك فرج أفندي مسبقاً . وبعد لحظات رفع جميل بك رأسه نحوي وسألني باستهجان :

ـ (ولك) انت منين ؟

فأجبته :

ـ أنا من سامراء .

ـ من سامراء ، منين ؟ من أي عشيرة من البو نيسان ، من البو بدري، من البو عباس ، منين ؟

فأجبته :

ـ من البو عباس .

ـ قل لي منو قشمرك وكتبت الى الجريدة ؟

وسهمت دون أن أجيبه

فقال لي بغضب :

ـ ما تريد تقول ، طيب تشوف هسّه !

وضرب براحة يده على جرس معدني بشكل ناقوس موضوع على طرف طاولته . ودخل شرطي الغرفة وأدى تحية لائقة رافقتها رفسة قوية على أرض الغرفة . وعاد يسألني جميل بك :

ـ تقول لي من الذي قشمرك لو تريد تنحبس ؟

فأجبته وأنا أرتعد في داخلي :

ـ بك ، والله أنا وحدي .

فزعق جميل بغضب وهو يقول للشرطي :

ـ خذه الى الموقف .

وأمسك الشرطي بعضدي ، وقادني الى خارج الغرفة وأنا أنظـر بعين كسيرة مستعطفة الى فرج أفندي الذي لم أسمعه يفتح فمه بكلمـة دفـاع عني • وفتح الشرطي باباً مغلقاً لغرفة يطل شباكها الوحيد على الطارمة التي تحيط بالطابق الثاني من دائرة المتصرفية ، ودفعني بلين الى داخلها •• وكان باب هذه الغرفة محصناً بقضبان من الحديد مدهونة بلون أسود • وصرت واحداً من بين خمسة رجال في هذه الغرفة الصغيرة • وكان واحـد من بين هؤلاء بهيئة نظيفة ، وربما لذلك فضل أن يبقـى واقفاً متكئاً على جـدار الغرفة ، أما الرجال الآخرون فتدل هيئاتهم وملامحهم على أنهم من عامـة الناس أو الفلاحين ، وكنت أصغر واحد من هؤلاء الأربعة الموقوفين في هذه الغرفة ، فنظروا إليّ باستغراب ، ثم عادوا الى التحدث فيما كانوا يتحدثون• واستقر مكاني بين الشخص الواقف وبين باب الموقف • وصرت ألهو بالنظر من خلال قضبان الباب الى ما يدور على ساحة دائرة المتصرفية • وتناهى الى سمعي من (الطارمة) المقابلة للموقف الذي أنا فيه عمال منهمكين في تعليـق لافتات كتب فيها (أهلاً بالمليـك المفدّى) وأعـلام عراقية كثيرة بمختلف الحجوم • وكنت قد علمت وأنا في المدرسة ان الملك فيصل الأول سيكون قريباً في الحلة في طريقه عائداً من زيارة جنوب القطر • وكان الوقـت قد قارب عصر ذلك اليوم • ومن بعيد رأيت الملك ومن حوله جمع غفـير من بينهم متصرف اللواء جميل بك ، وبعض الانكليز وبعض شيوخ اللواء ، ولم أرَ وجه الملك بوضوح بل عرفت شخصه من لباسه المتميز وعقاله المقصّب بخيوط الذهب ، والتفاف المستقبلين من حوله • وفي هذه اللحظات تقدم من الملك شاب وقور الهيئة داكن السحنة يضـع على رأسه اليشماغ والعقـال الأسود المألوف في منطقة الحلة ، وصار هذا الشـاب يخاطب الملك وهـو يحرك يمناه الى يمين والى شمال والى أمام في اتجاه الملك • وقد سـمعت من أحد أصحابي في الموقف أن ذلك الشاب هو شيخ عشيرة البو سـلطان واسمه (عبود الهيمص) • ولم يكد هذا الشاب يتم خطابه أمام الملك حتى

سمعت من يقول بأمر :

ـ افتحوا أبواب الموقوفين واطلقوا سراحهم وابعدوهم بسرعة فقد يمر الملك من هذه الطارمة عند انتهاء الحفل وهو يعبرها لمغادرة بناية المتصرفية . وحين خرجت من الموقف وأنا أتدافع مع من كان معي فيه قابلني وجهاً لوجه أخي حميد وبجانبه فرج أفندي ، والغضب بادٍ على وجه أخي وهو يقول بعتب شديد :

ـ خلف الله عليك يا كمال ، سويتها !!

وتبعته الى خارج المتصرفية وبقي فرج أفندي مع الحشد يستمع الى خطاب الشيخ عبود الهيمص . وسرت الى جانب أخي ونحن صامتان على طول الطريق الى بيتنا . فأردت أن أكسر هذا الجمود بيننا فقلت له :

ـ أعتذر ..

فلم يجبني ، وكان هذا ما لم أرتح إليه .

وبعد ثلاثة أيام طلبني مدير المدرسة فرج أفندي الى غرفته ،واستقبلني باشاً متودداً وهو يمسك بجريدة العراق ..

ـ يا ابني كمال، أنا فخور بك فهذا الذي كتبته في جريدة العراق قبل ثلاثة أيام يدل على نضوج مبكر في تفكيرك ، واستمر فرج أفندي يكلمني بمثل هذه الطريقة . وفهمت حالاً ما كان يقصده فرج أفندي ، فقد بعثت الى جريدة العراق قبل بدء مقابلتي مع المتصرف مقالاً بعنوان (التربية الاستقلالية والتربية الاتكالية في حياة الأمم) وباسمي الصريح (كمال توفيق) وهذا كان كل اسمي يومئذ . واستمر فرج أفندي يقول لي :

ـ المتصرف طلبني الى دائرته وكشف لي عن امتنانه واعجابه بالمقال ، وأشار إليَّ من طرف غير واضح أن تكتب مثل هذا المديح لأعماله في ادارة اللواء . ثم قال : وهذا لا يتناقض مع ما كتبته قبلاً في الجريدة نفسها ، لأنك الآن تكتب باسمك الصريح والمقال الأول باسم آخر ، فهمتني يا ابني؟

ولا أذكر أنني أجبته بما يرضيه ، ويحتمل انه عدّ سكوتي دليل الموافقة على ما يريده مني المتصرف • وبعد يومين وصلتني حوالة بريدية من جريدة العراق بخمس روبيات عن المقال الذي كتبته عن نوعي التربية • ولا يعلم إلا الله كم كان فرحي وغروري بهذا المبلغ : إذ أنني الآن صرت شيئاً ما ذا صوت وأهمية • واعترف الآن أن عنوان ذلك المقال كان من مقترحات معلم اللغة العربية بمتوسطةالحلة يومذاك (إبراهيم كمال) وهو أيضاً الذي أدخل كثيراً من التصحيحات في متون مضمونه •

× × ×

وحين كنت في الحلة اعتدت أن أزور سامراء في العطلة الربيعية من سنتي الدراسة المتوسطة • وكنت أترقب أيام السفر اليها بلهفة ، وأعد الأيام يوماً يوماً ، ويبدو لي انه قد طال وقت السفر إليها كلما اقتربتُ منه •

وكانت الحلة مثل غيرها من مدن الفرات الاوسط فريسة لبعض الأمراض المتوطنة التي استقرت بعناد ضيفاً ثقيلاً على سكان المنطقة • كانت هذه الأمراض المتوطنة أو المستوطنة هي (الملاريا) • وقد وضع في المدرسة المتوسطة في أيام طغيان هذا الوباء قارورة من محلول (الكنين) يأخذ منها كل تلميذ يدخل المدرسة وفي ساعات الصباح جرعة كطريقة وقائية ضد الملاريا• ولم أُصب بهذا المرض طيلة السنتين الأوليتين فيالحلة ، غير انها ما لبثت أن أصابتني وأنا أغادرها في عطلة السنة الثانية بسيارة الى بغداد في طريقي الى سامراء ، وكان الطريق يومئذ غير معبد ، ومتعرج وذا مسارب متعددة متقاربة أو متباعدة بحسب الآثار التي تعملها السيارات التي يختار سائقوها طريقاً جديداً لم تخربه الامطار • فاستأجرت مقعداً في إحدى سيارات كراج (الأسطة جابر) وكان هذا الرجل من أصدقاء أخي فأوصى سائق السيارة بأن يوفر الراحة لي أثناء السفر بذلك الطريق الى بغداد • فلم أستقر في المقعد الأمامي في السيارة إلا داهمتني علامات الملاريا ، وهي حمى شديدة

ثم رعشة برد عنيفة ، فلما وصلت السيارة الى المحمودية كنت في حالة سيئة وحمى شوي ضلوعي ، فارتأى سائق السيارة رأفة بحالي ، ان يعرج على المستوصف الملكي في المحمودية . وهو عبارة عن بيت قديم ينحدر دون سياج الى نهير المحمودية الآسن . وأدخلني السائق الى غرفة صغيرة كان يتلكىء على جانبها رجل بنحو الأربعين من عمره وهو بلحية مهملة ،ويرتدي صديرية بيضاء لم أرها نظيفة . واضجعني هذا الرجل على طاولة طويلة من الخشب مركونة على جدار الغرفة من جهتها اليمنى،وتركني عليها ليستحضر مزرقة وضعها مغموسة في ماء يملأ علبتها فوق موقد كحولي ليغلي عليه الماء الذي فيها . وهذه أول مرة يقع نظري على ما كان يعمله هذا الرجل،ولكنني عرفت دون ان أسأل عن وظيفته انه مضمد هذا المستوصف وليس معه أي شخص آخر يعمل في مثل هذه الوظيفة . وحقن هذا المضمد دواء دفعه في إليتي بهذه المزرقة . فشعرت كأن مثقبا من نار قد نفذ الى عمق إليتي وأحرق ما فيها من لحم وعظم وعصب . كانت هذه الحقنة من مادة الكنين . وسأل السائق المضمد :

- كم ؟

فأجابه وهو منشغل بغسل المزرقة :

- نصف روبية .

وكانت هذه الحقنة آخر ما تناولت لمعالجة الملاريا التي أصابتني ، فلم تعد نوبتها تنتابني مرة أخرى كما هو متوقع ، غير انها تركت في ذاكرتي ألماً وخوفاً من وخز ابرتها لم أنسها حتى هذا اليوم . وصرت من يومها أخاف وخز هذه الابرة ، مع اني أمارس زرقها للمرضى وأمارس ما هو أكثر منها إيلاماً ، فأقطع في لحم المرضى أثناء العمليات ما لا يتناسب مع خوفي من الابرة التي تغرز في لحمي . كما لا أنسى يد ذلك المضمد وهو يملأ المحقنة بمادة الكنين التي كانت بأربعة أصابع فقط .

في بعقوبة

وأمضيت بضعة أيام من هذه العطلة الربيعية في بعقوبة حيث كان أخي الأكبر عبدالمجيد يشغل وظيفة (مدير مال اللواء) وقد وصلتها من بغداد بالقطار الصاعد الى خانقين • ومن محطة قطار بعقوبة حملتني عربة يجرها جوادان خبباً على طريق غير مستوٍ موازٍ لنهر (خريسان) • ولم أكن وحدي في هذه العربة بل كان فيها أيضاً ثلاثة رجال ممن ترجلوا معي من القطار ؛ وكانوا يرتدون الالبسة الشعبية وتتقارب أحاديثهم في بعض شؤونهم الحياتية • وأذكر ان العربة مرت في طريقها بعدد من النسوة المتبرجات يقفن بلا انتظام وعلى وجوههن ابتسامات مفتعلة ، عند مدخل حارة لم أتبين عمقها ، وسمعت إحداهن تقول موجهة كلامها إلينا :

ـ تفضلوا

وقالت أخرى :

ـ تجدون ما يسركم !

أما الرجال الثلاثة الذين كانوا معي في العربة ، فلم يعيروهن اهتماماً ، بل قال أحدهم لمن كانا معه في العربة :

ـ يظهر شغلهن في كساد !

وقال آخر وهو يبتسم :

ـ شغلهن بالليل أفضل •

وضحك الثاني وهو يقول :

ـ شغل (المنزول) بالليل على الأكثر •

والمنزول تعبير بمعنى منزل الدعارة ، كما يسمى (الكلچية) أيضاً •

وبعد بضعة أيام تالية عرفت بيسر أهم معالم مدينة بعقوبة التي كان منها دائرة مديرية الشرطة التي كانت تعرف يومئذ باسم (الأوتيل) ، وقد تكون في زمن ما في أيام دخول الانكليز الى بعقوبة (فندقاً) لأفرادهم ، فبقي

اسم (الأوتيل) ملتصقاً بها الى ذلك اليوم • وهي عبارة عن عمـارة ضخمة محاطة بأشجار التوت والنارنج ، فلا يبدو منها إلا شرفة تبدو طويلـة لولا الاشجار التي تقاطع منظور امتدادها • ويحصّن هذه الشرفة سياج خشبي مدهون بلون بين الأخضر والأزرق ، وتتسلق عليه عريشة كرم تبدو خضرة أوراقها باهتة بالنسبة الى لون سياج الشرفة الداكن • ومكان هذه الدائرة على حدود المدينة الشمالي عند الطريق الذي ينفذ الى قرية الهويدر • وعلى مقربة منها قنطرة تعرف باسم (گنطرة خليل پاشا) وهي جسر قصير لا يزيد طوله على أربعة امتار مشيد من الطابوق فوق نهر خريسان الذي يسـتمر منحدراً الى مدينة بعقوبة فيقسمها الى شطرين الغربي منها هو الأوسـع ، وهو محصور بين نهر خريسان من الشرق وبساتين نهر ديالى من الغرب • ويربط جانبي نهر خريسان بعض الجسور القصيرة المعمول أكثرها من جذوع النخيل ، سوى جسرين ، الاول ومكانه داخل المدينة ، وهو عريض يقـوم على جانبيه مقهى وبعض الحوانيت لبيع الحاجيات البيتية فلا يعرف من يقطع هذا الجسر انه يمشي على طريق يجري من تحته الماء • أما الجسـر الثاني فأعرض بكثير من الجسر الاول ، ومكانه في جنوب المـدينة ، وهو معبـر للسابلة والعربات والسيارات في طريقها الى شهربان وبلدروز وغير هذه من القرى والمدن •

وديار بعقوبة بمجموعها مشهورة بمحاصيلها من الأعناب والحمضيات والأثمار الأخرى ، فتحملها شاحنات الحمل الى بغداد عبر جسر حديدي ضيق وعالٍ وذي ممر واحد هو لعبور الناس والسيارات والقطار الصاعـد الى خانقين • وعلى طرفي الجسر مخفران للشرطة يتناوبان لاعطاء اشارة المرور أو قطعه ليكون للذهاب أو الاياب فقط ، وكثيراً ما يتولى الشرطي الذي يناط به إعطاء الاشارة عمله وهو بغير قيافة رسمية إلا إذا أخطر مقدماً ان متصرف اللواء أو مدير شرطتها في طريقهما الى المدينة أو خارجان منها •

ويشكل نهر خريسان (وهو فرع من نهر ديالى) لمسة فنية طبيعية جميلة بالرغم من مائه العكر وجريانه البطيء ، غير ان تعرجاته التي هندستها الطبيعة بمهارة وذوق ، والاشجار المتدلية عليه من الجانبين تغطي كل سوءة فيه .

وعلى جانبي نهر خريسان داخل المدينة مسارب ضيقة ينحدر الناس منها الى النهر ليستقوا منه الماء ويحملوه بالجرار او القرب الى البيوت . ومما يزيد في جمال هذا النهر أسراب البط التي تمخر ماءه وهي تبطبط بتواتر وخصوصا إذا ضل احدها سبيله الى بنات جنسه .

ويعيش هذا البط على ما يلتقطه مما يطفو على سطح الماء ، او من جذور الشجيرات والطحالب والفطريات التي تكثر في قاع النهر ، فيغطس البط عموديا سوى ريش ذنبه الذي يبقى خارج الماء . وذكور البط جميلة وكثيرة الحركة ، وتتميز عن الانثى برؤوسها المكسوة بريش أزرق براق . وجمال ذكور البط شأنها شأن غالبية الطيور هو العطاء الذي يقدمه لأنثاه تحبباً وتزلفا ، كما يتقرب لها برقصات على إيقاع بطبطاته وهو يمط رقبته الى اعلى ثم الى أسفل لتخضع الى اغرائه .

عباسية في بعقوبه

عباسية هي في الحقيقة ليست امرأة ولا هي رجل أيضاً ، إذ أن لها جميع صفات الجنسين ، فهي ترتدي العباءة السوداء التي تلبسها النساء ، أي أنها تحملها على قمة رأسها لا على كتفيها ، وتكحل عينيها وتخضب راحة كفيها بالحناء وتتكلم كما يتكلمن بغنج ، وتخفي جانباً من وجهها المزوّق بحاشية عباءتها استحياءً من الرجال .. كذلك تلبس الثياب المزركشة والمخاطة بالموديل السائد عند النساء ، وكانت أيضاً إذا فوجئت بدخول رجل الى بيتها وهي بدون عباءة فانها تسرع كالمجنونة لتلبس عباءتها قبل أن يراها ذلك الرجل بدون عباءة ، كما تعاتبه بغلظة على دخوله دون أن ينبهها الى

ذلك • وأكثر من كل ذلك انها لا تستسيغ التحدث الى الرجال وتميـل الى صحبة النساء • من جهة أخرى كانت تحلق دقنها وشاربها في كل صبـاح ، ولها صوت الرجال ، وشدة بأسهم في تحدي من يتحرش بها او ينقدها على تصرفاتها الغريبة • كما ترفض بغضب ان تنادى باسم (عباس) وهو الاسـم الذي خلع عليها حين جاءت الى الدنيا، ومن اخبار (عباسية) انها (الوحيدة) لامها الارملة وكلاهما يعيشان على إيراد بستان في ضواحي قرية الهويدر •

عودة الى الحلـــة

وغادرت بعقوبة بعد اسبوع الى سامراء ومنها عدت الى الحلة ،لأكمل دراستي في مدرستها المتوسطة •

كانت الحلة مسرح تحولي الفكري والاجتماعي والجنسي في حيـاتي التالية ، فقد تعلمت فيها حب الكتاب ، كما أحببت فيها آثار بابل التي كنت أرى في خرائبها كتاباً مفتوحاً هو أبلغ لو كانت قائمة كما هي حتى اليوم • كذلك امتدت صداقتي مع من عرفتهم في مدرستها سنين كثيرة بعد ذلك • وكان من هؤلاء طه باقر ، وحسن زويني ، وسلمان منشي • أما عبدالوهاب مرجان فقد سبقني الى المدرسة المتوسطة بسنة واحدة ، إلا أنني رغم هـذا الفرق بقيت على اتصال معه لم ينقطع حتى بعد توليه رئاسةالوزارةفي العراق سـنة ١٩٥٧ •

وكان سلمان منشي يجيد الكتابة بخط النسخ ، والضرب على أوتـار العود، كما كان يهوى تربية الكلاب ، ولا يرتاح في بيته إذا خلا من أحدها • ومن كلابه واحد صغير الحجم ، بني اللـون ، سبط الفراء • ويروي عنـه صاحبه سلمان منشي حركات يصعب تصديقها ، وقد رأيت إحداها بنفسي، وهو يرفع كلتا يديه ليقف على رجليه ، ثم يتط بهما قفزاً مرة ومرتين حتى يصل الى حنفية الماء التي تتوسط حوش البيت ، ثم يمط قامته ليوصل بوزه الى مستوى صنبور الحنفية ، وبعد ذلك يبدأ يفرك بفكيه مفتاحهـا ، فاذا انساب الماء منها لوى رأسه من تحتها ليمتص الماء الذي ينحدر منها • وأنا

أعرف أن الكلاب والقطط تلطع الماء لتجرفه الى فمها ولا تمصه كما تفعل الخيل والأبقار ، أو كما يفعل هذا الكلب .

× × ×

وأهل الحلة بشكل عام لهم ولع فطري بالأدب وتعاطي الشعر ودراسة التاريخ الاسلامي ، وقد تسرب إليَّ قدر من هذه الهوايات،فأحببت الكتاب وقراءة التراث الاسلامي ، فاشتريت بعض الكتب الكلاسيكية من مؤلفات جرجي زيدان والمنفلوطي ، وكتاب كليلة ودمنة . فكانت هذه الكتب نواة مكتبتي التي أخذت تعمر وتزدهر عدداً وتنوعاً ، عاماً بعد عام منذ تلك الأيام حتى صارت لا بأس بمحتوياتها من حيث العدد وضروب المعرفة .

وفي الحلة تحركت في داخلي بوادر بغضي للانكليز لكثرة ما كنت أسمع من أهاليها عن أعمالهم ، واجحافهم وجشعهم في سياسة العراق التي دفعتهم الى (ثورة العشرين) المعروفة . وكان سخطي يثور على الانكليز كلما وقع نظري على طبيب الحلة الانكليزي (ماكلاود) وهو يتريض مشياً أمامي على ساحل النهر وطرف غليونه يبرز من جانب رأسه المتعالي . أما إذا كانت زوجته الشابة الأنيقة بصحبته ، فيتركز نظري واهتمامي على هذه الأنثى فينجو زوجها من سبابي المكتوم ، وحقدي عليه ، وعلى كل انكليزي .وبعد سنين كثيرة قرأت وأنا أبحث في تأريخ تأسيس الكلية الطبية العراقية ، أن الدكتور ماكلاود كان أحد الأطباء الذين وقفوا في الجمعية الطبية (البغدادية) الى جانب من دعا الى استحداث كلية طب في بغداد . ولو أني كنت أعرف يوم كنت في الحلة انه سيفعل ذلك فقد يخف سخطي عليه .

× × ×

وثمة أحداث شهدتها في الحلة تركت فيَّ رواسب نفسية بالغة بارتباطها وتأثيرها على ما أتى بعد ذلك من حياتي ، أذكر منها واحدة مازجت بازعاج ذكرياتها أيامي الاولى حين التحقت للدراسة بكلية الطب ببغداد ، إذ أن المستشفى الملكي في الحلة كان في طريقي الى المدرسة المتوسطة . وحوادث

القتول يومئذ في لواء الحلة لم تكن قليلة ، وطرق القتل وأدواته تحدث بانواع وفنون • وينقل القتلى في الاكثر على ظهور الدواب او يحملون على مؤخرة السيارات ، وفي هاتين الحالتين تجبّر جثث القتلى باعواد النخيل لكي تستقيم اجسادها ، وتلقى تلك الجثث على قارعة الطريق المترب ، دون اهتمام ، عند مدخل المستشفى ليفحصها الطبيب ويشخص اداة القتل وسبب الوفاة • وفي صباح احد الايام شاهدت وانا في طريقي الى المدرسة قتيلاً مرمياً بلا اعتناء على ارض هذا المكان ، وكان راسه مهشما وملطخاً بخليط من الدم والتراب ، فاثار في نفسي الذعر والغثيان ، فقذفت ما في جوفي من الطعام الذي تناولته قبل دقائق • وظل هذا المشهد المقرف في مخيلتي اشهراً ، فأخافه وارتعب منه خصوصا حين تعم الظلمة حجرتي اثناء الليل ، كما جعلني أدهش من ان يكون في وسع اي انسان ان يعمل بسكينه في لحم هذا القتيل ليهتدي الى سبب موته ، وهذا ما جعلي أستبعد بشكل قاطع دراسة الطب وممارسته في مستقبل أيامي •

وثمة حدث آخر ارعبني حتى أعماق نفسي ، ولا أزال أتذكره برعب وتقزز • كان أحد عمال بلدية الحلة مسؤولاً عن كنس وتنظيف دائرة البريد التي كان أخي يسكن بعض حجرها ، واسم ذلك العامل (مرزوق) ، وهو أسود البشرة وبنحو الخمسين من عمره ، ولولا بعض الشيب في جمةرأسه ، وبياض أسنانه لما كان من السهل تمييز ملامحه من غير ضياء كافٍ • وكان وجهه مجعداً معروفاً وشفتاه ضخمتان ، وهو من فئة السود الموجودين بكثرة في الحلة ، ولهم فيها حارة خاصة يقيمون فيها طقوساً غريبة وبعضها مخيف• وذات صباح باكر تعالى صراخ وحشي في دائرة البريد الملاصقة لسكن أخي ، ولما هرعنا أنا وأخي وزوجته الى مصدر الصراخ هالنا ما شاهدناه ، فقد كان مرزوق ملقى على ظهره ، وامرأة سوداء من جنسه غير أنها أصغر منه جرماً ، تجثم على صدره وهي تولي ظهرها نحو رأس مرزوق ووجهها يقابل رجليه ، وكانت تدفع يدها اليسرى الى ما تحت حزام مرزوق لتنك

أزرار سـرواله ، وهو يقاومها بما له من قوة ، فيثني ركبتيه ثـم يبسطهما ثم يثنيهما ، إلا أن هذه المرأة كانت أقوى منه وأمتن ، فتعيد رجليه منبسطة كما تريد ، وتمزق سرواله بسكين طويلة كانت بيدها • وكان مرزوق التاعس يتلوى تحت وطأتها ويستنجد وهو يثني ركبتيه ثم يمدهما محاولاً بيأس الإفلات من ثقلها على صدره • وأفلت من قبضتها مرة فأعادته بقوة وحقد على ظهره ، وارتمت ثانية بجسمها على صدره ، فصرخ بوحشية يستغيث بنا، فلما همّ أخي بمحاولة انقاذه جحظت عيناها المحمرتان وهي ترفع السكين بوجهه فتراجع أخي مذعوراً منها ، وعادت الى عضو مرزوق وخصيتيه تقطع فيهما ما تشاء • كانت هذه المرأة فتية وقوية وثائرة كاللبوة ، وسرعان ما رأينا أطراف مرزوق تنبسط بتراخ ، ويخف صراخه شيئاً فشيئاً ، ويتهاوى رأسه الى جنبه ، وتركها تعمل ما تريد حتى لفظ انفاسه الأخيرة وهو تقول له بشماتة وانتصار :

— روح هسَّه تزوج (فضة) •

وعرفنا بعد ذلك أن فضة فتاة سوداء صغيرة السن ومن جنس مرزوق وزوجته ، وقد خطبها لنفسه ليتزوجها ، فتوعدته هذه التي قتلته إن فعل ذلك لتقتلنه ، فنفذت وعيدها بهذه الطريقة الغريبة البشعة •

شـوندرة

وثمة أمر آخر على نحو غير ما ذكرته ، ما زال عالقاً بذاكرتي • ففي يوم ، دخل دارنا كلب صغير بلون شراب الخمرة ، طويل الشـعر من نوع (الستر) الانكليزي ، وكانت تتعقبه صبية في نحو منتصف العقد الثاني من عمرها ، ذات شعر مسبل أحمر قريب من لون ماء الشوندر ، وعينين واسعتين تحصنهما أهداب طويلة مقوّسة بشـموخ • أما شفتاها فكانتا ممتلئتين كالفاكهة الطرية الناضجة • والتفتت هذه الصبية نحوي وقالت :

— هذا كلبنا ••

وأسرعت إليه ، وأمسكت بحلقة عنقه وقادته خارجة من البيت،ولكنها

لم تخرج صورتها من عيني وفكري • ولم تكن الفتيات في الحـلة اللاتي بعمر هذه الصبية يخرجن من دورهن من غير ارتداء العباءة السوداءالتقليدية مثلما دخلت دارنا هذه الصبية ، فلا بد إذن هي من فتيات جيراننـا ، وانها خرجت متعجلة وراء كلبها دون تحفظ إلا بثوبها البيتي الواسع الذي أفاض عليها ما جذبني الى عذوبتها الطبيعية • وبعد بضعة أيام رأيت هذه الصبيـة تدخل دارنا بصحبة سيدة اعتدت أن أراها تزور زوجة أخي بين حين وحين، وعلمت بعد ذلك ان تلك الصبية واسمها (ف) يتيمة الأبوين ، وقد تكفلتهـا خالتها زوج أحد أثرياء الحلة • والخالة من عائلة لهم اسم فخم في الأوساط الرفيعة والمتدينة في بغداد • ولم أكن أرى هذه الخالة وهي داخلة الى دارنا أو خارجة منه إلا وبين شفتيها الداكنتين بصبغة (الديرم) سيكارة مولعـة ، وهي لولا أسنانها الملوثة بسواد دخان السكاير لعددتها من السيدات ذوات الجمال الدافىء الجذاب • ومما يزيد من حلاوة قيافتها العباءة السوداء التي تنسدل بثقل على طولها الفارع • وكانت هذه الخالـة تسمي الصبية (ف) شوندرة للتقارب بين لون شعرها ولون ماء الشوندر • وذات يـوم طلبت مني هذه الخالة أن أعلّم شوندرة (درس الحساب) الذي كانت ضعيفة فيه ، إلا ان شوندرة حين سمعت من خالتها هذا الطلب رفضت بانزعاج وعصبية دون وعي منها لما ظهر على وجهها من التبدل الجسدي والانثوي في صوتها ونهديها • وربما كان رفضها للدراسـة عليّ من علائم النضـوج الانثوي المبكر • ومنذ ذلك اليوم لم أرَ شوندرة تدخل بيتنا وحدها أو مع خالتها، لكنني ما انفككت أراقب خروج طالبات مدرسة مناحيم دانيال التي تقـابل بيتنا لعلّي أراها ولو من بعيد بين أترابها • فلم تتوفر لي هذه السعادة إلا بشحة وندرة • ومع ذلك صارت هذه الصبيـة محور تفكيري وأحـلامي اللذيذة على مدى سنين تالية لولا أنني كنت في الوقت نفسه أحس في داخلي من فرط اهتمامي بها ، أنني سأراها يوماً في حياتي القابلة بحال مزرية مؤلمة، وقد صدقت هواجسي كما سأذكر ذلك فيما يأتي ••

القسم الثالث

في الثانوية المركزيـة ببغـداد

في المدرسة الثانوية المركزية ببغداد/ ١٩٢٩

كنت مجداً في دروسي بمدرسة متوسطة الحلة ، محباً لقراءة الكتاب ، ومستمعاً باستمتاع ولهفة لدروس المعلمين فيها ، ولا أذكر لي أزمات في سني دراستي تلك باستثناء ما حصل لي مع متصرف لواء الحلة جميل العزاوي، وقد كانت هذه سحابة صيف لم تلبث أن مرت دون مخلفـات سيئة • وفي امتحانات نهاية السنة الثانية وهي الأخيرة صرت متفوقاً بين أترابي ، وبعدها لا بد أن أنتقل الى بغداد لأتابع الدراسة في المدرسة الثانوية فيها لمدة سنتين أخريتين • وفي يوم وأنا في سامراء أثناء العطلة الصيفية وصلتني رسالة من أخي حميد في الحلة تفيد بأنني رشحت من قبل وزارة المعارف للدراسة على حسابها في ثانوية بغداد • وكان ذلك مبعث فرح واعتزاز لي ولأهلي،وبخاصة لأبي ، فنشط لزيارة مجالس شيوخ سامراء للتباهي أمام أصحـابه بالتفوق الذي حصلت عليه في الامتحان النهائي بمدرسة الحلة ، ولترشـيح الدولة لأدرس على حسابها ببغداد دون غيري من أترابي الآخرين • وسـافرت الى بغداد اعتماداً على تلك الرسالة التي وصلتني من أخي حميد لأسجل اسمي في المدرسة الثانوية المركزية ، واذا بكاتب المدرسة (مصطفى الكبيسـي) يبلغني بأن ثمة خطأ وقع فيه مدير المدرسة المتوسطة في الحلة فرج فهمي ، إذ كان المطلوب منه أن يرشح الطالب المتقدم من الناجحين من أهل الحلـة لا من الوافدين إليها من لواء آخر ، فكتبت مديرية المعارف العامـة الى المدرسة المتوسطة في الحلة لتصحيح كتابها الاول وترشيح الطالب المتقـدم

ممن هو من لواء الحلة ، فحصل على هذا الترشيح الطالب (طـه باقر) ، وبالرغم من أن هذا الطالب كان أقرب صديق لي في مدرسة الحلة ، فقد حز في قلبي ألاّ أفوز مثله بهذا التقدير الذي ما كان أحوجني إليه من وجـوه كثيرة • وبرزت حاجتي الى هذا التقدير بشكل خاص حين صرت أصطـدم بصعوبات إيجاد سكن ملائم تتوفر فيه الراحة والجو العلمي ، وهذا ما كان مضموناً لمن يدرس على حساب الدولة في هذه المدرسة • وعلى ذلك كان دخولي الى المدرسة المركزية ببغداد تجربة بالنسبة لي أخافتني كثيراً ، فهي في الأقل تبعدني عن كل واحد من أهلي ، كما تختلف جذرياً عن دخولي في المدرسة الابتدائية بسامراء أو المدرسة المتوسطة بالحلة • فقد كان أهلـي في كليهما هم المسؤولون عما يستلزم للالتحاق بتلك المدرسـتين ، كما كنت في كليهما أعيش على حسابهم في السكن والمأكل والمشرب ، بينما يتعـين عليّ للالتحاق بالمدرسة الثانوية ببغداد مراجعة عدد من الدوائر الحكوميـة لتوثيق هويتي وجنسيتي وخلو ماضيّ من الجرائم الاخلاقية وما الى ذلك مما يجب أن يتحلى به التلميذ الصالح للدراسة •

وغادرت غرفة الكاتب مصطفى الكبيسي والغـم يطبق على صـدري ويعمي بصيرتي ، وحرت فيما أفعله ، ولما رأيت أن لا خيار لي إلا ان التحق بهذه المدرسة عدت إليه بعد قليل وقلت له :

— والآن ماذا أفعل ؟

فأجابني ببرود لا يخلو من الملل :

— إذا تريد أن تسجّل بهذه المدرسة فقرر الآن (الفرع) الذي تريده •

وسألته :

— ماذا تقصد بالفرع ؟

فأجابني :

— في المدرسة فرعان ، علمي وأدبي

وتجاهلت ملاه مني وسألته :

ـ وما الفرق بينهما من فضلك ؟

ـ في الفرع العلمي تركيز على العلوم التطبيقية ، مثل الكيمياء والفيزياء واللغة الانكليزية ، وهذه تؤهل الطالب الى كلية الطب والهندسة • وفي الفرع الأدبي تركيز على العلوم النظرية كالأدب والجغرافيا والتاريخ وهذه تؤهل الطالب الى دار المعلمين العالية وكلية الحقوق •

وفرج الله عليّ واخترت أمامه دون تفكير الفرع العلمي • وبعد يوم كنت أحتل أحد مقاعد هذا الفرع ، فاذا كثير من طلبته لم أعرفهم قبلاً إلاّ البعض القليل الذين عرفتهم في متوسطة الحلة • وفي اسبوع واحد تعرفت على أكثر طلبة هذا الصف فاذا الكثير منهم من اليهود ، كما عرفت بالاسم جميع معلمي المدرسة •

× × ×

ومكان المدرسة هو مكانها في هذا اليوم نفسه المقابل لدائرة البريد من الشرق ، وغربي الشارع الذي يفصلها عن كل من النادي العسكري وقصر الملك فيصل الأول ، وكلاهما يطل على نهر دجلة •

والمدرسة بطابقين سوى أربع أذرع لها يمتد اثنان منها الى خلف واثنان الى أمام ، وكلا الذراعين بطابق واحد ، وبين كل ذراعين ساحة مرصوفة بالطابوق (الفرشي) ، وقد خصصت في الذراع الايسر الخلفي قاعة واسعة للاجتماعات اللاصفية وللخطابة والتمثيل ، رفعت على طول مدخلها لافتة سوداء كتب عليها بدهان أبيض وبخط النسخ عبارة (الوطن أول كل شيء وقبل كل شيء) وخلف هذه القاعة دورة المياه بما فيها من حباب الماء والمرافق الصحية والوصول اليهما من خلف هذا الجناح لا من الساحة التي بين الجناحين •

أما الجناح الأيمن فكان لادارة المدرسة • وعبر الطريق الذي تطل

عليه المدرسة من الخلف يرتفع القصر الملكي بلونه الأحمر وهو يطل على نهر دجلة ، وعلى يساره منحدر الى شريعة النهر يفصله عن النادي العسكري • ومن خلال قضبان السياج الحديدي الذي يعزل المدرسة عن الطريق الذي يقع عليه كل من القصر والنادي كان طلاب المدرسة يشاهدون بيسر مايجري عند باب القصر الملكي ، ومن يخرج منه أو يدخل إليه ، أو من يطلع من الشريعة أو ينحدر إليها ليستقل أحد القوارب التي تمخر النهر بالمجاذيف الى جانب الكرخ • ويقف على شاطىء هذه الشريعة عدد من صيادي السمك يعرضون للبيع ما في شباكهم منها وهي حية تلبط بعصبية للتخلص من أسرها • وقد يفتحون بطون هذه الاسماك من ظهورها إذا ما طلب منهم من يشتريها ، فيرمون ما في بطونها من أحشاء الى بجعة ضخمة تقف على الشاطىء بلا ملل بانتظار ما يرمى إليها من تلك الأحشاء •

ويقف على باب القصر الملكي من جانبه الأيسر جندي شاكي السلاح، بينما تقف أمام الباب سيارة من نوع كريسلر رمادية اللون وبسقف من الكتان الأسود ، هي سيارة الملك فيصل الأول • ويتأهب طلاب المدرسة لرؤية الملك إذا شاهدوا من خلال قضبان سياج المدرسة حركة نظامية بين جنود يخرجون من القصر ليتخذوا مواقعهم في صف واحد الى جانبه الأيمن استعداداً لأداء التحية للملك عند خروجه من القصر • ويمشي وراء الملك مملوك أسود ، طويل القامة نحيف البنية ، نظيف الثوب ، وعلى رأسه كوفية بلون وردة البنفسج وهو يحمل بيده حقيبة صغيرة بلون أسود • ويهرع سائق السيارة وهو بلباس عسكري ويفتح بابها الخلفي ليدلف منها الملك الى داخلها ، فاذا استقر في مقعدها الخلفي وضع المملوك الأسود الحقيبة على المقعد بجانب السائق ، ويغلق السائق باب السيارة بعد أن يأخذ مقعده وراء مقودها • فاذا درجت السيارة رفع الطلاب أيديهم بالتحية للملك ثم يصفقون له • أما الملك فيميل بجسمه الى ناحيتهم وهو في مكانه في السيارة،

ويرد عليهم التحية بابتسامة خفيفة عذبة • ويظل المملوك الأسود واقفاً برهة يشيّع الملك بنظرة مودعة حتى تغيب سيارته في المنعطف الأيسر الذي يصل الى الشارع العام حيث (طوب أبو خزامة) • ويلتفت ذلك المملوك الأسود الى الطلاب ويوسع شدقه بابتسامة عريضة تكشف لهم من بعيد عن أسنان شديدة البياض وكأنه يعلن بذلك انتهاء الاستعراض ويطلب منهم الذهاب الى صفوفهم ، ثم يستدير راجعاً الى مدخل القصر بخطوات وئيدة بطيئة وهو يراوح ثقل بدنه من جانب الى جانب ، ويختفي داخل القصر •

وذات صباح تقدم الملك من قضبان سياج المدرسة قبل أن يستقل سيارته فتجمع الطلاب أمامه وهم يرهفون أسماعهم بانتظار ما سيقوله لهم ، وفي حيرة مما يجب أن يقولونه له • وقد بدا لهم الملك طويلاً لنحافة عوده وحسن قيافته ، وكان يرتدي حينذاك السدارة العراقية المعمولة من (لبّاد) أكراد الشمال ، رمادية اللون التي بدا كأن لابسها قد تعمد اختيار لونها لتناسق شعر ذقنه المدبب • قال الملك :

ـ حيا الله الشباب

واستعجل أحد الطلاب وقال له :

ـ سيدي

وسكت ولم يقل شيئاً آخر ، وقال آخرون دفعة واحدة :

ـ سيدي

ولم يقولوا أكثر من ذلك ، أما الملك فقال لهم :

ـ يا أولادي عليكم بالكتاب والتعلم ، فهما اللذان يخلقان الرجال للوطن والأمة ، فكونوا أنفسكم على مستوى هذه المسؤولية •

وتعالى التصفيق ، ومد الملك يده ليصافح إحدى الأيدي الكثيرة التي امتدت بخفة ، وعاد الملك يقول :

ـ استفيدوا يا أولادي من شبابكم بما ينفعكم وينفع بلدكم ، وخير الناس من نفع الناس •

وابتعد الملك عن سياج المدرسة نحو سيارته حيث كان ينتظره سـائقها وهو يمسك ببابها مفتوحاً ليلج الى داخلها الملك. وتحركت السيارة والطلاب يصفقون له بأشد ما استطاعوا أن يصفقوا .

مشكلة السكن

وفي الفرصة التي تلت الدرس الأول ، داهمتني حين كان بيدي استكان الشاي في حانوت (خليل القهوچي) بالمدرسة فكرة إيجاد سكن لي بأسرع وقت . وكنت قد أمضيت ليلتين في نزل (وجنة الشارع) الواقع فوق مدرسة الأليانس اليهودية بشارع الرشيد . فتذكرت أحد أقرباء أمي وهو صاحب دكان في سوق الصفافير ، عساه يدلّني على سكن يوفر لي الهـدوء لمتابعـة دروسي ، ولم أكن أعرف ان الذي أريده أكثر مما تتحمله ماليتي المحدودة. وقد استقبلني ذلك الرجل الطيب واسمه (مصطاف) بترحاب ،وحين استشرته في موضوع السكن قال لي بحنان :

– يا ابني ليس من السهل أن تعثر على المكان الذي يرضيك ، واقترح أن تتفق مع بعض أصحابك من التلاميذ على استئجار غرفة واحـدة في أحد الخانات أو المسافرخانات القريبة من باب المعظم ، فيكون المكـان قريباً من المدرسة وقريباً من المطاعم الكثيرة الموجودة في تلك المنطقة .

ثم سألني : أين تسكن الآن ؟فأجبته :

– في نزل وجنة الشارع

فاستغرب ، وقال لي :

– لا يا ابني ، هذا غير صحيح ، تنام عندنا يوماً ويومين وأكثر الى أن تتفق مع أصحابك لايجاد غرفة توفر لكم الهدوء والراحة .

ونمت ليلتين في بيت هذا الرجل الخيّر بمحلة (فضوة عرب) وفي اليوم الثالث جمعتني المصادفة مع تلميذ كان في صفي بمتوسطة الحلة هو (طه باقر) فاستأجرنا غرفة في عمارة (نشأت السنوي) الواقعة عند تلاقي شارع

المتنبي بشارع الرشيد ، غير أننا اكتشفنا بعد اسبوع واحد ان القراءة والراحة لا يتحققان في هذا المكان بسبب الضجيج الذي يتعالى إلينا بلا انقطاع من شارع الرشيد . وصار علينا أن نترك هذه الغرفة • وأرشدنا بقال قريب من العمارة كنا نشتري منه بعض المأكولات الى بيت في حارة حمام المالح تسكنه عجوز اسمها (ديزي) ، فذهبنا حالاً الى ذلك البيت ، وقابلنا صاحبته ، وكانت ترتدي ثياباً خشنة من الصوف ، وتعصب شعرها بخرقة لا لون لها ، وقد ربطتها بعقدة كبيرة وراء رأسها • وقادتنا هذه المرأة لرؤية الغرفة التي تعرضها للايجار • وكانت هذه الغرفة تتصل مباشرة بحوش البيت ، وليس لها منفذ إلا بابها ذي الصفقتين • ورفض صديقي طه باقر الاتفاق مع هذه العجوز حول الغرفة ، بحجة بعد البيت عن المدرسة • أما أنا فرضيت أن أسكن فيها مضطراً • وسرعان ما اكتشفت ان هذه العجوز كثيرة التشكّي والتذمر لغير ما سبب ، كما لا يتوقف لسانها العالي السليط على جيرانها من طرفي البيت ، ولا ضربات قبقابها الخشبي إلا في ساعات نومها ، وما أقل ما تهجع • وكنت أغادر بيتها مبكراً فلا أراها حين تكون قد غادرت لتشتري ما تحتاجه من السوق • أما في أيام الجمع فكانت تثير أعصابي وتشتت أفكاري وأنا أقرأ في كتبي لكثرة حركتها وتخاصمها مع أولاد الحارة أو مع جيرانها ، فضقت ذرعاً بتصرفاتها المزعجة ومعاملتها الخشنة معي ، وخصوصاً حين بدأت تطلب مني أن أكنس (الطرمه) التي أمام غرفتي ، ثم تمادت وطلبت مني أن أغسل الصحون وأكواب فطوري ، ولم أرَ في كل ذلك بأساً ، وحسبته من باب التعاون الذي يعمل به أفراد البيت الواحد ، غير انها تمادت بطلباتها الآمرية مني التي كثيراً ما تصدرها وأنا في غمرة القراءة والتركيز في نص من الكتاب ، فتقطع تسلسل متابعتي فيما أريد أن أفهمه من الكتاب • وذات مرة كشفت عن كامل طبيعتها الخسيسة حين قالت لي (ان سهري في الليل لمراجعة دروسي يكلفها مزيداً من أجور الكهرباء ، فلا بد أن أشتري مصباحاً كهربائياً بأقل (قوة) وإلا

فانها تطلب زيادة في أجور الغرفة ، او تقطع النــور عنها ، أو اعوضهــا عن ذلك باعمال بيتية اخرى غير التي طلبتها مني • فكانت أي من هذه البدائل الثلاثة التي عرضتها عليّ هذه العجوز قد ازعجتني واقلقتني اشد القلق ، غير انني كتمت ذلك ولم اجبها على عروضها بكلمة ، فغادرت بيتها حــالاً وأنا ساخط على الدنيا كلها ولا اعرف ماذا يجب ان اعمل لأجد لي مــأوى افضل من بيت هذه العجوز • وفيما كنت في طريقي الى المدرسة والهم يطبق على صدري ، والحيرة تفقدني صوابي فيما يجب ان أعمله مع هذه العجوز قررت ان اغادر بيتها حتى لو سكنت في احد النزل الحقيرة التي تكثــر في محلة الميدان ، ولم آكد انتهي من هذا القرار حتى صرت وجهاً لوجــه مع أحد أصدقائي وهو موظف بدائرة السكك الحديد واسمه (مجيــد علي)، فشكوت له همي ومتاعبي في المكان الذي أسكنه بمحلة حمام المالح ، فاذا هو يعرض عليّ ان اشار له الغرفة التي ينوي استئجارها في عمــارة مركــز عربات (كاريات) الكاظمية التي تقابل شريعة بيت النواب بالكرخ ، ولشدة اغتباطي بهذا العرض لم اذهب الى المدرسة في ذلك اليوم ، بل عدت أدراجي الى بيت العجوز ديزي وحزمت حوائجي القليلة لأحملها الى الغرفــة التي استأجرها صديقي مجيد علي • ولم يمض إلا شهراً واحداً حتى اكتشفت ان هذه الغرفة لا تلائمني لكثرة ما ينبعث من الورشة التي تحتها من الاصوات والصخب الذي لا ينقطع حتى في أكثر ساعات الليل ، فعرضت شكواي من السكن في هذه الغرفة أمام صديقي مجيد ، ففاجأني يقول : انه استلم اليوم أمراً بنقله الى مثل وظيفته في البصرة ، ولأنني لا أستطيع دفع إيجــار هذه الغرفة وحدي صار عليّ أن أغادرها بأقرب وقت • وشعر صديقي مجيــد بالورطة التي وقعت فيها فأخبرني بأنه يعرف طالباً في الثانوية المركزيــة قد حصل على سكن في القسم الداخلي الملحق بدار المعلمين ، واضاف يقول : قدم طلباً الى سكرتير وزيرالمعارف ولا أظنه يرفض طلبك طالما كان لمثله سابقة• وفي صباح اليوم التالي حملت طلبي الى سكرتير وزير المعــارف في دائرته

الواقعة بجوار المتحف العراقي بشارع جسر الملك فيصل بجانب الكـرخ • ووجدت هذا الشخص جميل الطلعة ، حسن القيافة ، ويملأ كرسياً ضخماً وراء منضدة فخمة في غرفة واسعة الأرجاء ، وذات ستائر خضر تنسدل بثقل حتى تلمس الأرض بأطرافها المزركشة • وقرأ هـذا السكرتير المحتشم عريضتي ، ثم رفع رأسه نحوي وهو يهوي بها على زاوية منضدته،وقال لي:

ــ ابني راجعني بعد يومين

فغادرت حجرته وفي صدري أمل كبير في هذا الموعد أن أحصل منه على موافقة لقبولي في القسم الداخلي • وطبيعي لم يبق لي وقت للذهـاب الى المدرسة الثانوية بعد هذه المقابلة التي استغرقت أكثر ساعات الصباح ، ولا ضرر من ذلك طالما كان يداعبني الأمل في الالتحاق بالقسم الداخلي • وبعد يومين عدت لأقابل السكرتير كما وعدني بذلك في المقابلة الاولى ، وسمح لي فراش السكرتير في هذه المرة أن أدخل الى غرفة سيده مباشرة ، وأنا بين الأمل الكبير واليأس القاتل ، فبادرني سيادته قائلاً :

ــ تفضل ابني شتريد ؟

فقلت له بتلجلج ، أنا التلميـذ الذي رفع إليك عريضـة قبل يومـين للالتحاق بالقسم الداخلي لدار المعلمين • ويبدو انه نسيني ، ونسي عريضتي وموضوعها ، فقال لي بملل :

ــ طيب ، (هسّه) انت شتريد يا ابني ؟

ــ أنا طالب في المدرسة الثانوية وليس لي قريب في بغداد يأويني ، وقـد فشلت في أن أجد سكناً يناسب ماليتي،واسترحم موافقتكم على قبولي في القسم الداخلي لدار المعلمين الابتدائية •

ــ أنت تلميذ بأي مدرسة ؟

ــ في الثانوية المركزية •

فأجابني باختصار حاسم :

— غير ممكن !

فتشجعت وقلت له :

— ولكني أعرف أن غيري من طلاب المدرسة الثانوية قد قبل الى القسم الداخلي •

وعاد السكرتير يقول لي بامتعاض :

— قلت لك غير ممكن •

كان لهذا السكرتير شخصية قاهرة ، شكلاً وجرساً ، وقد تمنيت لو أنه وافق على طلبي ، وهو طلب مشروع ولمثيله سابقة ، إذن لحسبته أكرم العالمين طراً ، وأحسنهم خلقة وخلقا • وغادرت غرفته الأنيقة خاسراً حزيناً، كما فاتني حضور درس من أحب الدروس الى نفسي ، وهو درس درويش المقدادي في التاريخ الاسلامي • وذهبت الى المدرسة كسير الخاطر، وقصصت على أحد أصدقائي سبب تأخري عن درس المعلم المقدادي ، فتبرع يدعوني لأساكنه غرفة استأجرها في محلة الفضل ، فرحبت بدعوته وشكرته بحرارة وعايشته ما بقي من أشهر تلك السنة •

أما في السنة الثانية بالمدرسة الثانوية وهي السنة الأخيرة بهذه المدرسة فقد كنت أفضل حظاً ، فقد استحدثت وزارة المعارف قسماً داخلياً لطلاب الثانوية الغرباء ، وهي دار كبيرة تقع خلف دائرة الاطفاء الملاصقة لبناية (أمانة العاصمة) وهما معاً تقابلان باب (القشلة) الشرقي ، وتتوسط هذه الدار حديقة صغيرة تنبت في وسطها شجرة دفلى قليلة الاوراق غارقة في العمر ، إلا انها غنية بالخضرة والزهور الحمراء الزاهية ، كما كان الطعام الذي يقدم في القسم متنوعاً وطيب المذاق •

وكان على تلامذة القسم أن يذهبوا بعد تناول العشاء الى إحدى قاعات المدرسة الثانوية لمراجعة دروسهم النهارية تحت اشراف معلم من غير معلمي هذه المدرسة ، وكان واحد من هؤلاء المشرفين شاباً طويل القامة ، أشقر

الشعر ، أنيق الملبس اسمه (أكرم القيماقچي) وسوف أعود الى الكلام عن هذه الشخصية في ما يأتي عندما أتكلم عن أيامي في كلية الطب ببغداد • أما مدير القسم الداخلي فهو عسكري متقاعد من أهل الكرخ ببغداد اسمه (حسين عوني) ، داكن البشرة صغير العينين ، مشدود الجسم ، وذو ملامح نشطة في عينيه وحركاته • ويوما طلبني الى غرفته وسألني :

— أنت من سامراء ؟

— نعم من سامراء •

— إبن توفيق ؟

— نعم ابن توفيق •

— توفيق أبو مجيد وحميد ؟

— نعم أبي توفيق أبو مجيد وحميد •

— أنا أعرف أهلك واحداً واحداً ، وأعرف أخاك الصغير رشيد ، وأكلت في بيتكم ، (سلِّم)لي عليهم •

وذات يوم بينما كنت أدخل مجاز (دار القسم) عائداً من المدرسة لتناول طعام الغداء لمحت المدير حسين أفندي يمسك بضغط على عضدي رجل ويسحبه الى صدره ثم يدفعه عنه بغضب مفتعل وهو يقول له :

— انت يا رجل كيف تدخل (القسم) بلا إذن مني ؟

وكان حسين أفندي في هذه اللحظات قبالتي وأنا أخطو الى فناء القسم، أما ذلك الرجل الذي يمسك بعضديه فلم أرَ وجهه إذ كان يقابل وجه حسين أفندي ، غير أنني سرعان ما عرفته بسهولة من قامته وقفاه وعقاله الوبري الضخم • فتقدمت من حسين أفندي لأقول له ان هذا الرجل أبي • غير أن حسين أفندي دفعني عنهما بيده وهو يقول لي بامتعاض :

— انت يا كمال (ما عليك) في ما بيننا ، واتركني مع هذا (الشايب) •

ورأيت الموقف على قصره قد تأزّم فقلت له مرة أخرى :

ـ إنه أبي يا سيدي •

فأجابني :

ـ نعم أعرف أنه أبوك •

ولم يتم هذه العبارة إلا واحتضن أبي بلهفة وأخذ يقبله بحرارة ، ويسحبه بكلتي يديه ويضمه الى صدره ويقبل لحيته ، ثم سحبه الى داخل غرفته الخاصة وبقيا فيها أكثر من ساعة خرجا بعد ذلك يتضاحكان وكانهما كانا يستمتعان بمشهد هزلي ، وناداني حسين افندي وقال لي وهو لا يزال يضحك :

ـ تستطيع يا كمال أن تذهب مع أبيك الآن •

وبعد أن غادرنا القسم قال لي أبي ونحن نخطو نحو شارع المتنبي :

ـ لم أعرف هذا الرجل ، وقد سرد لي في غرفته أحداثاً في سامراء وفي بيتنا بالذات كنت قد نسيتها تماماً ولكنها كانت قد وقعت فعلاً على ما أذكر •

وسألت أبي :

ـ هل كان في بيتنا حقاً يا أبي ؟

فأجابني :

ـ عاش ضيفاً علينا في غرفة (الطاق) هو وخيري أفندي الشيخ قادر إثر انسحاب الجيوش التركية عبر سامراء •

وفجأة وقف أبي في مكانه وسألني :

ـ ما اسمه ؟

ـ حسين عوني

ـ نعم انه هو والأحداث التي ذكرها لي كلها صحيحة •

المدرسون في الاعدادية المركزية

وهم خليط من العراقيين والسوريين وانكليزي واحد ، وأبرزهم جميعاً في نظري ، هو معلم اللغة العربية محمد بهجة الأثري • وهو طويل القامة بشكل ملحوظ ، وعلى راسه عمة بطربوش احمر ، ويرتدي قفطاناً يزيد في اناقة طوله • وكنت اتلذذ بدرسه فاستمع إليه بجدل وهو يردد الأبيات الشعرية وينطق كلماتها بتركيز على بعض الحروف التي ترد فيها •

ومعلم التاريخ الاسلامي درويش المقدادي ، من اهل فلسطين ، وهو مديد القامة بستانة ، أحنف القدمين ، وردي البشرة ، نافذ النظرات من وراء عوينات باطار معدني دقيق لماع بلون الذهب • وكان من عادته أن يحاضر بلهجة خطابية وخصوصا حين يصف شخصية اسلامية بارزة • وأذكر يوماً كان يتكلم فيه عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويصفه حين يطوف بين الناس وبيده (الدرّة) ينقر بها اكتاف من يعيقون مسير السابلة• وخلته ذلك اليوم وأنا في غمرة الانصات إليه انه عمر بن الخطاب بنفسه ، فكدت أرتعد لمظهره ومسمعه خوفاً ورهبة ، ومع ذلك كنت أرى أن شيئاً ما ينقصه ليكون (ابا الخطاب) كما يتخيل لي • ويوماً بعد سنين كنت أتصفح (كتاب المنمّق) أو المحبر لمحمد البغدادي وفيه وصف لأبن الخطاب يقول فيه (••• وفي عينه اليسرى حول يسير) وكدت أصرخ حين قرأت هذه العبارة قائلاً : نعم ان هذا ما كان ينقص المقدادي ليكون مثيلاً لأبن الخطاب • والحول بأية درجة من درجاته يزيد من هيبة صاحبه عند الناس فيبدو جباراً مخيفاً ، ويتجنبون غضبه •

أما (مستر براير) مدرس اللغة الانكليزية ، فكان مثالاً للشاب الانكليزي الأنيق الرشيق بشعر رأسه الذي يصففه باعتناء واهتمام ، وأبرز ما في وجهه أنفه المدبب الذي يبدو مبتلاً حتى في أيام الصيف ، فكان يحشو ما بين كفه الأيسر وكم سترته منديلاً أبيض يأخذه بتكرار بيده

اليمنى ليجفف ما ينحدر من أنفه الرطب • وفي يوم نهض أحد طلبة الصف وهو يهودي اسمه (إسحق ختينا) ، وتقدم من المستر برايز وقدم له وردتين واحدة بيضاء وأخرى حمراء ، فأثار ذلك استغرابنا حتى انجلى الدافع الى ذلك حين قال له برايز : أشكرك يا صديقي ، وأضاف : انا أرجو من طلاب الصف عموماً أن يسمحوا لي ان اعد هاتين الوردتين منهم جميعـا لا من الطالب إسحق ختينا وحده • وأضاف أيضاً : وسوف انقل الى عروسـتي حبكم لي أيها الأصدقاء ، وحين ذاك عرفنا ان معلمنا مستر برايز قد تزوج، وبعد انتهاء ساعة الدرس سألنا إسحق ختينا عمن تكون زوجته؟ فأجابنـا قائلاً : انها واحدة من أقاربي ، وحينئذ فقط وليس قبل ذلك علمنـا أن معلمنا مستر برايز يهودي على أكثر الأحتمال •

أما معلم الأنكليزية الثاني فاسمه (أدور سيزار) وهو عراقي ، يبدو بسبب ضخامة بدنه وشيب رأسه أكبر عمراً من سنه ، وكان يقلّد بكلامـه نطق مستر برايز ، ومن يستمع لكلامه بدقة لا يخطىء معرفته لهذا التقليد ، فضلاً عـن ذلك فان ثقافته كانت بوضوح أقل من ثقـافة مستر برايـز • وأذكر مرة قال عن الـ Testicle (الخصية) أنها (الكلية) باللغة العربية، فقاطعه الطالب (خالد حمام) قائلاً : أستاذ هاي شلون دبرتها ؟ فاعتقـد أدور سيزر ان هذه العبارة من خالد حمام مديحاً وتثميناً لترجمـة كلمـة الخصية الى كلية ، فقال أدور سيزار بما يشبه التفاخر : نعم ليس كل واحد يعرف أن Testicle (الخصية) هي الكلية ! وهكذا كان الخلط عند هذا المدرس المتعالم بين الكلية والخصية •

ومن مدرسي اللغة العربية عزالدين علم‌الدين التنوخي ، وهو من أهل سوريا ، قصير القامة ممتلىء الجسم ، صبيح الوجه • وقد ترجم الى العربية كتاباً في الفيزياء عن الفرنسية ، وفي مقدمته يمتدح الأستاذ ساطع الحصري لفضله الكبير عليه وعلى تربية أولاد العرب على دعم القومية العربية • كما

ترجم عن الفرنسية كتاب (قلب الطفل) ، وهو دائم القراءة في فصول هذا الكتاب وعدّه كتاباً مدرسياً لطلبة الصف الاول (الثالث) في الثانوية المركزية، وكان يقرأ فيه بتواصل وهو يتقمص شخصية الطفل ويقلّد صوته، وحركاته.

وفي يوم ١٩٢٩/١١/١٣ ذاع خبر انتحار رئيس الوزراء عبدالمحسن السعدون فتطرق التنوخي دون داعٍ أو مناسبة الى أسباب انتحاره ، وذكر بسماجة هذا الحادث الأليم وهو يشير بغمز ولمز الى ان (انتحاره كان لأسباب شخصية أو بيتية ، لا وطنية كما ورد في وصية السعدون لابنه علي) ، وانه على حد قول التنوخي كان مثقلاً بالديون بسبب لعب القمار، فأغاض هذا التلسيح طلاب الصف وارتفعت أصواتهم احتجاجاً واستنكاراً ، وسرعان ما تراجع التنوخي عن إدعائه مستدركاً : ان ذلك ما تقوله العامة، أما أنا فأعد شائعاتهم بهتاناً مردوداً، غير أن محاولة التنوخي لاصلاح ما قاله بلسانه باءت بالفشل ، ومع ذلك كان سكوت الطلاب وعدم متابعتهم لقلة أدبه نعمة كبيرة له ابتسم لها بترحيب ورضا .

وأذكر جيداً معلم الرياضيات علي مظلوم لما في هيئته ومحاضراته من سمات متميزة ، لا تهمل العين النظر اليها والتركيز عليها احتراماً أو استغراباً. فلم يكن هذا المعلم يهتم بهندامه ، وكان يهمل حلق ذقنه إلا إذا طالت كثيراً، كما كان يهمل ما يعلق بحذائه من تراب أو وحل في الأيام الممطرة ، وهو ينقل إذا مشى جميع جسمه من جانب الى جانب بتمايل ظاهر ، وله كتاب في المعادلات الحسابية نقله الى اللغة العربية ، وفي بداية كل موضوع يكتب عبارة (مسألة) ، ثم يلي هذه الكلمة باشارة (يساوي) ويكتب بعدها كلمة (قضيّة) ، واذا تكلم في حل أي (مسألة) على السبورة لا ينسى أن يردد هذا المترادف كما هو مكتوب في كتابه .

أما المعلم صدّيق الخوجة (مدرس التاريخ الأوروبي) فكان وديعاً هادئاً ليس له علامة مميزة بارزة لو رُسم له كاريكاتور .

وأذكر مدرس علم الأحياء (شيت نعمان) بشكل خاص من الامتنان ، فقد كانت له يد عليا في مصيري الى مهنة الطب ، جزاه الله خيراً . فقد دخل الصف ذات صباح معاون مدير المدرسة (نوري ثابت) صاحب جريدة (حبزبوز) بعد ذلك ، واستأذن من المعلم شيت نعمان في أن يكلم طلاب الصف ، قائلاً ان الحكومة قررت إيفاد ثلاثة طلاب من متخرجي المدرسة الثانوية الى (بومبى) في الهند لدراسة مهنة البيطرة ، وانه يريد أن يسجل أسماء الراغبين في هذه البعثة ، ورفعت يدي مع من رفع يده دون تفكير وتبصر ، وأظن ان ذلك كان بتأثير الرغبة في السفر الى خارج القطر ، أكثر من رغبتي في الانتماء الى هذه المهنة . ولما انتهت حصة الدرس وغادر الطلاب القاعة ، وجدت المعلم شيت نعمان واقفاً ينتظرني على بابها، فانتحى بي جانباً وسألني دون مقدمات عما دفعني الى هذه البعثة ، فسكت ولم أجبه. ثم سألني عن حالة أهلي المالية ولم أجبه عن ذلك أيضاً ، ويومها لم أكن أحمل لقب (السامرائي) فسألني عن مسقط رأسي فأجبته :

ــ إني من أهل سامراء .

ــ هل أهلك ضعفاء الحال ؟

فأجبته :

ــ كلا ، يا سيدي .

فقال لي :

ــ إذن لماذا تطلب هذه البعثة التي لا أرى فيها ما يغري نوعاً أو مردوداً وأضاف : اذهب الآن الى نوري ثابت ليرفع اسمك من القائمة التي ترشحها المدرسة الى هذه البعثة . وفكرت وأنا في طريقي الى حانوت المدرسة ، كما يفعل الطلاب بين درس ودرس ، أي أمر دفع المعلم شيت نعمان أن ينصحني بسحب طلبي الى البعثة ؟ ولماذا لم ينصح غيري ممن تقدم إليها ؟ وأنا فعلاً كنت أميل الى متابعة دروسه ، ودرجاتي في الامتحانات الفصلية بها كانت

جيدة ، غير ان بعضاً من أترابي في الصف كانوا مثلي أو أفضل مني • ولم يطل تفكيري بهذه الأمور ، فذهبت أخيراً الى معاون المدير نوري ثابت وطلبت منه شطب اسمي من البعثة الى بومبي • وذهبت مباشرة الى حانوت المدرسة لأكمل فرحي بتناول الشاي • وفي طريقي إليه سمعت استغاثة من أحد طلاب المدرسة ، وحين وصلت الى تجمع الطلبة حول مصدر الصخب والاستغاثة عرفت أن أحد الطلاب اليهود واسمه ادوارد محلبه لسبب ما رفع كفه ولطم وجه الطالب عبدالكريم قاسم ، ولم يرد هذا الطالب الصفعة بمثلها لمخاصمه اليهودي بل صار يصيح بأعلى صوته « يا ناس ترضون يهودي يضرب مسلم ــ الله أكبر » وأسرع الطلبة لمصالحة الطرفين المتخاصمين ، وانتهى ما حدث بتلاقيهما بالابتسام والقبلات •

أما معلم الكيمياء فاسمه تحسين إبراهيم ، وهو من أهل الموصل ، مربوع الجسم ، أقرب الى القصر ، ضاحك السن • ويوماً قرأنا على لوحة الاعلانات الخضراء أمراً من مديرية المدرسة موجهاً الى طلبة الصف الرابع العلمي ، وأنا منهم ، أن نشتري كتاب PRATICAL CHEMISTERY المتوفر في مكتبة (مكنزي) بشارع الرشيد ، وان دروس الكيمياء ستكون على هذا الكتاب • فثار طلاب الفرع العلمي على مضمون هذا الاعلان ، وتمردوا على أمر الادارة ، وامتنعوا عن دخول قاعات الدروس • فرفع مدير المدرسة (سعيد فهيم) خبر ما حدث الى وزارة المعارف ، فأوفدت الوزارة سكرتير الوزير (طالب مشتاق) ليطلع على جلية الخبر ، ويقنع الطلاب بالعدول عن قرارهم • فأعلنت ادارة المدرسة ان يجتمع عموم الطلاب في قاعة الاجتماعات العامة ، وكان أول الداخلين إليها سكرتير الوزارة نفسه ثم تلاه الطلاب فرادى وجماعات ، بتردد ولكن دون إحجام • وبقى سكرتير الوزارة جالساً على كرسيه وراء منضدة الخطابة ، فلما اكتمل دخول الطلبة أو أكثرهم ، قام عن كرسيه وبادر الطلبة قائلاً :

ـ الاضراب لأي سبب حق مشروع ، ولكنه من غير المنطق أن يكون ذلك على حساب التعلم . ثم قال : أريد أن أعرف سبب رفضكم دراسة مواضيع الكيمياء باللغة الانكليزية ، هذا ما جئت لأعرفه منكم مباشرة ؟

وتعالت أصوات الطلبة دفعة واحدة ، فأسكتهم السكرتير برجاء وهو يقول لهم :

ـ يرفع يده من يطلب الكلام مع ذكر اسمه كاملاً .

نهض أحد الطلاب قائلاً :

ـ ان اللغة الانكليزية صعب تعلمها ، أقصد ان تفهم المادة العلمية بهذا الموضوع صعب علينا .

وتكلم طالب آخر فاذا هو يكرر ما قاله الطالب الذي تقدمه ، وتكلم آخر ولم يأت بجديد عما قاله من سبقه . وتكلم السكرتير الذكي الذي بدا الآن بقيافته ووسامته متحفزاً للرد عليهم بما لديه من حجج لا تنقض. وسأل بما يشبه السخرية :

ـ إذن هذا هو سبب اضرابكم عن دخول قاعات درس الكيمياء يا أولادي؟

وارتفعت أصوات الطلبة دفعة واحدة :

ـ نعم هذا هو السبب !

وصمت السكرتير مكتفياً بالنظر الى الطلبة ، وهو يدير رأسه الى كل جوانب القاعة ، ثم قال بحسرة وبلهجة شعبية :

ـ يا حيف ووسفة عليكم يا شباب ، كنت أتوقع أن تقولوا انكم ترفضون دراسة الكيمياء باللغة الانكليزية أو أية لغة أخرى غير العربية ، لحبكم واعتزازكم بالعربية لا لتخوفكم من اللغة الانكليزية . نعم ، حيف على الشباب أن يهاب من الصعوبات أو يتجنبها.واسترسل يخطب بحماسة:

ـ أنا أتمنى لو تكون لغة (مكرم عبيد) بالانكليزية لأسافر الى لندن وأخطب الناس في (هايد بارك) لأفهم الانكليز عما يصيب الأمة العربية من تعسف الغرب على الشرق ، وعلى العرب بشكل خاص ،

وأفهمهم أيضاً ان العرب لهم فضل كبير على الغرب بما قدموه لهم من أفكار وعلوم ... عيب على الشباب أن ينهزم وبصورة خاصة إذا كان هذا التحـدي في ميدان العـلم ... إنه ليؤلمني أن أراكم بموقـف لا تحسدون عليه . ولا يدعوني الى الفخر بكم إلا دخولكم الصفوف الآن ، نعم الآن وليس بعد هذه الدقائق .

وغادر السكرتير القاعة الى غرفة مدير المدرسة مخلفاً وراءه وجوهاً من الطلبة واجمة في انتظار من يكون الأول منهم في كسر هذا الجمـود في التحرك الى قاعات الدروس ، بينما كان السـكرتير ينتظر في غرفة مـدير المدرسة بلا صبر استجابة الطلبة الى الدخول الى صفوفهم ، وصار يتلصص النظر الى جموعهم من خلال فتحة شقي ستارة الغرفة وهم يغادرون القاعـة وكأنهم رافعين أيديهم بالاستسـلام ، وعلى وجوههـم علامات الخضـوع والامتثال ليدخلوا الصف حيث كان ينتظرهـم فيه معلم الكيمياء تحسـين إبراهيـم .

طرد الطالب صديق شنشل من المدرسة

وكانت ادارة المدرسة الثانوية تشجع طلبة المدرسة أن يتكلموا بقاعـة الخطابة بحضور الكادر التعليمي وطلبة المدرسة في موضـوع مدرسـي أو اجتماعي . ومرة صعد الى منصة الخطابة أحد طلاب الصف الرابـع واسمه (صديق شنشل) وابتدأ يتكلم دون مقدمات في نقد تصرفات المعلمـين ، وكأنه خشي أن لا يرضى المعلمون عما يقوله فيوقفونه قبل أن يأتي الى لباب ما هو وراءه من خطبته . وقال فيما قاله : ان المعلم لا يدخل قاعـة الدرس إلا بعد أن يأتي على آخر نفس من سيكارته ولو استغرق ذلك من الوقت ما يستغرق ، وانهم متكبرون بتعالٍ وعجرفة مع الطلاب ... فاعتبرت ادارة المدرسة ان كلام صديق شنشـل خروج على التقاليـد المدرسـية واحترام المدرسين ، وقررت طرده ثلاثة أيام من المدرسة . ولما رفع هذا القرار على

لوحة الاعلانات أضرب الطلاب عن دخول المدرسة معلنين ان عدم دخولهم المدرسة احتجاج على قرار المدرسة بطرد صديق شنشل ولم يعودوا إلا بعد ثلاثة أيام ، وهي المدة التي وردت في قرار مديرية المدرسة بطرد صديق شنشل .

الاصابة بحمى / ١٩٣١

أصبت بحمى ، فأرشدني أحد أصدقائي في المدرسة الى طبيب عيادته تقابل مدخل جسر فيصل من جانب الرصافة اسمه (جورج حيقاري) واستقبلني هذا الطبيب وهو يقوم عن كرسيه ، فاذا هو أقرب الى القصر ، وردي البشرة ، وسألني عن اسمي وعمري وعملي ومسكني وما أشكو منه، ثم طلب مني أن أضطجع على طاولة طويلة ، وأكشف له عن بطني ، ثم تناول ملعقة كانت في إناء على منضدته ، وأدخل مقبضها في فمي ، وطلب مني أن أقول (آ) لينظر الى داخله . ثم دفع محراراً تحت لساني ، وأخرجه بعد نحو دقيقة ، وقال لي : انها (البلاعيم) وتحتاج الى (ابرة) ، وبدأ يستحضر الابرة على طاولة صغيرة مركونة في إحدى زوايا عيادته ، وكنت أخاف وخز الابرة الى درجة كبيرة منذ عالجني بها مضمد مستوصف المحمودية حين أصابتني حمى الملاريا في الحلة ، غير أني لم أجد حيلة إلا ان أخضع لطلبه ، فكشفت عن إليتي فكانت اثر ذلك وخزة مؤلمة ، ثم امتلاء في عمق لحمها ، ونهضت لأستر ما انكشف من جسمي ، وشددت حزام سروالي بينما كان الدكتور يعود الى منضدته ليكتب عليها دواء لي ، وأنا استمع الى ارشاداته :

— أكل خفيف ، سوائل كثيرة (وأشار الى الورقة التي كتبها على منضدته) وقال : ثلاثة فناجين يومياً من هذا الدواء ، وتزورني بعد يومين .

ولما رأيته قد انتهى من نصائحه ، دسست يدي في جيب سروالي وأنا أسأله :

— كم تأمر يا دكتور ؟

فأجابني :

ــ أنت تلميذ فادفع ما تستطيع دفعه .

فقلت له :

ــ لا أعرف أجرة أتعابك .

فعاد يقول :

ــ نصف أجرة .

ــ كم هي الأجرة ؟

ــ مكتوبة عند مدخل العيادة .

وكنت قد قرأتها قبل أن أدخل عيادته ، فوضعت روبية على حافة منضدته ، وشكرته وغادرت عيادته .

كان هذا الدكتور لطيفاً معي ، وقد حاول أن يواصل التحدث إليّ غير أني كنت متعباً بسبب الحمى فضلاً عن أنني كنت في مثل هذه المقابلات التي يبرز فيها فارق العمر والثقافة عيّياً ، وأفضل فيها السكوت على الاجابات العشوائية ، فتجاهلت محاولته لاثارتي للتحدث معه ، وفضلت مغادرة عيادته لأصل الى مخدعي في القسم الداخلي واندس في فراشي ، وصرت أفكر وأنا في طريقي فيما اذا كانت زيارتي الثانية لهذا الطبيب بعد يومين كما طلب مني ، ضرورية أم غير ضرورية ، لأن الروبية الواحدة كانت تكفي لسد حاجياتي يوماً كاملاً ، وكان يصلني من أهلي ثلاثون روبية شهرياً ، وأنا مدين لصديقي محمد صالح محمود بثلاث روبيات ، فاذا لم تخف الحمى في اليومين التالين فلا بد أن أدفع للطبيب روبية أخرى . ولم أذهب في اليوم الثاني الى المدرسة فقد استمرت الحمى حتى اليوم الثالث ، فأخطر مدير القسم الداخلي السيد حسين عوني رئاسة صحة المعارف،فجاءني إثر ذلك أحد أطبائها واسمه (صبيح الوهبي) ، وكان اليوم بارداً فدخل الغرفة التي أنام فيها وقد ازدحمت فيها ثلاثة أسرة لآخرين من زملائي في

المدرسة • وكان الدكتور صبيح يرتدي معطفاً سميكاً ويلف حول رقبتـه شالاً يتناسق بألوانـه مع معطفـه الجميل ، وفحصني واقفاً وأنا أجلس في سريري فلم يكن في هذه الغرفة ثمة مجال لكرسي يجلس عليه ، وأيـد بعد الفحص انها (البلاعيم) سبب الحمى ، وسألته :

ــ أترك دواء الدكتور حيقاري ؟

فأجابني باقتضاب :

ــ لا فائدة منه •

وزودني بوصفة طبية ضمنها بعض الحبوب ، وسـائل أتغرغـر به ، وغادر الغرفة •

قال أحد زملائي في الغرفة :

ــ ان معطفه جميل •

وقال آخر :

ــ موجود منه في اورزدي باك •

وقال آخر :

ــ أبداً ، هذا من خارج العراق •

وقال آخر :

ــ هل هو متخرج في كليات انكلترا ؟

ــ أنا أعرفه ، وأعرف أهله ، وهو متخرج في كلية الطب ببيروت •

وانفرج المجال لنتحدث عن الطب والأطباء ، ونحن نضعهم في إطـار قدسي ، ونصف أعمالهم بالمعجـزات ، وتتمنى أن نكون من هذه الفئـة ، فتمنيناها في سرنا ولم نبح بها آنياً ، وكل شيء في أوانه •

وعدت في اليوم التالي أداوم في المدرسة •

امتحانات السنة الاخيرة في الثانوية الاعدادية/ ١٩٣١

أقيمت الامتحانات النهائية في الأيـام ١٥ــ١٧ من شهر حزيران سـنة

١٩٣١ في الباحة التي بين الذراعين الخلفيين للمدرسة • وقد غطيت هذه الباحة بقماش سميك ليقي الطلاب من الشمس أثناء أدائهم الامتحانات على أرضها المرصوفة بالطابوق الفرشي• وعلى أرض هذه الباحة نثرت كراسي من الأنواع المدرسية التي يستطيع من يجلس عليها من الطلاب أن يكتب على لوح متصل بذراعها الأيمن• ويطوف بين الكراسي فراشان يحملان جرار الماء المبرد بقطع من الثلج للطلاب الذين تلتهب أفئدتهم بحرارة الامتحان • كما يطوف بين الطلاب فراش آخر يحمل كأساً مليئاً بالحبر ليأخذ منه الطلبة بأقلامهم إذا نضب ما في داخلها من الحبر • وكان يراقب القاعة شخصان أحدهما ممتلىء الجسم صبيح الوجه بشارب أسود الشعر اسمه (هاشم الآلوسي) ، والآخر مثيل له في السحنة والسمنة ، وردي البشرة باحتقان ، وحليق الشارب اسمه (سمرفيل) ، ولم أكن قد رأيت أياً منهما قبلاً • وفي يوم امتحان اللغة العربية كان السؤال هو أن تنشىء بما لا يقل عن صفحة واحدة مغزى المقولة (أن تنظر الى السماء وتعثر خير من أن تنظر الى الأرض ولا تعثر) فرفع أكثر الطلاب احتجاجهم على هذا السؤال الغامض ، وطلبوا التوضيح عنه ، وعارض هاشم الالوسي طلبهم علناً ، ولما أصر الطلبة على الاحتجاج ، تقدم سمرفيل من الالوسي ، وتكلما فيما بينهما قليلاً ثم افترقا، فتولى سمرفيل شرح المقولة بلغة عربية فصيحة بلهجة لبنانية ، وعرفنا بعد انتهاء ساعة الامتحان ان سمرفيل ليس عربياً بل انكليزي وله منصب عالي الرتبة في وزارة المعارف ، وأشار بما يكفي الى ما تعنيه هذه المقولة فعرف الطلبة ما يجب أن يكتبوا بما في المقولة من معنى • وأعتقد أنني كتبت ذلك باجادة ، غير أن درجتي في هذا الموضوع كانت غير ما توقعت ، بينما جاءت درجتي في موضوع الرياضيات عالية جداً على عكس ما كنت أتوقعه، ومثل ذلك في موضوعي الفيزياء والكيمياء •• وكانت حصيلة درجاتي في جميع المواضيع (الخامسة) في تسلسل الناجحين البالغ عددهم مائة وثلاثة وأربعين طالباً ، وهي نتيجة لم أكن أتوقعها قط •

بعثة الى انكلترا لدراسة هندسة النفط

لم أكن المعيا بين اترابي في المدرسة الاعدادية ، وبخاصة في الفعاليات اللاصفية ، غير أنني منذ صغري كنت أحب الكتاب وأكلف بقراءته ، وأتهيأ لدخول الامتحانات بكل طاقاتي ، وهكذا دخلت الامتحان النهائي في المدرسة الثانوية الاعدادية ، فكانت درجاتي عالية ، لو خطرت ببالي يوما لاستبعدتها كليا • وحين نقلتها الى أبي كان فرحه بها بصست ، وربما لم يكن يقدّر أهمية هذه النتيجة بالنسبة لي • اما امي فقد اوقدت لنجاحي دون أن تلتفت الى درجتي العالية أربع شمعات في مدخل السرداب الذي يتعبد فيه (الملك الصالح) • وبعد ايام قلائل وصلتني رسالة من كاتب المدرسة مصطفى الكبيسي مفادها أنني رشحت مع الأربعة الأوائل في الامتحانات النهائية لدراسة هندسة النفط في برمنكهام بانكلترا ، فطرت في الخيال فرحاً بهذا الخبر ، بالرغم من أنني لم أفهم نطاق هذا الاختصاص ، كفاني كونه في الهندسة التي كنت أميل إليها منذ صغري • فحملت الرسالة الى أبي ، فقرأها مرة ، ومرة أخرى ، وأنا أتطلع الى وجهه علني أستشف منه رأيه في هذا الأمر قبل ان أسمع منه ، فسبقته وشرحت له موضوع الدراسة في هذه البعثة • وكانت معلوماتي عنها مرتجلة وشحيحة ، وأنا أقصد بها أن تكون مرضية لأبي ، غير أنه سألني بعد أن أتمّ قراءة الرسالة للمرة الثالثة:

— أين تكون برمنكهام ؟

فأجبته :

— في انكلترا

ثم سألني :

— وكم تبعد انكلترا عن استانبول ؟

وكانت استانبول في جغرافية أبي وأصحابه بسامراء آخر حدود الدنيا•

ثم سألني :

— كم تطول هذه الدراسة ؟

وما كنت أعرف ذلك فأجبته مرتجلاً برقم صغير لأحصل على موافقته:

— ثلاث سنوات •

فعاد يسألني للتأكد مما سمعه مني ، وفي ذلك ما يعني عدم الرضا على سفري :

— تبقى ثلاث سنوات هناك ؟

وأدركت مضمون سؤاله فلذت بالسكوت •

وعاد أبي يسألني :

— أليس في بغداد كليات ؟

فأجبته :

— بلى ، ولكنني أحب دراسة الهندسة •

وفعلاً كنت أحب دراسة هذا الاختصاص ، فقد فتحت عيني على آثار سامراء العباسية وأُعجبت بهندستها وجمال عقودها ، وسموق مئذنتها الملوية • كما شاهدت باعجاب خرائب بابل ومقاومتها الدهر على البقاء قرابة أربعة آلاف سنة ، على أني صرت بعد أن حصلت على البعثة الى انكلترا أحلم أن أرى تلك الديار البعيدة حتى لو كانت دراستي فيها في غير موضوع الهندسة • وقال أبي :

— في بغداد كلية هندسة ، أليس كذلك ؟

فأجبته ، وأنا لا أعرف إن كان في بغداد كلية هندسة :

— لو كانت كلية الهندسة التي في بغداد تضارع كلية الهندسة في برمنكهام لما استحدثت الحكومة العراقية هذه البعثة •

فقال أبي :

— ادخل كلية أخرى ببغداد غير كلية الهندسة ، كلية الحقوق مثلا •

— أنا لا أحب موضوع هذه الكلية •

فاستدرك أبي وسألني :

ــ كلية الطب

وما كنت أعلم أن في بغداد كلية لتعليم الطب ، واستغربت أن يكون لأبي علم بها ، وهو الرجل الذي لا يتسقط إلا أخبار الزراعة والتجارة ، فأجبت أبي بدلال وتوسل :

ــ أنا أحب الهندسة يا أبي •

ولم أقل له أني لا أحب الطب ، مع انني يومها لم أكن أميل الى تعلمه، بل كنت أخاف التعامل مع الحالات المرضية منذ رأيت جمجمة القتيل المهشمة الملقاة على قارعة طريقي الى المدرسة المتوسطة في الحلة ، ومنذ رأيت المرأة السوداء تفرم بالسكين (أعضاء) زوجها المنكود • لم أذكر ذلك لأبي ، إلا أنها دوماً في أعماق نفسي تبعد تفكيري أن أكون يوماً ما من زمرة الأطباء فعزمت على أن اجثو على قدمي أبي ليوافق على التحاقي بالبعثة الى انكلترا•

وانتبهت الى أبي يقول لي برقة قريبة من التوسل :

ــ الصحيح يا ولدي ، انني قاربت التسعين من عمري ، وانكلترا بعيدة عن العراق ، وأخشى إن سافرت إليها فلا أراك بعد ذلك ، وهذه هي الحقيقة التي تدفعني الى أن أعارض سفرك الى خارج العراق • ثم قال : لا أظنني طلبت منك كثيراً يا ولدي ، إلا أن ما أردته فيه هنائي• والطب على ما أعتقد أفضل من الهندسة ، وبغداد ليست بعيدة عنا ، فنراك في أيام العطل والأعياد ••• أريدك يا كمال أن تكون قريباً مني في أواخر أيامي •

لم أرَ أبي بمثل هذا التخاذل قبلاً • وكان باستطاعته أن يسمعني قراره ويكتفي ، فأفعل ما يطلبه مني بالتأكيد ، إلا انه لم يفعل ذلك ، فكان هذا سلاحه الأبوي عليّ فنسيت ما كنت أرغب فيه وقلت له على الفور وبرضا :

ــ كما تريد يا أبي ، وسافرت الى بغداد للدخول الى كلية الطب •

القسم الرابع

الدخول الى كلية الطب ببغداد ــ ١٩٢٢

وسافرت في اليوم التالي الى بغداد ، واستعلمت عن مكان كليـة الطب فيها ، ثم استعلمت من اترابي الذين رأيتهم على مدخل الثانوية المركزية عما احتاج الى تقديمه الى ادارة الكلية من شـهادات ووثائـق ، فاستحضرتهـا بسهولة من دائرة النفوس والجنسية والجنايات • وأخذت طريقي بعد ذلك الى الكلية الطبية وأنا أسلك الشارع المحاذي لوزارة الدفاع من جانبهـا الشمالي • وكان على يسار هذا الشارع تلول متقاربة من الأتربة والنفايات تمتد حتى نهايته بشاطىء نهر دجلة ، كما قاطعني في هذا الشارع عـدد من الجواميس تخرج عن خط بنات جنسها الذي اتخذته الى نهر دجلة لترد منه وتستحم في مائه • وبقيت أرى هذه الأسراب من هذه الجواميس المخيفـة حتى بعد تخرجي من الكلية بسنوات •

أما الجانب الشمالي من الشارع فيحدّه جدار ضخم وعالٍ لا ينفـذ منه إلا بضع فتحات صغيرة تشبه فتحات القلاع التي تستعمل للدفاع ضد الغزاة الذين يريدون الاعتداء على من فيها ، وهذا الشارع هو طريـق من يراجع المستشفى الملكي من المرضى ، كما هو طريق الجواميس التي يقودها أصحابها من محلة الطوب الى نهر دجلة فاذا وصلته غطست فيه فلا يستبان منها إلا رؤوسها وقرونها الضخمة المخيفة •

وفي منتصف هذا الطريق يلتوي مسيره نحو اليمين حتى يصـل مبنى كلية الطب • وعلى مدخل هذا الطريق من اليسار عمارة غير كبيرة شـاهدت

حول بابها جمع من النسوة يلبسن السـواد ويولولن ويلطمن صدورهـن ويخدشن خدودهن بشكل هستيري • وعرفت فيما بعد ان هذا المبنـى هو الدائرة التي تحفظ فيها جثث من يتوفى في ردهات المستشفى ، ومن تأتي به دوائر الشرطة من حوادث القتول ، فيأتي أهل المتوفى ليتسلموه من هـذه الدائرة • وكان هـذا أول مشـهد لم أرتـح إليه في باكورة مشروعـي للالتحاق بكلية الطب وانا في طريقي إليها • وعلى بعد أمتار من هذه الدائرة الى اليمين شاهدت حلقة من الرجال بمختلف الأعمار ، وبلباس خشن بلون سنجابي غامق ، وهم يتناقلون فيما بينهم كرة صغيرة ، وفي وسط هذه الحلقة رجل ضخم الجثة كث الشارب طولاً وعرضاً ، وبيده عصا طويلة ، فاذا تلكأ أحد رجال الحلقة في نقل الكرة الى جـاره الذي يليه ضرب ذلك الرجـل الضخم الأرض بعصاه الطويلة وهو يزعق قائلاً :

ـ انتبه يا رجل واعط الكرة الى جارك ، لا تتأخر •

وقد وقف عدد من السابلة في هذا الطريـق يراقبون مثلما أرقب هـذا المشهد الغريب • وعرفت بعد ذلك ان اسم الرجل ذو الشارب الكث(سيروب) كما عرفت بعد سنوات عدة وطويلة في دراسة التراث اليوناني أن(لجالينوس) الذي توفي قبل الاسلام بما يقرب من أربعة قرون كتابا باسم (الكرةالصغيرة) وضعه لمعالجة من في عقولهم لوثة ، وقد تكون الكرة التي رأيتها اليوم تقليدا لكرة جالينوس في معالجة بعض الأمراض العقلية • ورفعت رأسـي فقرأت لافتة على باب صغيرة مكتوب عليها عبارة (دار الشفاء) فعرفت حينئذ أن الفرقة التي كان يقودها ذو الشارب الكثيف هم من المجانين ، وان دار الشفاء هو مكان معالجتهم من هذا المرض •

وتابعت مسيرتي الى بناية كلية الطب بين صفين كثيفين من أشـجار الدفلى حتى انفرج الطريق الى ساحة وسيعة ظهرت لي عبرها بنايـة الكليـة يتصدرها باب فوق نهاية خمس درجات وطيئة ، ويرتفع على جانبيها عمودان

رشيقان من الصلب المزخرف ينتهيان بمصباحين كرويين من الزجاج الحليبي اللون • ويعلو الباب لافتة معدنية سوداء قرأت فيها بحروف عربية بارزة وبخط الثلث ، باللون الابيض اسم (الكلية الطبية الملكية العراقية) وحين عبرت هذا الباب صرت اقابل بابا موصدة علقت على جانبها الايسر قطعة من الخشب الساج ، صغيرة كتب عليها بالدهان الابيض كلمة (السكرتير) بالحروف الانكليزية ، وعلى جانبي هذا الباب تمثالان محمولان على منصة منشورية من خشب الساج أيضا الايمن منهما لكبير اطباء اليونان (ابقراط)، والتمثال الثاني للطبيب المسلم (ابن سينا) ، ولم أكن يومئذ على معرفة بأي منهما ، فلم يثيرا فيّ أي اهتمام سوى حسن صنعهما ووضعهما في المكان المناسب • وقريب من لوحة (السكرتير) يجلس على كرسي صغير ليس له متكأ رجل يرتدي قفطانا أبيض طويلاً ، هو فراش السكرتير عرفته بعد ذلك باسم (شابة) ، وعلى يسار باب غرفة السكرتير دهليز ومثله على يمينه، ولم أرَ أحداً فيهما حتى بدت لي الكلية خالية إلا من هذا الرجل الجالس على الكرسي الصغير • فلما رآني هذا الرجل ألتفتّ يميناً وشمالاً كالتائه سألني عما أريده فأشرت له الى الأوراق التي بيدي وقلت : أنا أريد الالتحاق بالكلية ، فأشار بيده وهو ما يزال جالساً على كرسيه الى غرفة أخرى الى يمين مدخل الدهليز الأيمن كتب على بابها بالانكليزية كلمة CLERK اي الكاتب • وكان بابها موصدا أيضا ، فوقفت إزاءه والتفت الى الرجل الجالس على الكرسي الصغير ، ففهم حيرتي ، فقال لي : اطرق الباب وادخل • كان كل شيء في هذا المكان غريباً ومجهولاً بالنسبة لي ، فلم آلف الحجرات الموصدة أبوابها في جميع المدارس التي درست فيها•ودخلت غرفة الكاتب ، وتقدمت من منضدته ، وهو رجل في الثلاثينات من العمر، ممتلىء الجسم والوجنتين وتنتشر على وجهه كثير من البثور المتقيحة، عرفت بعدئذ ان اسمه (يوسف شالومو) وقد بدا لي أنه متأهب لاستقبالي، فأخذ الأوراق من يدي ، ونقل عنها بعض المعلومات الى دفتر كبير يملأ جانباً

كبيراً من سطح منضدته ، ثم ربط بالأوراق استمارة بورق أصفر ودفعها عبر المنضدة إليّ وهو يقول ولعابه يتدفق من زاوية فمه : املأها أمام السكرتير . وعدت أحمل رزمة الاوراق الى الرجل الجالس على الكرسي الصغير ، نقام في هذه المرة عن كرسيه وفتح لي باب غرفة السكرتير فدخلتها بوجل . كانت هذه الغرفة صغيرة تضيق بالمنضدة الكبيرة التي يجلس وراءها رجل ذو شارب كث مبتور الطرفين ، وعوينات واسعة باطار اسود لمّاع . هذا الرجل هو سكرتير الكلية واسمه (حسيب كنّو) . وكان حين صرت قبالته منهمكاً في الكتابة ، وقبل أن يرفع رأسه ليكلمني أبصرت من خلال النافذة التي تملأ الجدار الخلفي للغرفه ثمة نخلة وبعض أشجار النارنج في حديقة مهملة ، أقيم في ركن منها قفص معدني كبير تنط على أرضيته أرانب مرقطة بألوان بين الاسود والبني والأبيض ، وهي تقضم أوراق الجت المنثورة على الأرض المتربة . وأدرت رأسي يميناً ويساراً لأرى ما في الغرفة، فكانت على الجدار الأيمن صورة الملك فيصل الأول باللباس العربي ، وفي الركن الايسر من الغرفة مدفأة مكسوة بالقاشاني بلون واحد هو البني الفاتح ، صفّت فوق رفها ثلاثة كؤوس رياضية ، عددتها مصنوعة من الفضة ، وعدد من الكتب بكعوب مذهبة . أما جبهة الغرفة فقد احتلتها منضدة السكرتير وعلى يمينها مباشرة باب موصد لم أكد التفت إليه حتى خرج منه رجل ليس بالطويل ، نحيل الجسم ، معروق الوجه لم أخطىء كونه انكليزي الجنسية أو أوروبي في الأقل ، ونهض له السكرتير بلا اهتمام واضح ، فظهرت حقيقة جسمه القصير حين اعتدل وراء منضدته ، فاذا محزمه لا يكاد يعلو فوق سطح المنضدة إلا قليلاً . وتبادل مع هذا الرجل الانكليزي بضع كلمات فهمت منها ان هذا الرجل لن يعود اليوم الى الكلية . وعرفت بعد ذلك انه هو العميد بالوكالة واسمه (هولمز) ، لأن العميد (سندرسن) كان يومئذ في عطلته الصيفية بانكلترا .

وغـادر الدكتور هولمز غرفة الســكرتير ، وعاد السكرتير يجلس على كرسيه وراء المنضدة ، والتفت نحوي وبشّ لي وجهي مستفهماً عما أريـده منه • وبدا لي في هذه اللحظة ودودا وإنسانا طيباً ومريحاً ، وانه كفـؤ أن يملأ كرسي السكرتارية في هذه الكلية • وحين وقع نظره على رزمة الاوراق التي بيدي ، تناولها مني والبشاشة ما زالت طافية على وجهه ، ثـم شـرع يفرّق مفردات أوراقها ويبسطها على منضدته ، وصار يمـر على أسـطر ما فيها ، وعاد يقرأ بعضها مرة اخرى ، ورفع رأسه عنها وسألني :

ـــ اسمك كمال توفيق محمد ؟

وكان هذا اسمي على مدى ما فات من عمري في المدارس وبين الناس، فأجبته :

ـــ نعم اسمي كمال توفيق محمد

ثم ســألني :

ـــ من ســامراء ؟

ـــ نعم من سامراء •

فقال لي مبتسماً :

ـــ إذن كمال توفيق السامرائي !

فقلت له ببلادة دون أن أدرك المغزى من هذه التسمية الجديدة :

ـــ نعم كمال توفيق السامرائي

وعقّب قائلاً :

ـــ هذا أفضل ، هل توافق على إضافة السامرائي الى اسمك ؟

ـــ نعم أوافق •

كنت الى ذلك اليـوم لا أزال في حس الطالب في المـدارس الأولـى المطبوع على الموافقة والطاعة ، بأدب واقتضاب ، وبصوت خفيض • وهكذا بهذه السهولة صار لقبي (السامرائي) من غير سابق تفكير أو تحضير لـه ،

ولكن من غير معارضة مني أيضاً • ولم يكن هذا اللقب شائعاً على ما أعلم يومئذ ، فلم يسبقني إليه إلا بضعة أفراد أشهرهم عبدالكريم السامرائي في البصرة وابنه فائق السامرائي الطالب بكلية الحقوق ، غير ان هذا اللقب سرعان ما انتشر فحمله كثيرون من أبناء سامراء من ذوي المهن والمعارف وغيرها • وسمعت السكرتير يقول لي :

ـ سيكون اسمك في سجلات الكلية بحرف (السين) لا بحرف (الكاف) ،

ثم أردف : تحضر يوم الاثنين الساعة التاسعة صباحاً للمقابلة •

وانتهت مقابلتي مع سكرتير الكلية عند هذا الحد ، وغادرت حجرته• وبينما كنت أدلف من باب غرفة السكرتير الى خارجها ، رأيت شاباً آخر يدخل غرفته • وكان هذا الشاب في مثل عمري ويحمل بيده أوراقاً رأيت من بينها الورقة الصفراء التي زودني بها الكاتب (يوسف) ، فعرفت انه مثلي يريد الدخول الى كلية الطب • ولأنني لم أفهم تماماً ما عناه السكرتير بتسلسل اسمي بالحرف (س) ولا ما قصده (بالمقابلة) ، رأيت أن أنتظر خروج ذلك الشاب لأستوضح منه كل ذلك • كنت ضائعاً ومرتبكاً لا خبرة لي بهذه الأمور ، كما اني قليل الجرأة في مثل هذه المواقف • ولما خرج ذلك الشاب سألته ونحن ننزل الدرجات الخمس الى ساحة الكلية :

ـ شنو موضوع المقابلة رجاءً ، أقصد ماذا عناه السكرتير بالمقابلة ؟

فأجابني باقتضاب مبهم ، وبلكنة كردية لم أفهم منها ما أريد معرفته منه • وببضع خطوات وصل الشاب الى سيارة تقف عند باب الكلية ، ثم التفت نحوي وهو يفتح باب سيارته ليستقلها وقال لي :

ـ تحب أوصلك الى أي مكان ؟

فأجبته :

ـ لا شكراً ، سأبقى هنا الى بعض الوقت •

وكان جوابي هذا مثل غيره من مواقفي وأحكامي التي يسيطر عليها

الحياء والسرعة والارتجال ، إذ لم يبق لي ما يحملني على البقاء في الكليـة كما قلت لذلك الشاب ، فلم أمكث فيها بعد أن رأيت تلك السيارة تتوارى في منعطف الطريق الى الشارع العام • كان ذلك الشاب هو (بابا علي) نجل الشيخ محمود الحفيد الكردي،وقد عرفته فيما بعد كما سأذكر ذلك فيما يأتي•
وحضر معي في صباح اليوم الثاني لمقابلة العميـد تسعة طلاب لم يكن مـن بينهم بابا علي ، غير انه دخل معي صفوف الكلية كغيره من طـلاب الكليـة الجدد • وأذكر يوماً ونحن منكبّون على جثة ميت في صالة التشريح إذ دخل القاعة شخص مديد القامة ، انكليزي الهيئة وبيده كتيب بحجـم كف اليد، على غلافه السميك شعار الدولة العراقية ، وتقدم من بابا علي وقال له على مسمع منـا :

— هذا جواز سفركم يا صاحب السمو •

فأخذه بابا علي من يده ودفعه في جيب قفطانه الأبيض الطويـل وهـو يقول له :

— شكراً يا دكتور سندرسن •

وعرفنا حينذاك أن العميد هو هذا الذي كلم زميلنا بابا علي • ولم أر بابا علي بعد ذلك لا في الكلية الطبية ولا في خارجها إلا بعد سنوات عـدة وهو وزير في الدولة ، ويومها عرفت أنه عدل عن دراسة الطب وسـافر الى امريكا ليدرس العلوم السياسية •

المقابلة مع الدكتور هولمز

نعود الى يوم المقابلة التي طلبني إليها سكرتير الكلية • وقد حضر يوم الاثنين عدد من المتقدمين لدخول الكلية ، عرفت منهم اثنين كانا معـي في الفرع العلمي بالثانوية المركزية هما كمال نورالدين ومحمد حسـين كاظم ، ولما خرج كمال نورالدين من المقابلة أسرعت إليه وسألته :

— من هو الذي قابلك ؟

فأجابني باختصار شديد :

ـ انكليزي

ـ وماذا سألك ؟

ـ أشـياء عامة .

وعدت أسـألـه :

ـ أشياء عامة مثل أي شيء ؟

ـ مثلاً : هل بين عائلتك طبيب ؟ ولماذا تريد أن تتعلم الطب ؟ ثم أردف :

ولكن لغته غير مفهومة بسهولة .

ولما سمعت منه هذه الجملة الاخيرة كاد يجمد الدم في عروقي . ولم أكمل مقابلتي مع زميلي كمال نورالدين حتى أطل علينا السكرتير (حسيب كلّو) من باب غرفته وطلب مني باشارة من إصبعه أن أتقدم منه ، وفتـح الباب الذي الى جانب منضدته وهو يقول لي :

ـ تفضل

وإذا في هذه الغرفة ذلك الانكليزي الصغير الحجم الذي رأيته قبل يومين يكلم السكرتير وهو يخرج من غرفته ، وطلب مني أن أجلس على الكرسي الذي يحاذي منضدته . ورأيته يتناول قلماً من على المنضدة ويخط رقمـاً على ورقة أمامه ، ثم التفت نحوي وقال :

ـ هذا تلفون بيتي ، فاطلب زوجتي لأكلمها ..

تلفون !.. وأنا لم أكن أعرف اسـتعمال التلفون ، كما لـم أخاطب سيدة انكليزية في حياتي ، لا وجهاً لوجه ولا تلفونياً ..

وقرأت الرقم الذي كتبه على الورقـة ، وابتسمت بخيبة وبـلادة ، وابتسم هو أيضاً ، وقلت له أنا لا أعرف استعمال التلفون ، فقال لي وهو يبتسـم :

ـ هذا واضح ..

ثم سألني :

ـ لماذا تريد أن تدرس الطب ولا سواه ؟

ولتوقعي هذا السؤال كنت استحضرت جوابه فقلت له :

ـ لخدمة المرضى ، وفي العراق مرضى كثيرون ..الخ.

وعاد يسـألني :

ـ هل تفضل أن تختص بالطب أم بالجراحة ؟

وما كنت أعرف الفرق بينهما فسكت دون جواب ، فقال لي :

ـ في الجراحة يعالج المرضى بعمليات القطع والخياطة ، أما في عـلاج الأمراض بالطب فتكون بالأدوية فقط ..

فقلت له :

ـ أفضل الاختصاص بالطب الباطني .

ورأيت الوقت قد طال دهراً قبل أن أسمعه يقول لي :

ـ هذا يكفي ، شكراً .

ونهضت عن كرسيّ وأدرت له ظهري لأغادر الغرفة ، وسمعته يقول لي:

ـ قل شكراً يا بني .

ولم أفهم غايته من ذلك وغادرت الغرفة ، وأنا أدرك انه تكلم معي أكثر مما تكلمت أنا معه .

أول يوم في كلية الطب

بعد خمسة عشر يوماً من مقابلة الدكتور هولمز ، أعلن عن قبول خمسة وثلاثين طالباً من مجموع مائة وخمسة طلاب تقدموا للالتحاق بكلية الطب ، وكان من بين المقبولين ، ثمانية عشر طالباً يهودياً ، وهو أكبر عدد من اليهود قبل بكلية الطب في أية سنة من سنواتها الماضية حتى يوم التحاقي بها . وحين كان اليوم الأول من الدوام في الكليـة رأيتها غير التي رأيتها يـوم دخلتها لأسجل انتمائي إليها ، فقد دبت الحركة فيها بشكل أربكني برعب ،

فقد رأيت فيها خليطاً من الطلاب القدماء والطلاب الجدد فلم أتوصل الى التفريق بينهم ، وكلهم يتحركون باستطلاع لم أفهمه ، وأبواباً تفتح فتكشف عن قاعات فسيحة مدرجة وأخرى غير مدرجة ، ومختبرات مليئة بالأجهزة المعقدة ، ومتاحف لحيوانات محنطة غريبة . ويخرج الأساتذة من غرفة السكرتير بأرديتهم البيض الطويلة ، أو على أرديتهم (الروب الجامعي) الأسود المزوّق بخيوط حريرية سوداء لمّاعة . هذا الطويل القامة ذو الجمة البيضاء ، الأنيق الذي يمشي كما يمشي البعير هو الدكتور سندرسن عميد الكلية وأستاذ الطب الباطني ، وهذا الآخر ذو الوجه المعروق والعينين الزرقاوين هو الدكتور ملز أستاذ الباثولوجيا ، ورجل آخر في مشيته قليل من العرج هو الدكتور سبنسر أستاذ طب العين . ولا أذكر أنني شاهدت في هذا اليوم من توسّمت فيه أن يكون أستاذاً عراقياً . وفجأة خرج شاب من غرفة السكرتير وبيده ورقة ثبّتها على لوحة الاعلانات التي كانت الى الجانب الأيمن لمدخل الكلية ، فتوجه الطلاب إليها متدافعين دون نظام ، فاذا هي اعلان باللغة الانكليزية ، فتراجع قسم منهم ووصلها آخرون، ورفعوا رؤوسهم يقرأون محتويات الاعلانات ، وفيه أن يتقدم المقبولون بحسب أسمائهم المدرجة في هذا الاعلان الى كاتب الكلية ليوقعوا على عقد فيما بين كل واحد منهم وبين وزارة الداخلية التي كانت يومئذ صاحبة الولاية على كلية الطب . وكان أهم ما في العقد أن يخدم المتخرج في هذه الكلية خمس سنوات في المراكز الصحية العراقية . كما جاء فيه: « يرقن اسم الطالب من سجلات الكلية إذا رسب بدرسين من دروس السنة الاولى » . وقد وقعت على هذا العقد دون ان أقرأه معتمداً على ما فعله قبلي الزملاء الذين سبقوني إليه .

الطلاب المقبولون الى كلية الطب

رفعت قائمة الطلاب المقبولين في كلية الطب على لوحة الاعلانات

الخضراء المعلقة الى جانب مدخل الكلية ، إلا أنني لم التفت إليها ، ولا كان عليها زخم من الطلاب ليلفتوا نظري اليها . وعرفت أنني كنت من المقبولين بعد أن دخلت على كاتب الكلية (شلومو) وسألته عن ذلك ، فقادني الى لوحة الاعلانات ، ثم سألني عن اسمي فلما ذكرته باسم سامرائي بدأ يمر باصبعه على قائمة الأسماء حتى وصل الى الحرف (س) بالانكليزية ، فأجابني حينذاك :

— نعم أنت من المقبولين . (وأضاف) تعلّم أن تلتفت الى لوحة الاعلانات في كل صباح تدخل الكلية . لا تنس ذلك .

فشكرته وعدت الى لوحة الاعلانات لأعرف هويات من كنت أعرفه في المدرسة الثانوية المركزية ، فاذا عدد كبير منهم ممن لم أسمع بأسمائهم التي بدت لي من أسماء اليهود ، وكان ممن عرفتهم أكرم القيماقچي، ومصطفى محمود وأشرف محمود ومحمد حسين كاظم وكمال نورالدين . أما نجيب اليعقوبي فقد أخطأت في حسبانه يهودياً فتبين لي بعد ذلك انه مسلم من أهل كركوك ، وقد درس سنتين في الكلية الامريكية ببيروت فصار يتكلم الانكليزية بطلاقة . وعرفت موسيس أكوبيان أرمنياً من اسمه . وثمة لطيفة تخص أكرم القيماقچي من المناسب ذكرها في هذا المجال. فقد كان أكرم هو المشرف أو المراقب على طلبة القسم الداخلي الملحق بالمدرسة الثانوية المركزية كما ذكرت ذلك آنفاً ، واعتدنا نحن الطلاب أن نخاطبه بكلمة (سيدي) ، وداومت أشهراً أخاطبه بهذه الكلمة بعد دخولنا كلية الطب . ويوماً قال لي:

— أنا الآن طالب مثلك ، فنادني باسم أكرم وكفى ، أرجوك .

ولا أذكر أنه كان طالباً معي في الثانوية المركزية ، وهناك احتمال كبير بأنه كان موظفاً في إحدى دوائر وزارة المعارف فكلف بالاشراف على طلبة القسم الداخلي الملحق بالمدرسة الثانوية المركزية كما ذكرت ذلك قبلاً .

أما الطلاب المقبولون الآخرون فهم : أنور كباي ، الياهو عزرا ،

داوود كباي ، محمد علي جواد ، حسين علي مبـارك ، سلمان درويشـ ، عبدالعزيز مكية ، ادوارد محلب ، حسقيل دبي ، هارون خضـوري ، ناجي جتايات ، أشرف محمود ، حسقيل داود معلـم ، محمد الكيلاني ، صـالح محمود ، كمال توفيق السامرائي ، يحيى ياسين ، ناظم مير ، مصطفى محمود، محمود المدرس ، عزرا نسيم ، عزت عارف ، عبدالجليل الراوي ، موسيس اكوبيـان ، البير كرجي ، نجيب اليعقوبي ، وانطوان ساعور •

وقد انفصل من الدراسة في أول السنة كل من عزت عارف وعبدالجليل الراوي ، ومحمد الكيلاني وانطوان ساعور ، وكان عدد الطلبة في الصفوف الخمسـة (٨٢) طالبـاً • وفي نهـاية السنة تخرجت أول دفعـة وعددهـم فيها اثنا عشر طالباً فحصلوا على لقب دكتور في الطب ، وهم كرجي ربيع ، وجاك عبودي ، وبيثون رسام ، ورؤوف سميح ، والبير نسيم ، واحسـان القيماقچي ، ويعقوب ازاجي ، وعبدالمجيد الشهربلّي ، وفؤاد مراد الشيخ ، وصيون منشي ، وعبدالحميد شلاش ، وعلي البير • وتقرر ارسال كل مـن الدكتور كرجي ربيع وجاك عبودي وبيثون رسام الى لندن لتكملة تحصيلهم العالي ، وثلاثتهم من غير المسلمين •

ادارة الكلية الطبية الملكية العراقية

ويوم دخلت كلية الطب كانت عمادة هذه الكلية تضم كلاً من: الكلية الطبية الملكية العراقية ، وكلية الصيدلة ، ومدرسـة التمريض والقبالـة ، ومدرسة الموظفين الصحيين ، ومديرية المستشفى الملكي • ولم تضـم الى هذا التكوين الطبي مدرسة طب الأسنان إلا في سنة ١٩٥١ • ولكل من هذه المؤسسات مدير ، ويرأس عمومها عميد كلية الطب • وبقي هذا التكـوين قائماً الى يوم تأسيس جامعة بغداد بتاريخ ١٢/١٠/١٩٥٩ •

وكان للعمادة مجلس يضم عمداء الكليات التي ذكرناها مضافاً اليهـم رؤساء وحدات الطب الباطني والجراحي ، وممثل عن وزارة الصحة ، وهـو

مدير الصحة العام على الأكثر •

وكان أول عميد لكلية الطب هو الاستاذ سندرسن ، ثم أعقبه الدكتور حنا خياط وهو أول عميد عراقي في هذه الكلية ، ثم تلاه الدكتور أحمد قدري شقيق رئيس التشريفات الملكية تحسين قدري ، والدكتور أحمد قدري اختصاصي بالأمراض الجلدية غير انه لم يدرّس هذا الموضوع في كلية الطب ببغداد ، وكذلك لم يمنح لقب أستاذ في هذه الكلية • ثم تناوب على العمادة بعد ذلك كل من الدكتور هاشم الوتري والدكتور صائب شوكت والدكتور جلال العزاوي • وحين التحقت طبيباً بالمستشفى الملكي كان في هذا المستشفى وحدتان للطب الباطني ، يرأس الوحدة الاولى الأستاذ سندرسن ويرأس الوحدة الثانية الأستاذ هاشم الوتري•كما كان في المستشفى وحدتان للطب الجراحي ، يرأس الوحدة الاولى الأستاذ (ودمن) ويرأس الوحدة الثانية الاستاذ صائب شوكت • أما في الطب النسوي فلم يكن في الكلية ولا في المستشفى إلا وحدة واحدة برئاسة الأستاذ كندي •

أول محاضرة للأستاذ سندرسن

في صباح يوم ١٩٣٣/١٠/٢١ قرأنا على لوحة الاعلانات أن يحضر طلبة الصف الاول لاستماع محاضرة يلقيها الأستاذ سندرسن ، عميد كلية الطب ، في نشأة الكلية الطبية الملكية العراقية ، في قاعة المحاضرات رقم (١) وهي القاعة المدرّجة الوحيدة في الكلية ، وعرفنا ان هذه المحاضرة كانت تلقى على طلبة الصف الاول من كل سنة جامعية • قال سندرسن في ما قاله في هذه المحاضرة : « ان أول مدرسة عربية لتعليم الطب في بغداد كانت من أعمال الخليفة العباسي هارون الرشيد قبل زهاء الف عام ، وان هذا الخليفة سيأخذه العجب والفرح أن يعيد تأسيس تلك المدرسة أحد أنساله وهو الملك فيصل الأول ، وان يكون أول المعلمين فيها طبيب غير مسلم اسمه (ابن سندر) ويقصد بذلك نفسه SINDERSON مثلما كان أول

طبيب في مدرسة هارون الرشيد ابن بختيشوع وهو الآخر طبيب غير مسلم أيضاً ، وهكذا لم يكن هارون الرشيد يفرق بين المسلم وغير المسلم إلا بالعلم . ولهارون الرشيد الثناء العاطر منا على هذه النظرة المحايدة ، كما يجب أن نشكر في هذه المناسبة كلاً من صاحب الجلالة الملك فيصل الاول المعظم والدكتور هلتن والدكتور حنا خياط والدكتور هيكز ، وثلاثتهم من أساتذة هذه الكلية ، وقد كافحوا باصرار لاستحداث هذه الكلية ». وختم كلمته بالقول : « إننا في هذه الكلية سنتبع مناهج الدروس بكلية الطب بجامعة ادنبرة حيث درست أنا هذه الصناعة الشريفة » .

لقد شدّ سندرسن الطلاب إليه في هذه المحاضرة ، وهم يجلسون فاغرين أفواههم لمتابعة كل كلمة وردت في محاضرته ، مع انهم دون ريب لم يقفوا على معرفة معاني بعض مفرداتها .

دروس السنة الاولى في الكلية

كانت دروس السنة الاولى أربعة هي : علم التشريح بقسميه النظري والعملي ، والكيمياء ، والفيزياء وعلم الأحياء . وتكتمل دروس العلوم الثلاثة الأخيرة في السنة الاولى ، أما موضوع التشريح فتستمر دراسته حتى نهاية السنة الثانية ، الى جانب دروس هذه السنة .

وكانت حصص الدروس تبدأ على مدى السنة في الساعة الثامنة صباحاً وحتى الساعة الواحدة ظهراً ، ثم تليها بعد فرصة الغداء دروس عملية في التشريح فيما بين الساعة الثانية والرابعة .

وأول درس تلقيته في الكلية كان في التشريح النظري ، وقد دخل الطلاب القاعة المتدرجة المخصصة لهذا الموضوع ، وكان المحاضر الأستاذ هولمز . فأخذت مكاني على أحد مقاعدها التي صممت على شكل نصف دائرة مركزها مكان الأستاذ المحاضر . وحين استقررت في مكاني رحت أداور رأسي لأتطلع الى ما في القاعة ، فرأيت جسم انسان ممدداً على

طاولـة خزفية طويلة بيضاء لسّاعة • وكان جسم هذا الانسان مجعداً وجافاً وبلون الجلود اليابسة ، فاثار مظهره فيّ التقزز والرعب ، إذ لم أر قبل ذلك إنساناً ميتاً بهذا الشكل واللون ، فقد جال في خاطري احتمال أن تكون هذه الجثة قد سرقت من احد القبور كما نسـمع ونقرأ مثل ذلك في القصص الشعبية • وما كنت اعلم أنها جثة أحد المتوفين في المستشفى الملكـي ممن أهملهم ذووهم أو نسوهم بعد دخولهم المستشفى • وكانت جثة هذا المتوفى قد استفرغ دمها من أوعيته ودفع في مكانه مادة كيماوية خاصة لتمنع التعفن في بدنه ، ثم اغرقت في حوض مليء بمحلـول (الفورمالين) فاستحضرت بعد كل ذلك الى قاعة الدرس •

وقد تحاشيت النظر الى تلك الجثة على طول درس ذلك اليوم، وصرت أرفع رأسي عالياً حتى لا تقع في مستوى نظـري • ودخل الاستاذ هولمـز القاعة وهو يرتدي فوق ملابسـه (الروب) الجـامعي فأكسبه ذلك طـولاً إضافياً وهيبة • وشرع يتلو محاضرته بلهجة أسكوتلندية لم يكن أكثرهـا مفهوماً بالنسبة لي ، ولولا انه كان ينقل طرف العصا الطويلة التي بيده بين أقسام الجثة لما عرفت انه يحاضر في جسم هـذا الميت الجاف • كمـا كان الفراش (شابه) يقف وهو عار من كل لباس إلا من سروال صغير وقصير لستر عورته ، فيستعين هولمز بالأشارة الى معالم جسمه العضلية التي يتكلم عنهـا في محاضرته • وحين لاحظت بعض أترابي منهمكين في تدوين ما يسـمعونه من المحاضرة في دفاترهم تملكني خوف مفاجيء من موضوع الطب عموماً، لا من موضوع التشريح وحده ، واعتقدت بأنني لا أصلح لدراسته كالآخرين من الطلاب الذين ظهروا لي انهم يفهمون هذه المحاضرة ، وينقلون مختصرها الى دفاترهم • وانتظرت بفارغ الصبر انتهاء المحاضرة لأرى فيما إذا كانت الكتب في التشريح ستساعدني في تفهم ما سمعته من المحاضر • وحين خرجنا من القاعة بعد انتهاء ساعة الدرس تسللت بخفة من جانب الطاولـة البيضاء

لأتجنب رؤية الميت المسجى على سطحها وقد ملأ قلبي خوفاً ورعباً • وما كدت أخرج من قاعة المحاضرة بعد الانتهاء منها حتى ركبني هم حين تذكرت أن في جدول الدروس في اليوم نفسه حصة في التشريح العملي ما بين الساعة الثانية والرابعة مساءً • وكانت قاعة هذا الموضوع أكبر قاعات الكلية وتقع في نهاية دهليز الكلية الأيسر • وكانت فيها ست مناضد كالتي رأيتها في قاعة المحاضرات رقم (١) وعلى كل واحدة منها جثة أو بعض جثة ، وحولها أربعة كراسٍ صغيرة بلا متكئات ولا ذراعين • يا إلهي ، جثة واحدة أخافتني حتى الموت فكيف بكثير من الجثث في هذه القاعة ، وكأنها قد التقطت من ساحة معركة ! وهي جميعاً بشكل ولون واحد أشبه بالجلود اليابسة بالرغم من طراوتها ونداوتها • وفي هذه القاعة وزعت علينا أدوات التشريح وهي سكين صغيرة حادة ، وملقط مسنن الفكين ، ومقص مدبب النهاية • فقلبت هذه الأدوات الجارحة بين أصابعي وأنا خائف ومشمئز من استعمالها على جسم إنسان •

وكان يشاركني في الطاولة التي أعمل عليها كل من الطالبين كمال نورالدين ومحمد حسين كاظم ، وشعرت بالراحة النفسية حين رأيت على الطاولة التي الى جانبي إثنين من الطلاب اليهود الذين زاملوني في المدرسة الثانوية المركزية وعلى وجهيهما شيء من الهدوء والاطمئنان ، ولو كان ذلك بشكل مفتعل • ومنذ اليوم الاول في هذه القاعة اتفقت مع كمال نورالدين أن يتولى قراءة كتاب (كانتكهام) في التشريح العملي بينما أنا أتابع تطبيق ما أسمعه على الجثة • واعترف أني لم أعمل شيئاً أفادني في ذلك اليوم • كما لم أنم أكثر ليلته ، كذلك لم أستطع في عدة أيام تالية أن آكل بشهية فقد كان اللحم الذي يقدم لي غداءً في المطعم يذكرني بلحم الجثة التي عملت فيها تقطيعاً في ذلك اليوم •

وحدث في الاسبوع الاول حادث وقع في صالة التشريح جعلني

أرتعب حين أقلب الجثة لأعمل في جانبها الآخر ؛ فبينما كنا منهمكين في تشريح الجثة سمعنا صرخة فزع ضجت من بين طالبين كانا يعملان الى جانب طاولتي ، كان احدهما هو مصطفى محمود والآخر ناظم مير، وكلاهما من أترابي في المدرسة الثانوية،وكان مصطفى محمود يقرأ في كتاب كانكهام وناظم مير يشرح الجثة التي هما عليها ، واقتضى الحال أن يرفع مصطفى محمود ذراع الجثة عالياً ليساعد ناظم مير على تشريح إبطها بسهولة ، ولم يكن ناظم مير قد فطن الى ذلك ، وفي لحظة كان على مصطفى محمود أن يترك يد الجثة ليقلب صفحة الكتاب الذي يقرأ فيه فسقطت هذه اليد ثقيلة على رأس ناظم مير الذي كان في تلك اللحظة منهمكاً في تشريح إبط الجثة، فما كان منه إلا ان صرخ برعب وخرج راكضا يتعثر بين الكراسي هارباً الى حيث لا هدف • ولم يصح الى دنياه إلا بعد أن أمسك به (ملا خضر) وأضجعه على الأرض ونثر على وجهه الماء • وضحك الملا خضر حتى كاد يسقط من فمه طقم الاسنان الذي يملؤه ، وقص علينا حادثاً يشبه ما حدث لناظم مير ، قال :

ـ في السنة الماضية طويت جثة طرية على محزمها لأساعد الطالب (عزرا شكرچي) على كشف ظهرها ، فانطلق من فمها جشأ كان محبوساً في معدتها ، فظن عزرا ان في الجثة حياة ، فقفز عن كرسيه صارخاً ووجهه بلون (النومية) •

ولما غادرت الكلية في مساء ذلك اليوم ، أسرعت لأتصفح كتاب (كراي) الضخم في التشريح ذي التسعماية صفحة بالقطع الكبير والورق الرقيق والحرف الدقيق ، وهو الكتاب المدرسي المقرر لطلاب كلية الطب في موضوع التشريح النظري ، كما تصفحت كتاب كانكهام في التشريح العملي بأجزائه الثلاثة ، فلم أعثر في أي منهما ما يوضح ما سمعته في محاضرة الأستاذ هولمز ، ولا ريب أن في هذين الكتابين كل ما ورد في قاعة المحاضرات(رقم١)

وفي ما رأيناه في الجثة التي شرّحناها ، غير ان التعابير في الكتابين وفي لغة المحاضر كانت شيئا آخر لا يقرب مما فهمنه في كتاب كراي وكنكهام •

وهكذا اختلط عليّ الأمر في دراسة الطب ، وعدت أدرس مجددا موقفي منه ، فاذا هذه الكلية تختلف كل الاختلاف عن المدارس التي عرفتها قبلا ، فالمعلمون من الانكليز ، ولغة التدريس فيها باللغة الانكليزية،واكثر الدروس مختبرية وعملية ، وساعات حصصها متواصلة ، فلا نخرج من قاعة درس إلا لندخل قاعة درس أخرى • ثم ان موضوع التشريح جديد ليس لي سابق معرفة به بأي قدر ، كما ان تشريح جسم الانسان وتقطيع أوصاله عملية لا اظنني أستطيع عملها حتى لو دابت على المران بها • ولذلك صار يصيبني خوف قاتل وبخاصة حين أتذكر ان الكثيرين من أترابي إن لم يكن أكثرهم بمستوى في اللغة الانكليزية أعلى من المستوى الذي انا فيه • فمنهم من درس هذه اللغة في بيروت ، وآخرون في مدارس الهند ، وقسم درسها في مدارس بغداد اليهودية التي كانت مناهجها في هذه اللغة أعلى من صنوها في مدارس بغداد الحكومية • فاضطربت اي اضطراب بعد أن استعرضت هذه المعوقات ، ورأيت نفسي بين أمرين : إما ان أستمر بدراسة الطب أو أنسحب من كليتها وأدخل دار المعلمين قبل فوات الأوان المقرر للقبول في هذه المدرسة الأخيرة • وأرقني هذان الخياران ، وأخيراً نمت على قرار أن لا تراجع ولا إعادة نظر في الاستمرار بدراسة الطب ، والتعب فيه والصعوبة يجب أن لا تكون ذات موضوعية في دراستي بهذه الكلية ؛ فانكببت على قراءة كتبي المقررة بها ، فأقرأ الموضوع مدة لأقف على معاني مفرداته اللغوية ومصطلحاته العلمية ، ثم مرة أخرى لأدرك مفاهيمه حتى صرت لا أدرك فهم لغة الموضوع حتى أجيء على فهم نصوصه من كل الوجوه • ثم رأيت ان أقرأ موضوعاً في كتاب التشريح قبل ان أسمعه في محاضرة الأستاذ هولمز ليسهل عليّ فهمه أثناء محاضرته • ثم رأيت أني بحاجة الى معجم انكليزي – عربي لأسيطر على تمام فهم تعابير المادة الطبية • وكان

(معجم شرف) في العلوم الطبيه والطبيعية هو الوحيد من نوعه المتوفـر في بغداد ، غير أن ثمنه كان أكثر مما تتحمله ميزانيتي الماليه ، فتجاهلته ونبذت الفكرة في شراء هذا الكتاب ، وبعد نحو شهر عـادت الفكرة تلـح علي لشرائه ، فحسبت ما أستطيع توفيره وتقتيره على معاشي • وأخيراً اقتنيـت نسخة مستعملة منه ، وحسنا فعلت ، ولا يزال ذلك الكتاب في مكتبتي وأعتز به كذكر من حياتي الطلابيه الأولى •

ودرجت أموري الدراسية في الكلية ، وانحلت عقدي النفسية،وسهلت الصعوبات الأخرى تباعاً • ومما هوّن عليّ الامور المدرسية هو تعرفي على زملائي في الصف وبعض من الطـلاب القدماء الذين سـبقوني بسنة الى الدخول الى كلية الطب ، فتكونت بيني وبين هذا المجموع من الطلاب ألفة وتحابب • وتدريجيا رأيتني أختص باثنين منهم ، أراجع معهمـا دروسـي اليومية ، وكان كل منهما بخلق متميز وطباع غير طباع الآخر •وكان أحدهما واسمه محمد حسين كاظم يتكلم بهدوء ، ويتحرك بوقار ، ويميل الى الجد، ولا ينزع الى الهزل إلاّ أنه يانس له ، وقد يشـارك فيه بحدود • ودامـت صحبتي مع هذا الصديق طيله أيام الدراسة في الكلية ، وقد توفاه الله بعد اسبوع واحد من تخرجه في الكلية ، فحزنت لوفاته وتألمت حتى بكيـت • ويوم وفاته وليس قبل ذلك علمت من أبيه المفجوع ان إبنه الدكتور محمد حسين كان آبا لطفلين ، عمر أكبرهما ثلاث سنوات والصغير ما زال على ثدي أمه • وكان منظر أبيه العجوز حين أسلم ابنه الوحيد الروح يفتت الأكباد•

أما صديقي الآخر كمال نورالـدين فكان على النقيض من صديقـي محمد حسين كاظم ، فهو يحب المرح ويتفنن فيه • ويجيد تقليد الأساتذة في محاضراتهم ، وبخاصة أستاذ الكيمياء دكتـور (رايموند) حين يحـاول أن يخفي اللثغة الخفيفة في نطقه ، فيثير فينا الضحك • كما كان لصديقـي هذا سيطرة خارقة على عضلات عينيه ، فيحرك مقلتيهما حركة دائرية سريعة قد

تسبب الدوار لمن يطيل النظر إليهما • كذلك له سيطرة على أذنيه، فيرفعهما ويخفضهما كما يشاء •• وحين ينتهي الاستاذ رايسوند من محاضرته يبدأ كمال نورالـدين يرقص (التاب دانس) على بلاط المختبر مثل اي زنجـي امريكي يحسن هذه الرقصة في النوادي الراقية •

درع الكلية ورباطها

في يوم ٦/١٠/١٩٣٣ علق على لوحـة الاعـلانات الخضراء كتاب من سكرتارية العمادة ، باللغة الانكليزية ، فهمـه بعض من الطـلاب بصعوبة وربما ببعض الأخطاء ، ثم فهمناه على الوجـه الصحيح من الطـلاب الذين يجيدون اللغة الانكليزية • وفحوى الكتاب ان في دائرة كاتب الكلية دروع (باجات) وأربطة صممت خصيصاً لطلاب الكليـة وصنعت في لنـدن ، وان العميد يرغب في أن يقتنيها طلبة الكلية كسمة مميزة لهم كما تفعل الجامعات الانكليزية ليعرفوا بها عن غيرهم مـن طلاب الكليـات الأخرى • ويحتوي الدرع على خطين بلون أزرق فاتح يمثلان دجلة والفرات ، ويلتقيـان بخط أزرق أيضاً أقصر طولاً يمثل شط العرب • وعلى يمين الخط الايمن صورة تمثال أسد بابل بلون رمادي ، وعلى الجانب الأيسر صورة أفعى باون فضي، وهي الرمز الذي استعمله البابليون واليونانيون رمزا للشفاء وطول العمر • ويعلو هذا الدرع صورة التاج الملكي • أما الرباط فكان اللون الغالب فيه هو الأسود ، وفيه ثلاثة خطوط باللون الأحمـر والأخضر والأبيض ، وهي بمجموعها الوان العلم العراقي • وكل من الدرع والرباط من تصميم السيدة (الزا) زوجة الأستاذ سندرسن • وفي اليوم الثاني ترجل الدكتور سندرسن عن سيارته (الهويموبيل) ليدخل الكليـة وقـد ألصق على جيب سـترته الأيسر درع الكلية وشدّ على رقبته رباطها ، وتابع الطلاب ارتـداء التاج والرباط سنوات تالية عديدة ثم أهملوهما تدريجياً •

ممثل الصف أمام العميد

وفي يوم ١٩٣٢/١٠/٨ قرأنا في لوحة الأعلانات : « أن يجتمع طلاب الصف الأول لينتخبوا واحدا من بينهم ليمثل الصف في دائرة العمادة » . وعرفنا ان ذلك كان تقليدا عملت به الكلية منـذ تأسيسها سـنة ١٩٢٧ . وراقب الانتخاب السري في قاعة المحاضرات رقم(١) سكرتير الطلبة (حبيب كتو) . ولم أعرف كيف صرت أنا ذلك الممثل المطلوب مع أني كنت منكمشاً عن زملائي في الصف ، وكثير الحياء ، وقليل الكلام . وطلبني حبيب كتو بعد فرز الأصوات وهوزي بالممثليه ، وافهمني ان أكون الوسيط بين زملائي في الصف وسكرتارية العمادة ، والعميد شخصياً . والحقيقة أني شعرت في تلك اللحظات بشيء من الزهو وبشيء من الحرج جعلاني أشعر أنني تفـوّ للدراسة في هذه الكلية ، فكان ذلك مما ساعدني على إستسهال المعوقـات والصعوبات التي كانت تفزعني وتهدد استمراري في دراسة الطب.ولا أتذكر كممثل للصف أنني قد قمت بأداء واجب يستحق الذكر إلاّ في حالتين، كانت الأولى قد حدثت في السنة الأولى والثانية في السنة الثالثة .

أما في الاولى فقد اعتادت زوجة العميد السيدة (إلزا) أن تدعو طـلاب السنة الأولى مع بعض من طلبة الصف الثاني الى تناول الشاي في دارها التي كانت تسميها (النخل) لما كان فيه الكثير من هذا الشجر،وتجتهد أن توزعهم على موائد صغيرة يكون فيها أحد طلاب الصف المنتهي في الكلية . وكان واجبي في هذه الدعوة تقديم زملائي الطلبة الى السيدة (إلزا) التي تقف في استقبالهم عند باب بيتها الملاصق لحدائق المستشفى والكلية الطبية.وهذا كل ما قدمته من واجب في هذه المناسبة .

أما الخدمة الأخرى التي وقعت في الســنة الثالثة ، فقد حدث خـلاف كلامي عابر بين الطالب يوسف خدوري والطالب خالد أحمد حالت ، وتطور الكلام فيما بينهما حتى تعالى فيه صوتاهما في الدهليز الذي ينفتح إليه باب

غرفة العميد . وقد قال يوسف خدوري فيما قاله لخالد أحمد حالت : انه سيحلق شاربه ، فثار خالد عليه بالسباب وكان العميد سندرسن في غرفته فسمع الصخب بين الطالبين المتخاصمين ، فطلبني سكرتير الكلية لأطلع العميد على ما يحدث قريباً من مكتبه فحضرت أمام العميد ومعي الطالبان المتخاصمان ، فقال خالد بعصبية قبل أن يكلمه العميد :

— يا سيدي العميد ، ان يوسف هددني ..

وسأله العميد ببروده الانكليزي المعروف :

— وماذا قال لك بالضبط يا بني ؟

فتردد خالد أن يقول شيئاً،فألحّ عليه العميد أن يجيبه على سؤالهفقال:

— إنه أهانني وهددني .

فقال العميد :

— قل لي ماذا قال لك ؟

فأجابه خالد :

— إنه ينوي حلق شاربي !

وسأله العميد باستغراب مفتعل :

— هل هو حـلاّق يا بني ؟

فأجابه خالد بجد :

— لا ، انه ليس حلاقاً ، ولكن ذلك تحدٍّ وإهانة لشخصي .

وضحك سندرسن وقال :

— ولكني لا أرى لك شارباً ليحلقه ..

— سيدي ، إنك لا تعرف المعنى في تهديده ، وهو إهانة حتى لو لم يكن لي شارب .

وعاد يضحك العميد ، وقال لخالد :

— إنني لا أرى في ما قاله يوسف إهانة لك ، فأرجو منك أن تتغاضى عما

قاله ، كما أرجو أن تتصافحا قبل أن تغادرا هذه الغرفة ، فما كان من خالد إلا أن قال للعميد : أنت تأمرني ولا ترجوني •

وهجم على يوسف وقبله في وجنتيه وخرجا من الغرفة يتضاحكان •

وأردت أن أتبعهما وأخرج معهما من الغرفة إلا ان العميد استوقفني قائلاً :

— دقيقة يا كمال ••

وشرد في تفكيره لحظات ثم قال لي :

— كمال ، إني أخشى أن يكون خالد غير طبيعي فراقب أعماله واخبرني إن لمست منه ما يؤكد ظني فيه •

ولم يظهر لي خالد ولا سمعت منه ما يستوجب نقله الى العميد ، غير أني بعد أيام افتقدته حين غاب عن الكلية • وكان أهله ذوي يسار وأبوه متصرف للواء الكوت ، وله حظوة لدى الملك فيصل الأول • وسمعت بعد أشهر أن علامات الجنون قد برزت في تصرفات خالد ، فحجزوه في بيته ، ثم أخذوه الى مستشفى العصفورية بلبنان ، وفي ذلك المصح كانت آخر ساعات حياته • ولما نقلت هذا الخبر الى العميد قال دون اهتمام :

— كنت أتوقع هذه النتيجة •

كتاب (تقويم الكلية)

بعد يومين من افتتاح الكلية وزع على الطلاب كتيب بثمان وخمسين صفحة باللغتين العربية والانكليزية • وقد كتبت على صدر غلافه الأزرق عبارة (جامعة آل البيت) وتحتها عبارة (كلية الطب الملكية العراقية) ثم تحت هذه العبارة صورة درع الكلية ، وفي افتتاحية هذا الكتيب معلومات عن تأسيس هذه الكلية سنة ١٩٢٧ في ردهتين من ردهات المستشفى الملكي قبل انتقالها الى بنايتها الجديدة • كما في الكتيب معلومات وفيرة عن مكونات الكلية من قاعات تدريس ومختبرات ومرافق غير صفية • وفي هذا الكتيب أيضاً مواد نظام الكلية الذي يتضمن فقرة واضحة في (ان العميد هو

المسؤول عن ادارة الكلية وما يتعلق بها ، ووظيفته (فخرية ودائمية) كما فيه مادة : (على الطالب أن يدفع للكلية عند التحاقه بها خمسين ديناراً، ويتعهد خطياً بخدمة الحكومة أربع سنوات متوالية بعد تخرجه في الكلية ،ولا يجوز له أثناء الدراسة فيها الاشتراك أو الاتصال بأية مجلة إلا بعد موافقة العميد. ولا يجوز له أيضاً أن يمارس السياسة والدعايات السياسية أياً كانت) .

وفي هذا الكتيب ذكر لاثنتي عشرة جائزة للمتفوقين من طلبة الكلية تعلن على لوحات تعلق على جدران دهليز الكلية . وهذه الجوائز هي: جائزة البنك العثماني ، وجائزة البنك الشرقي ، وجائزة شركة اندروير ، وجائزة البنك الايراني ، وجائزة شركة النفط العراقية ، وجائزة مناحيم دانيال ، وجائزة بيت ستريك ، وجائزة الدكتور دنلوب وجائزة الدكتور سندرسن ، وجائزة الدكتور هيكز وجائزة الدكتور حنا خياط .

صديقاي في السنة الاولى بكلية الطب

كان أكثر طلاب الصف الأول في الكلية من اليهود ، كما ذكرت ذلك آنفاً ، وأغلب هؤلاء منغلقون على أنفسهم ، وحذرون في صداقتهم حتى وهم في عمر التلمذة الذي لا خوف منه . أما أكثر أصدقائي قرباً الى قلبي فهما كمال نورالدين ومحمد حسين كاظم ، وهما أخلاقياً على طرفي نقيض ، فان كمال كثير المزاح والآخر قليل الكلام كثير الجد . ولكمال حس فني،ويميل الى سماع الموسيقى ، ويتذوق الرسوم ، وكان إيجابياً في النظر الى ما في الطبيعة من زهور وطيور ، فلا يرى أياً منها إلا ويتوقف قليلاً ليثني على جمالها وأريجها وتغريدها . وثمة شبه بينه وبين أستاذ التشريح صائب شوكت ، وخصوصاً في جبهة رأسه وعينيه وما يناظرهما في وجه الدكتور صائب شوكت . وكان على الصفحة الاولى من كتاب التشريح صورة مؤلفه (كراي) فقلت لكمال ذات يوم وأنا أنظر الى وجهه :

— أنت تشبه كراي يا كمال ..

فقال لي :

— بل اني أشبه الدكتور صائب شوكت . ثم ضحك وأضاف : نحن الثلاثة من كبار علماء التشريح .

كنت أرتاح الى صديقي كمال لأنه يمرح دون حذر وقت المرح، ويلتزم بالأدب والجدية وقت الدراسة ، وهو قارىء جيد ، لا يتعب ولا يمل، وكنت ألتقي معه تحت ظلال أشجار الدفلى الكثيفة التي أقيم في مكانها بعد ذلك المختبر المركزي الذي يواجه مدخل كلية الطب . وكانت تختفي خلف هذه الأشجار دار صغيرة ريفية الشكل ، يسكنها أستاذ الباثولوجي (الدكتور ملز) ، وهو حريص على متابعة أعماله في المختبر المركزي المحاذي لدار التمريض الخاص بالمستشفى الملكي ، فيخرج من داره المذكورة وبصحبته شابة رشيقة في الوقت الذي نكون أنا وكمال في ظل أشجارالدفلى ، فيذهبان معاً الى المختبر ليتفقد الدكتور ملز محاضن نمو الجراثيم المزروعة فيها ، فلا تفلت هذه الشابة من تعليقات صديقي كمال ، فيلاحقها بنظراته النهمة حتى تختفي في منعطف الطريق القريب من دائرة الأشعة ، ويهمل الكتاب الذي كان يقرأ فيه ، ويبتعد عني بفكره ، فأطلب منه أن يعود الى كتابه ، ومع أني لم أكن أقل منه ميلاً الى الاستمتاع بالنظر الى تلك الشابة ولو كانت مدبرة ، بعد أن فاتني النظر إليها وهي مقبلة . وفجأة قال لي كمال :

— كفى ما قرأناه هذا اليوم ، وليس في مقدوري أن أعود الى القراءة في الكتاب بعد أن رأيت هذه الفراشة ... ألا لعنة الله على الكتاب .

وينهض متعجلاً بلا هدى ، ونغادر المكان على موعد لنتقابل في اليوم التالي .

في خان محمد طيب ببغداد/١٩٣٢

عقدة العقد بالنسبة للطلاب الغرباء عن بغداد هو السكن الذي يتوفر فيه القرب من محل الدراسة والقرب من أحد الأسواق حيث يحصل منها

الطالب على ما يحتاجه من غذاء ، ثم أن يكون هذا المسكن رخيصاً أو في مكنة الطالب استئجاره ، وأكثر الطلاب من خارج بغداد وهم من عوائل غير ميسورة ، وحلاً لهذه المشكلة يضطر الطالب الى ان يتعاون مع أحد زملائه على كلفة السكن ، وفي ذلك أيضاً اقتصاد في مصاريف الأكل إذا تعاونا على تهيئته في الدار التي يستأجرونها ، ولما كانت عندي تجربة قاسية بهذا الجانب من حياتي المدرسية يوم كنت طالباً في المدرسة الثانوية المركزية فقد تهيأت له مسبقاً فقصدت منذ يوم وصولي الى بغداد في السنة الاولى من التحاقي بالكلية الطبية ، صديقاً لأخي رشيد ، وهو صاحب مكتبة صغيرة في سوق السراي أستعين به لأجد مسكناً لي في هذه السنة • وفيما أنا ألج سوق السراي تقابلت فجأة مع صديق زاملني سنتين في متوسطة الحلة وسنتين في المدرسة الثانوية المركزية ببغداد واسمه (ناجي شاؤول) • وفيما كنا واقفين على طرف من السوق نستذكر أيامنا في المدرستين ، اكتشفت أن هذا الصديق كان يبحث عن محل ليسكن فيه ، وانه في طريقه الى (خان محمد طيب) الواقع خلف سوق السراي ليستأجر فيه غرفة معروضة للايجار ، فاقترح عليّ أن أشاركه فيها ، فوافقت على مقترحه في الحال ، وصرفت النظر عن مقابلة صديق أخي رشيد • ووصلنا الى الخان من خلال زقاق ضيق يتفرع من سوق السراي ، فاذا هو دار واسعة يتوسطها فناء ينفتح الى السماء ، وتتكدس على جوانبه أكياس وصناديق البضائع من كل نوع ولون ، وبين تلك البضائع ممرات ضيقة تنتهي بحجر موصدة أبوابها بأقفال ثقيلة ومحصنة نوافذها بقضبان من الحديد السميك • ويمكن أن يستبان من بين هذه القضبان ما في داخلها من أكياس التبغ ، وطبقات الجلود ، كما تنبعث من هذه الحجرات روائح الدباغة والمواد المتخمرة • ومن الجانب الأيمن من الفناء منفذ الى سلم يصل الى الطابق العلوي من الخان • ولهذا الطابق شرفة طويلة إلا أنها ليست عريضة تطوف حوله من ثلاثة جوانب ، وتنفذ إليها حجرات كثيرة تشغل بعضها مكاتب وبعضها الآخر بضائع مثيلة لما في حجرات

الطابق الأرضي • وقادني حارس الخان ومعي صديقي ناجي شاؤول الى حجرة صغيرة ليس فيها إلا نافذة واحدة الى جانب مدخلها مباشرة ، وهو يقول لنا:

— هذه هي الحجرة المعروضة للايجار ، وايجارها خمس روبيات في الاسبوع !

ولما كان هذا الايجار يناسبني إذا شاركني فيه صديقي ناجي ، فقد تم مع الحارس استئجارها ، وكان ذلك يوم الخميس ، فقال بأريحية طبيعية :

— هذا اليوم ويوم الجمعة لا يدخلان في الحساب ، أي ان دفع الايجار يكون في كل يوم سبت •

وتزاحمنا على شكره على هذا الكرم • وفي اليوم نفسه حملنا إليها أمتعتنا ، ولم يكن لي فيها أكثر من حقيبة معدنية صغيرة فيها ما كان عندي من الالبسة ، وسرير معدني بسيط وأفرشة محدودة ، وقليل من الكتب والدفاتر ، وبعض العظام البشرية التي أحتاجها عند قراءة مواضيع التشريح• وفي غضون يومين توضحت لي معالم الخان ومرافقه • كان الى جانب الغرفة التي نقلنا إليها أمتعتنا حجرة صغيرة يسكنها رجل مسن لا يخرج منها إلا والطربوش الأحمر يغطي رأسه حتى أذنيه ، كما كان يكثر من السعال خصوصاً في الليل ، ونسمعه يقذف من فيه قشعاً يتخلص منه بصعوبة • ويبدو أنه كان يجمعه في كأس معدني ، إذ أنني كثيراً ما أسمع حين ينتهي من نوبة السعال حركة غطاء ذلك الكأس على فوهته • أما الحجرة الملاصقة لحجرتنا فكانت مكتباً لمالك الخان • وهو من أثرياء الأكراد ومن كبار تجار التبغ في العراق • والى جانب هذا المكتب حجرة يعمل فيها رجلان يكثران من الخروج من هذه الحجرة أو الدخول إليها وهما يحملان في أيديهما دفاتر وكدس من الاوراق • وفي حجرة أخرى شخص يكسو رأسه بعمة مزركشة بلون الخردل ، لا نراه إلا إذا خرج من الحجرة ليتوضأ على الشرفة التي أمامها •

وكانت حجرة مالك الخان أكثر الحجر في الحركة وعلى مدى ساعات النهار ، فيدخلها ويخرج منها سيل من المراجعين لا ينقطع ، باستثناء أيام الجمع ، فاذا ضاقت حجرته بهم خرج بعضهم الى الشرفة ليقفوا وهم يسندون ظهورهم على جدران ونوافذ الحجر الأخرى ، حتى يصل طابورهم الى باب ونافذة الحجرة التي نسكنها ، ومن نافذة هذه الحجرة يلقون نظرة الى داخلها المعتم وهم يضيقون ما بين عيونهم ليتبينوا ما في داخلها . فاذا تعالت أصواتهم قمت الى النافذة وأغلقتها وأسدلت عليها الستارة ، فيدركون حينذاك ما يسببه لنا ضجيجهم من إزعاج ، فيبتعدون عن نافذة الحجرة ويخفضون من أصواتهم ، فتسود سكينة كالتي تعقب توقف الزوبعة .

وكان يتردد على الخان شاب في العقد الثالث من العمر ، مريح الطلعة ، وذو وجه باش ، وعينان نشطتان ، وقد استعلمت يوماً من حارس الخان عن هويته ، فأخبرني انه ابن مالك الخان ، وانه كان يدرس الطب في المانيا ، وعاد منها بعد عامين بسبب لوثة عقلية أعاقته عن متابعة الدراسة فيها . وسألت الحارس فيما اذا يكون من الميسور التحدث معه ، فأجابني قائلاً : بكل تأكيد ، فهو دمث ومؤدب ، وابن عائلة . ويوماً حييت ذلك الشاب وأنا أجتازه خارجاً من حجرتي ، فنظر الى وجهي وعلى فمه ابتسامة عذبة ، إلا انه لم يرد عليّ التحية . وتكررت تحياتي له في أيام تالية ، وتكررت ابتساماته لي دون كلام . وفي صباح يوم طلب مني حارس الخان أن أسدّ نافذة حجرتي وأسدل عليها الستارة إذا ما غادرت الغرفة الى الكلية . وبدا لي طلبه غريباً ، فقلت له :

ــ أنا مطمئن من أمانة المكان ، ثم لا شيء ذو أهمية مالية في حجرتي

فأجابني :

ــ ليس هذا ما قصدته ، والمكان أمين جداً ، بل ان (محمداً) ثار البارحة ثورة أخافتنا حين رأى من خلال النافذة العظام التي كانت على

منضدتك ، وصرخ وهاج وهو يشير باصبعه الى ما على منضدتك من عظام ..

وفعلت ما طلبه مني الحارس ، فلم أكن أغادر حجرتي في الصباح قبل أن أتأكد ان الجمجمة والعظام الأخرى بعيدة عن مرأى من ينظر الى داخل حجرتي ، وزيادة في الاحتياط وبسبب احتمال أني أنسى سد النافذة واسدال ستارتها ، صرت أضع تلك العظام تحت سريري . ولكني لم أر محمداً بعد ذلك ، فاستفسرت عن ذلك من حارس الخان فقال لي بحزن :

ـ أعيد محمد الى المانيا للمعالجة .

وحمدت الله ان تلك الأيام كانت في الاسبوع الأخير من أيام السنة ، فغادرت الخان عشية يوم انتهائها خشية أن أرى أو أتخيل على وجه مالك الخان ما يدل على أنني كنت سبب نكسة ولده محمد .

★ ★ ★

وكانت فرصة تناول الغداء خلال ساعات دوام الكلية بين الساعة الواحدة والثانية ، فنصل مسرعين أنا وصديقي كمال الى (مطعم العاصمة) لصاحبه (محمد تايه) بمحلة الميدان . ووجبة الطعام لكل منا يومئذ لا تزيد على نصف ماعون تمن ونصف ماعون خضرة ، وصمونة واحدة ونصف ماعون سلطة ، ومجموعها لا يكلف أكثر من مائة وخمسين فلساً . وارتأينا أنا وصديقي كمال أن نتناوب على دفع هذا المبلغ ، فيدفعه هو يوماً وأدفعه أنا في يوم آخر وهكذا ، وقد كثر ترددنا على هذا المطعم حتى صار النادل (سعيد) يولينا إهتماماً خاصاً ، فيسرع الى خدمتنا بعد أن عرف أن وقتنا للمجيء الى هذا المطعم ، وتناول غداءنا فيه محدود وقصير . وفي يوم ومن دون قصد مني لاحظت رجلين كانا كثيراً ما يكونا في هذا المطعم حين نكون نحن فيه ، وتكون طاولتهما قريبة من طاولتنا ، وهيئتهما وقيافتهما واحدة أو متقاربة ، وهي زبون وجاكيت و(جراوية) تكسو الرأس . ويبدو أنهما

لا يرتاحان إلا إذا تكلما بصوت عـالٍ ، كما كانا مثلنا لا يأكلان أكثر مما نأكل ، ولا يدفعان حسابهما أكثر مما ندفع • وكان اسم أحدهما على أكثر الاحتمال (صالح) واسم الآخر (خليل) لأنني كثيراً ما أسمع أحدهمـا يكني صاحبه بأبي (مهيدي) ، ويكني الآخر صاحبه بأبي (ابراهيم) ، فاذا أتمـا تناول غداءهما وكان على صالح أن يدفع الحساب في ذلك اليـوم لا ينسى قط أن يلتفت الى صاحبه خليل ويسأله :

ــ تحب تأكل بعد ؟

ويجيبه خليل :

ــ لا ، الحمد لله شبعت •

ويعود صالح يعزم عليه :

ــ بالله عليك يا أبا ابراهيم !

ويرفع خليل يده ويبسطها على صدره علامة الاكتفاء والامتنان ولايقول شيئاً آخر • ثم يودعان طاولتهما بتجشؤ عال • وفي اليوم التالي يفعل خليل ما فعله صالح بالأمس وهكـذا • ويكرر هذان الصـديقان هذه التمثيليـة بحماسة وتلذذ • ولا أذكر أن أحدهما قد طلب يوماً أكثر مما طلبه الآخـر من الطعام • ويوماً ونحن نتناول غداءنا جاءنا سعيد بماعون (حلاوة طحين) ووضعه باعتناء على طاولتنا وهو يقول هذه (أوجاغ) من استاذي • وعندما غادرنا المطعم شكرنا استاذه (محمد تايـه) فقال هذا بصوت مسـموع أخجلنـا :

ــ أنتم أولادي ، وهذا المطعم محلكـم ، بس أريدكم تشدّون حيلكـم بالامتحان ولا تفشلونا •

وكنا فعلاً على أهبة الامتحان •

أساتذة الصف الاول بكلية الطب

كان جميع أساتذة الصف الأول من الانكليز باستثناء الدكتور صـائب

شوكت • أما المساعدون في المختبرات فهم من نصارى تلكيف والآثوريين ومسلم واحد •• ولكل من هؤلاء ومن الأساتذة أيضاً صفات وخصوصيات تجعل لكل واحد منهم شخصية تجلب النظر •

(١) الأستاذ رايموند : وهو أستاذ الكيمياء اللا عضوية ، ومختبره فسيح في الدهليز الأيسر من الكلية ، وسقوفه عالية ، وفيه مناضد ثابتة تبرز من داخلها صنابير الغاز والماء فوق أحواض صغيرة من الخزف الأبيض• وفي صدر القاعة سبورة سوداء تغطي طول الجبهة وبعضاً من قسمها السفلي • كما ان على بعض المناضد موازين مختلفة الحجوم والأشكال •

والأستاذ رايموند في العقد الرابع من العمر ، انكليزي مثالي في تصفيف شعره وفي ملبسه ونطقه ، ويرتدي بزة مختبرية بلون الخاكي ، واذا خلعها ظهر سرواله محمولاً بربا ط يمر على كتفيه لينتهي عند محزم سرواله من الخلف • وكان في نطق رايموند لثغة بالثاء لا بالراء وهو يتعمد إخفاءها ليكون نطقه واضحاً في محاضرته • كما كان يكتب على السبورة السوداء ما يمر بمحاضرته من المصطلحات بحروف متقطعة • وكنت أستمتع بمحاضرته وبالتجارب المختبرية التي كان بعضها يشبه أعمال الحواة ، فقطرة واحدة من سائل عديم اللون يسقطها في قارورة مليئة بسائل عديم اللون أيضاً، فينقلب هذا السائل الى لون أحمر بلون الشقائق • وقد يدخل الى هذا المختبر بينما الأستاذ رايموند منهمك في تجربة كيماوية ، شخص أكبر عمراً من رايموند ، فيتقدم هذا منه باحترام ظاهر، ويتحدثان دقيقة أو أكثر ثم يغادر ذلك الشخص المختبر ورايموند يشيعه حتى بابه ، وعرفنا بعد انتهاء الدرس ان ذلك الشخص اسمه (باسيت) وهو أستاذ الكيمياء العضوية واللاعضوية ، وهو أكثر مثالية للانكليز من رايموند ؛ كث الشارب ، ويتدلى من بين شعرات شاربه غليون كبير الرأس أعوج المبسم ، ويرتدي صدرية بيضاء عليها أصابع متنافرة كثيرة من فعل سوائل الاختبار التي يستعملها في مختبره •

والأستاذ (باسيت) هو الذي صنع معادلة المادة المشهورة باسم (أمشى) التي أصدرتها شركة النفط العراقية لابادة الذباب ، وقد كرّمته هذه الشركة بمبلغ كبير من الروبيات •

(٢) الأستاذ هولمز ـ وهو أسكوتلندي صغير الحجم ، معروق الوجه ، في نحو الاربعين من عمره ويحمل جميع الشهادات البريطانية ابتداءً من البكلوريوس وحتى الزمالة والعضوية في الطب وفي الجراحة وفي الأمراض النسائية ، كما يحمل شهادتي الدكتوراه والماجستير في الطب والجراحة بالتتابع، وهما أعلى الشهادات البريطانية ، والحصول على اي منهما ليس بالأمر السهل • وكان يوم دخلت كلية الطب أستاذ الامراض النسائيةوالتوليد للصفين الرابع والخامس ، الى جانب تدريس التشريح النظري للصف الأول• وكانت قاعة هذا الدرس هي الوحيدة المدرّجة في الكلية،ومشيدة على شكل نصف دائرة تحف بموقع المحاضر ، ومن ورائه السبورة السوداء ،ومن أمامه طاولة خزفية بيضاء توضع عليها جثة الانسان تحت الدرس • كما يحضر هذا الدرس من غير الطلاب الفراش (شابا) مضمد قاعة التشريح العملي ، عاريا إلا من لباس قصير ، بالكاد يستر عورته ، فاذا شرح هولمز عضلة من عضلات الجسم خطّ بطرف عصاه على موضع ومسرى تلك العضلة في جسم شابة • وعموماً كانت لهجة هولمز الاسكوتلندية غير مفهومة تماماً بالنسبة لي • وعدد محاضراته النظرية على مدى السنة الأولى بمعدل ساعة واحدة في صباح كل يوم بين الساعة الثامنة والتاسعة •

(٣) الدكتور صائب شوكت :- وهو من أسرة عراقية لها قدم في تاريخ بغداد أيام الحكم العثماني ، وقد ولد في بغداد ونشأ في كنف أبيه شوكت پاشا ، ودرس الطب في استانبول وأتم تعلمه في برلين ، وعاد الى بغداد سنة ١٩٢٠ ، وعمل أولاً جراحاً في (المستشفى العام الجديد) المعروف اختصاراً بـ (N.G.H) أي New General Hospital الواقع على الطريق الترابي الذي بين بغداد ـ الاعظمية ، ثم انتقل الى

المستشفى الملكي (المجيدية) بعد أن غادرها الطاقم الطبي العسكري الانكليزي الى منطقة الهنيدي• وكان من أترابه في المستشفيين الدكتور ذنوب والدكتور (داود نسيم) والمضمد ملا خضر • وحين التحقت بكلية الطب كان الدكتور صائب رئيسا للوحدة الجراحية الثانية في المستشفى الملكي ثم تولى تدريس التشريح العملي للصف الاول ، والجراحة السريرية للصفين الخامس والسادس • كما تولى بعد ذلك عمادة الكلية الطبية مرتين • وللدكتور صائب شوكت فضائل كثيرة خدمت كلية الطب والمستشفى سأجيء الى ذكرها فيما يأتي ••

(٤) ملا خضر ، وملا يوسف ، ومروكي ، وشابة : ليس أي واحد من هذه الذوات طبيباً ، بل كانوا يعملون بخدمه من يدرس التشريح في الكلية الطبية • وقد صارت لكل منهم خبرة تكفي لاستبقائهم في الكلية حتى تقاعدوا في عمر متقدم •

وملا خضر أبرزهم وأقدمهم في المحيط الطبي ، فقد عمل مضمداً في (المستشفى العام الجديد) أربع سنوات قبل افتتاح مستشفى المجيدية (الملكي ثم الجمهوري بعد ذلك) • ويكنى ملا خضر بأبي عبد ، ويناديه من في الكلية باسم الملا اختصاراً • وابنه عبد أحد سائقي سيارات الاسعاف في المستشفى الملكي وينظر اليه أطباء المستشفى بعين الرضا تقديراً لأبيه الملا خضر • والملا خضر من جانب الكرخ ، وكان يوم دخلت كلية الطب في عمر الخمسين ، بديناً ، وذا بطن كبيرة هي أكبر قسم في جسمه • ويلف رأسه بعمة خردلية اللون كالتي يلبسها حجيج بيت الله الحرام • وعيناه دوماً دامعتان ، وأجفانه منتفخة وبخاصة السفليتان ، ويكثر الملا مسحها بمنديل لا لون له • أما بطنه المنتفخ كبطون الحوامل فيرفعها بحزام بلون عمته غير انه يتهدل الى مستوى السرة أو أخفض •

وملا خضر خفيف الروح وحلو النكتة • وهو أميّ غير انه يدعي قراءة

القرآن الكريم ويجوّده ، ويشير الى ان لقب الملا قد جاءه عن هذا الطريـق لا لأنه يعمل في قاعة الأموات بكلية الطب • ويطوف الملا بين مناضد الطلاب في قاعة التشريح ليساعدهم على نقل قطع الجثث من طاولة الى طاولة ، فاذا دخل الدكتور صائب القاعة انسحب الملا خضر ليقف على باب القاعة جامدا كالتمثال ، فلا يتحرك ولا يرف له طرف • ويتساهل في ضبط موقفـه حين تنحدر دموعه على خديه ، حين ذاك يرفع يديه ليمسحها بكفه أو بمنديله • فاذا غادر الدكتور صائب القاعة انطلق الملا من موقعه واستعاد حريتـه مع الطلبة • ولا يفوته أن يذكر فقرات من تاريخه الأول في (المستشفى الجديد العام) وفي (المستشفى الخاص) الذي أقيم في مكان هو اليـوم دائـرة المحاكم القريبة من سوق السراي •

وفي قاعة التشريح الى جانب الملا خضر شخصان آخران يعمـلان في تحضير الجثث ليدرس عليها طلبة الكلية،أحدهما كريم العين اسمه (مروكي) والثاني كبير الرأس ، أحمر الوجه متين البنية (اسمه شابه) وكلاهما في العقد الثالث من العمر • وبينهما وبين الملا تفاهم في توزيع الاعمال بالقاعة ، وكان لا يصيب الملا خضر إلا الأقل من تلك الاعمال •• وكان مروكي في كل يوم خميس يجمع صدريات الطلاب البيض ويأخذها الى بيته ليغسلها ويكويهـا لقاء عشرين فلساً عن الصدرية الواحدة • وكان للملا خضر نصيب معين من هذه الأجور ولو انه لا يشارك في عملياتها إلا بجمع الصدريات وتسليمها الى مروكي ، كما كان الثلاثة المذكورون يجمعون عظام الجثث التي ينتهـي من دراستها طلبة القاعة فيسلخون عنها ما بقي من لحم ثم يسلقونها بماء حـار لازالة أجزاء اللحم الدقيقة العالقة بها ، وبعد ذلك يحملونها الى سطح الكلية وينشرونها مكشوفة للهواء والشمس اسبوعاً أو أكثر من الأيام • وذات يوم وقع خلاف بين الملا وكل من مروكي وشابة ، اتهم فيه الملا زميليـه بسرقة بعض العظام وبيعها خفية عنه الى الطلاب • وكاد الخلاف يؤدي بهم الى ما

لا يحمد عقباه ، حتى لطف الله واكتشف مروكي ان طائر (العقعق) كان ينقل بعض العظام وهي في طراوتها ويأخذها بعيدا عن مكانها • ومن ذلك اليوم كانوا ينشرون العظام تحت شبكة معدنية لتبعد العظام عن مناقير تلك الطيور.

أما الملا يوسف فهو الآخر شخصية تلفت النظر • وظيفته أن يحمل من يموت في المستشفى حين يتوانى ذووه عن اخذه لضيق يدهم ، فاذا راجعوا المستشفى بعد ذلك قيل لهم ان المستشفى قبرتهم على الطريقة الاسلامية في مقبرة خاصة بهم وبأمثالهم،بينما الحقيقة ان امرهم يؤول الى نقالة يستحضرها الملا يوسف ليحملهم الى كلية الطب • فاذا اقترب الملا يوسف بنقالته من الكلية شرع يرثيهم بصوت حزين رخيم كما لو كان المتوفى من أهله • ويتوقف الملا يوسف أحيانا في طريقه الطويل الى الكلية ليلطم بكفيه صدره حزنا على الفقيد المسجى على النقالة ، وهو بالطبع لا يعرف عن هذا الذي ينعيه ، واذا وصل مدخل الكلية طلب بلغته المعهودة ممن عليها أن يفسحوا الطريق لمرور (فارس الفرسان والمقدام الطعان الى دار الآخرة وفسيح الجنان) ويسمعه الملا خضر ويطلع عليه ليتسلم منه الجثة وينقلها الى حيث تفرغ أوعيتها من الدم ثم يحقنها بمادة كيماوية لكي لا يصل العفن والتفسخ إليها ثم يرميها في حوض كبير مليء بمحلول الفورمالين ، ومنه ترفع وتوضع على مناضد التشريح في قاعة الدرس •

الملك فيصل الاول في قاعة التشريح

اعتاد الملك فيصل الأول زيارة الكلية في بداية كل عام دراسي ، فيزور أول ما يزوره قاعة التشريح حين يكون الطلبة فيها منهمكين بتشريح الجثث، وساعات درس التشريح العملي دوماً بعد الظهر ، أما الدروس الأخرى النظرية فجدولها في ساعات قبل الظهر ، وهذه لا متعة فيها لغير الاختصاصيين بينما التشريح العملي موضوع مشوق لحد ما • كما ان في حضور الملك في ساعات هذا الدرس شيء من التشجيع لمن يخشى الأموات من الطلبة ،

ومن هذا حضر الملك زياراته التقليدية للكلية في ساعات درس التشريح •

وذات يوم في الاسبوع الأول من بدء الدراسة في الكلية دخل العميد الاستاذ سندرسن قاعة التشريح ، وقصد رأساً الدكتور صائب شوكت الذي كان في تلك اللحظات يجلس على كرسي في زاوية من زوايا القاعة ،واسترعى انتباهي أنه لم ينهض عن كرسيه ليستقبل الدكتور سندرسن وإنما اكتفى بابتسامة خفيفة اعتيادية ، وتكلم الاثنان بتبسط ، وظل الدكتور صائب في خلال ذلك جالساً في مكانه • ثم قام وتوجه هو والدكتور سندرسن الى باب القاعة وغادراها • وتحرك الملا خضر من مكانه عند الباب ليخطرنا أن الملك فيصل الأول سيحضر الى القاعة ويتحدث الى طلبتها • وسألنا الملا خضر باستغراب :

ــ الملك يحضر الى هنا ؟

فأجابنا وهو يدعك عينيه بمنديله الأحمر الكبير :

ــ إنه يفعل ذلك في كل سنة في مثل هذه الأيام •

وعدنا نسأله :

ــ من قال لك أنه سيحضر ؟

وأجابنا باختصار :

ــ الباشا •

وهو يقصد سندرسن باشا •

وعاد الملا الى مكانه عند الباب ، وأخذ يعدل من وضع عمته على رأسه ، ويرفع حزامه العريض المتدلي على أسفل بطنه المنتفخ ، وبعد ذلك انمسخ تمثالاً لا حراك فيه • ولم يطل الوقت حتى انفتح باب القاعة وطلع علينا الملك فيصل وأعقبه الدكتور سندرسن ثم الدكتور صائب ••

وكان على رأس الملك سدارة تبنية اللون من صنع أكراد الشمال ، المعروف بـ (الچبن) تطول على رأسه إصبعاً من الأمام وإصبعاً من خلف

رأسه • ويرتدي بدلة من القز بلون طحين الحنطة • وقد بدا لي أقصر قامة وأنحف عودا مما كنت رأيته سابقاً •

وتقدم الملك من مناضد التشريح باشا ، ووقف عند واحدة منها وهو يرنو الى الجثة التي عليها ، ممسكا باصابع يمناه بلحيته المدببة التي وخطها الشيب في كل مكان فيها • وكان في أيدي طلبة تلك الطاولة فص من فصوص الدماغ • فتقدم سندرسن يشرح للملك :

— هذا هو الدماغ البشري • واستمر يقول : تصل الى هذا الدماغ حزم من الأعصاب تنقل إليه أخبار الجسم وتأخذ منه أوامره •••

ولم ينتظر الملك ما يريد أن يزيده سندرسن على كلامه فأهمله وتقدم من طاولة أخرى كنت أنا أحد أربعة عليها ، وسأل رفيقي كمال نورالدين بلغة انكليزية لا تخلو من النبرة البدوية :

— هل تحب موضوع التشريح ؟

فأجابه كمال بالانكليزية أيضاً :

— نعم يا سيدي الملك •

وضحك الملك وضرب بكفه بخفة على كتف كمال وتحرك في اتجاه طاولة أخرى ثم الى باب القاعة ووقف أمام الملا خضر برهة ، وكان ظهر الملك في اتجاهنا فلم نرَ وجهه وهو ينظر الى الملا خضر ، ولا سمعنا ما قال له ، غير أننا رأينا الملا يبتسم له حتى بانت نواجذه الذهبية ، ولما غادر الملك القاعة سأل أحد الطلبة الخبثاء الملا خضر :

— أكيد عزمك الملك على العشاء في هذا اليوم يا ملا !

فأجابه الملا حالاً :

— هذا صحيح ، ولكنني اعتذرت منه لأنني مشغول هذه الليلة ومرتبط بموعد مسبق ، ثم أني تعشيت معه يوم البارحة ، وتكراره بهذه السرعة يجعلني أمل صحبة الملك !!

نعم كان الملا خضر سريع الجواب خفيف الروح حقاً ..

أول فتاة تدخل كلية الطب/ ١٩٣٣

في السنة الثانية بعد دخولي الى كلية الطب فوجىء الطلاب بوجود فتاة في (الصف الأول) بدرس التشريح النظري الذي يشترك فيه الصفان الاول والثاني . وحدث همس وتساؤلات فيما عسى أن تكون هذه الفتاة ، هل هي زائرة أم طالبة ؟ طبيبة أم موظفة في دائرة العمادة ؟ فعرفنا بسهولة أن اسمها (ملك) ، وانها ابنة رزوق غنام صاحب جريدة العراق . وكانت هذه الفتاة تتحرك باتزان وتبتسم باحتشام ، وتتكلم بجرس خفيض ، ففرضت علينا أن ننظر إليها بأدب ورزانة . غير ان ذلك لم يمنعنا أن ننظر اليها كفتاة لا كطالبة زميلة فحسب ، فضلاً عن كونها الوحيدة من بنات جنسها بين طلبة الكلية الشباب ، فاذا ترجّلت من العربة التي تقلها الى باب الكلية في صباح كل يوم ، وارتفع طرف فستانها بحكم نزولها من العربة الى أعلى كعب قدميها أو الى قدر من ساقيها ، فيكون ذلك مشهداً مثيراً تترقبه بلهفة وفضول .

كانت الآنسة ملك غنام أول فتاة عراقية تدخل كلية الطب في بغداد ، ثم كانت أول طبيبة تخرجت فيها . وكانت أيام تلمذتها ملتزمة بدقة في دوامها ، وحريصة على ضبط محاضرات الأساتذة . ولا تختلط بأترابها من الطلبة إلا بقدر ما تضطرها الحاجة العلمية ، أو الأمور المدرسية . غير أن ثمة حدث التصق بها لا بأس من أن أذكره فيما يأتي :

كان يزامل الآنسة ملك غنام في الصف طالب اسمه إبراهيم (...) ، وهو قصير القامة ، نحيف العود ، وكأنه طير حمام معطوش جائع ، كما كان منطوياً على نفسه ، فلا يشارك زملاءه على المصطبات التي يجلسون عليها في حدائق الكلية بل يتخذ له مكاناً قصياً عنهم على قدر إمكانه . وفوجىء الطلبة ذات يوم مشمس من أيام الشتاء حين رأوا إبراهيم يدخل الساحة مسرعاً ، ويخطو عليها بضع خطوات ثم يقفز في الهواء وينقلب قبل أن تلامس

قدماه الأرض • وكانت هذه حركة بهلوانية بارعة دهشوا لها ، ومع ذلك لم يبد على وجه إبراهيم استجابة لإعجابهم بتلك الحـركة ، بل مشى بتوءدة وأخذ مكانه قصياً على إحدى المصاطب المنعزلة ، وكأنه لم يفعل شـيئاً ، أو انه فعل شيئاً إعتيادياً بالنسبة اليه • ولاحـظ الطلبـة بعد تكرار إبراهيـم حركاته البهلوانية ، انه لا يمارسها إلا إذا كانت الآنسـة ملك غنام موجودة على إحدى مصاطب الساحة • كما تأكدوا بملاحظة انفعالات إبراهيم انه يحب الآنسة ملك ، على انهما لم يحدث ان انفردا معاً في أي مكان في الكليـة ، بل كان كل ما توصل اليه هذا المحب اختلاس النظر اليها وهو يرتجف بعد أداء حركته البهلوانية • وحين بدا للآنسـة ملك غنام أن زميلهـا إبراهيـم البهلواني كان لا ينفك يسترق النظر اليها بشكل خاص ، لم ترتح له،وصارت حركته البهلوانية تحرجها، وهو مصر أن يعملها لاستجلاب نظرها إليه باعجاب على حد ظنه • فكانت على ذلك إذا رأته مقبلاً على الساحة غادرتهـا الى داخل الكلية ، وهكذا صارت تتجنبه بشكل مفضوح • وفوجئنا ذات يـوم حين سمعنا أن إبراهيم قصد مقابلة أبا ملك غنام ليخطب إبنته لنفسه،وقال له (على ما رُوي) :

— انني عرفت جيداً أخلاق كريستكم ، كما أعتقد أنها عرفت ما يكفي عني لأكون زوجها !

فدهش رزوق غنام مما يعرضه هذا الخاطب ، فسأله :

— مَن أنت يا ولدي ، وما هو اسمك وما هو عملك ؟

فأجابه إبراهيم :

— أنا زميل كريستكم ملك بكلية الطب واسمي إبراهيم وأنا وهي في صف واحد في الكلية •

ولرزوق غنام عمر وتجربة في الحياة أكسباه خبرة في تعاملـه مـع النـاس ، فقال له :

— إذا كنتما متفاهمين فأنا لا أقف معارضاً لزواجكما على أن تكملا الدراسة في الكلية ، أولاً •

فما كان من إبراهيم إلا أن نهض وأسرع يقبل يد (عمه المقبل) رزوق غنام ، ثم خرج مهرولاً يستخفه الفرح والطرب لموافقة أبي ملك على الزواج من إبنته !• أما رزوق غنام فجمد مبهوتاً من حكاية إبراهيم ، وانتظر بفارغ الصبر عودة ابنته ملك من الكلية ليسمع منها كامل ادعاءات إبراهيم وطلباته • فأخبرته تفاصيل الموضوع ، وتصرفات هذا الشاب وحركاته المضحكة أمامها بحضور طلبة الكلية • فضحك رزوق غنام وعدّ هذا الموضوع غير ذي أهمية جملةً وتفصيلاً ، واكتفى بتوصية ابنته ملك أن تتجنب ذلك الشاب • على ان إبراهيم ، وهو مسحور بوعد رزوق غنام في الزواج من إبنته ، استمر يمارس حركاته البهلوانية إذا رأى ملك غنام في ساحة الكلية أو قريباً منها •

ويتصل بموضوع إبراهيم العاشق الولهان حكاية غريبة تثير الضحك • فقد كان زميلي في الصف أكرم القيماقچي قد سمع عن قفزات إبراهيم البهلوانية البارعة ، ولم يكن قد عرفه قبلاً ولا رآه يقفز في الهواء كما وُصف له • وحدث حين كان الطلاب على المصاطب التي تحيط بساحة الكلية أن قدم الطالب (إبراهيم أسعد) ، وهو شاب متزمت لا يميل الى الهزل والنكت فظنه أكرم القيماقچي أنه هو إبراهيم البهلوان ، فقال له :

— برهوم ، فرد دقلة دقلتين رجاءً !

فاستغرب إبراهيم أسعد أن يطلب أكرم منه ذلك ، وليس بينهما تعارف سابق ، وعدّ طلبه نوعاً من سوء الأدب ، فأسرعنا نفهم أكرم القيماقچي اللبس الذي وقع فيه فاعتذر من إبراهيم أسعد ، وهكذا انتهى الأمر بسلام•

من أحداث السنة الثانية بكلية الطب

في السنة الثانية يشترك الصفان الأول والثاني في حصص التشريح

العملي . وفي هذه السنة تعرفت بتلميذ في الصف الأول اسمه (ح) وهو قريب من عمري ويتمتع بصبر على القراءة وذكاء ملحوظ ، وتفكير رياضي، ورُفعت فيما بيني وبينه الكلفة بوقت قصير ، وصرنا تتقابل بكثرة لنمرح أو لنقرأ ، فكان الى جانب صديقي كمال نورالدين نعم الصديق الجديد . وعرّفني (ح) بصديق له يدرس بكلية الحقوق ، ويسكن في غرفة فوق مدخل (الكراج الملوكي) الذي يقابل دار الطلبة في منطقة باب المعظم . وفي يوم حدث أمر في غرفة هذا الصديق لا يزال يضحكني إذا ما تذكرته ، ولا مانع من ذكره هنا لما فيه من غرابة وطرافة . فقد دعانا صديق (ح) الى غرفته لتناول الشاي ، وكان لغرفته نافذة تطل على سطح جانبها الأيمن ، فأبدى (ح) ملاحظة على مكان هذه النافذة ، يقول :

— إن هذه النافذة مدخل سهل لمن يريد أن يسرق ما في هذه الغرفة .

فقال صديقه صاحب الغرفة :

— ولكن قضبان الحديد في هذه النافذة متقاربة لا تسع مرور رأس رجل.

فقال له (ح) مخالفاً :

— تراهن أخرج من بينها !

وقبل صاحب الغرفة الرهان على غداء في مطعم محمد تايه ، وشرع (ح) حالاً يدس رأسه بين قضيبين من قضبان النافذة ، وبعد ثوان كان رأسه قد خرج من بينها ، ثم حاول أن يخرج يديه فصعب عليه ذلك ، وحاول أن يسحب رأسه ويرجعه الى داخل الغرفة فعجز ، وحاول مرة أخرى وأخرى فلم يفلح ، وأخيراً استنجد بنا لنخلصه من هذه الورطة ، وحرنا فيما نفعله ، فاضطررنا أخيراً أن نطلب مساعدة صاحب الكراج ، فصعد الى الغرفة ليرى الموقف ، فتعجب منه ، وسألنا :

— ماذا كان قصدكم من هذه المخاطرة يا اخواني ؟

— مجرد لعبة !

فقال صاحب الكراج :

ـ هذه لعبة أطفال ، وأنتم كبار !

وحكّ صاحب الكراج رأسه ليجد حلاً للموقف ثم قال لنا :

ـ دقيقة ..

وغادرنا الى ورشته في الكراج ، وعاد إلينا وبيده رافعة (جك) سيارة وثبّته بين القضيبين اللذين انحشر بينهما رأس (ح) ، وبحركتين في مقبض الرافعة استطاع (ح) أن يحرر رأسه . وغادرنا صاحب الكراج وهو يقول قبل أن يسمع منا شكرنا له :

ـ هذا لعب أطفال ..

ولما أفاق (ح) من أزمته المخيفة ، وتنفس الصعداء قال لنا بغضبوعتب:

ـ لماذا أخبرتم صاحب الكراج ؟

ـ كدت تختنق يا (ح) .

فقال :

ـ لو انتظرتم قليلاً لأخرجت رأسي بنفسي كما أدخلته بنفسي .

فسأله الصديق صاحب الغرفة :

ـ والرهان على تناول الغداء في مطعم محمد تايه ؟

فأجابه :

ـ أنا في حل منه عقاباً على استدعائكم لصاحب الكراج !



وكان (ح) ممسكاً الى حد التقتير على نفسه مع انه من بيت ميسور الى حد ما ، فكان يأخذ مسطرة من مختبر الفيزياء بكلية الطب الى حيث يسكن، ثم يعيدها في صباح اليوم التالي الى حيث كانت في مختبرالكيمياء ، وفي يوم رآه أستاذ الكيمياء رايموند يدس المسطرة في ما بين جسده وقميصه ، فقبض عليه متلبساً بجريمة السرقة ، ورفع خبر ما حدث الى

العمادة فقرر مجلس العمادة طرده ما بقي من السنة ، وأن يعيد هذه السنة عقاباً على ما فعله • ولأننا نعرف يقيناً أن (ح) لم يقصد سرقة المسطرة بل لاستعمالها خارج الكلية ثم إعادتها الى مكانها في مختبر الكيمياء ، فقررت أنا وكمال نورالدين ومحمد صالح محمود أن نقابل العميد ونستعطفه لإبدال العقوبة بأخف منها غير أن العميد سندرسن لم يقتنع بدفاعنا عن (ح) وصار يقاطعنا بتكرار ، فانسحبنا من حضرته بعد أن عرفنا تمسكه بتطبيق قرار مجلس الكلية ، وسمعناه يقول ونحن نغادر غرفته :

— كان يجب أن يطلب الإذن من السكرتير لاستعارة المسطرة ولا بد من تطبيق قرار مجلس الكلية ، ولا رجعة عنه •

وتوسط أحد أعضاء مجلس الأعيان لدى الملك فيصل الأول ، غير أن سندرسن أقنع الملك ان العقوبة في صالح الكلية ، ورفع العقوبة في صالح هذا الطالب وحده • وأنفذت العمادة قرارها فأعاد (ح) السنة • وحتى ذلك اليوم لم نكن نعرف محل سكنى (ح) فلما افتقدناه بموجب قرار مجلس العمادة رأينا أن نزوره ، ولكي نعرف محل سكناه توجهنا الى صديقه في (الكراج الملوكي) فعلمنا منه انه استأجر (لوري) عاطل في آخر الكراج ، وجهزه بالستائر وبسرير ليكون صالحاً للاقامة فيه • وقصدنا ذلك اللوري فوجدناه خالياً لا أثر فيه لصديقنا (ح) • وسألنا صاحب الكراج عنه فأخبرنا انه سافر الى الموصل •

وفي حرب مايس ١٩٤١ بمنطقة التاجي صار على بعض خريجي كلية الطب في تلك السنة أن يلتحقوا بالجيش العراقي في تلك المنطقة ، وكان على الدكتور موفق الزهاوي أن يكون أول من يلتحق بالجيش من تلك الفئة • وحدث أن مرض الدكتور الزهاوي فحلّ محله الدكتور (ح) • وانسحب الجيش العراقي من التاجي ولم يكن فيه الدكتور (ح) وقد عُدّ من المفقودين •

وبعد يومين عثر فلاحو المنطقة على جسمه في حفرة وقد قصمت ظهره شظية مدفع ، فكان خبره مفجعاً أليماً لكل من يعرفه من طلبة الكلية .

نصرت عبدالحميد

في شهر كانون الاول من هذه السنة كنت أسكن في غرفة صغيرة بفندق (دجلة) الواقع على رقبة جسر الملك فيصل، مقابل (مطعم درويش وحداد) على الجانب الثاني من الطريق . وقد تعرفت في هذا الفندق على تلميذ في الصف الثاني بكلية الطب اسمه نصرت عبدالحميد ، ولمست منه منذ المقابلة الاولى الصدق والتسامح مع خفة الروح ، وسرعان ما ارتبطت بيننا صداقة اشتدت بمرور الأيام . وبعد سنة من زواجي تزوج نصرت من ابنة عمه التي هي ابنة خالته في الوقت نفسه ، وصار بين أهله وأهلي تزاور واتصالات لا تنقطع . كما صرنا بعد ذلك نسافر معاً الى لبنان والى انكلترا ، ونمرح ما طاب لنا المرح ، ودامت صداقتي معه بهذا الحال حتى وفاته سنة ١٩٧٥ وقد شعرت حينذاك كأنه أخذ معه شيئاً مني ، كما أشعر أحياناً أنني استبقيت قدراً من أخلاقه لنفسي ، وبكيت لرحيله بحرقة وألم . وكان هذا الصديق الغالي ملحماً ضخم الجثة ، طويل القامة ، ولي صورة فوتوغرافية معه وهو يحملني على ساعديه كما تحمل المرأة صغيرها . وحين تزوج كان وزنه مائة كيلوغرام أكثر من وزن زوجته الذي لم يكن يزيد على اثنين وأربعين . وصرنا على ذلك الفارق نتندر فيما بين أهله وأهلي ، فيرد علينا ببرود :

ــ عين الحسود بيها عود !

وأكثر ضخام الجسم وأصحاب السمنة خفيفو الروح ، وحاضرو الجواب والنكتة ، ويجيدون سرد الفكاهة وعمل المقالب البريئة . كما ان لهم قدرة على تنظيم حياتهم الخاصة والعائلية ، فيقل فيها الصخب والمشاكسة. وقد يثورون إذا ديست أطراف أصابعهم بتعمد، ولكنها ثورة لا تدوم طويلاً،

فيعودون الى سوي تصرفهم وبرودة طباعهم • وكان صديقي نصرت نموذجاً مثالياً لهذه الفئة ، ومجلسه ممتع وأحاديثه شائقة ، ويجيد سرد القصة والنكت بسلاسة وطلاوة ، وكثيراً ما يثير معي جدلاً أخوياً مفتعلاً إذا لم يكن بيننا موضوع ذو أهمية ، فيدعي انه أصغر مني عمراً وأدعي أنا أنني أصغر منه ، ويوماً كنا في مطعم الكرمة في بحمدون بلبنان ، وقدّم لنا (السفرجي) بعد وجبة الغداء خوختين في طبق ، كانت إحداهما أكبر من الأخرى وأكثر طراوة وأغنى عصيراً ، فامتدت يد نصرت بسرعة الى الخوخة الكبيرة ، فأمسكت بيده وأنا أقول له :

ـ بأي حق تأخذ الخوخة الكبيرة ؟

فأجابني حالاً :

ـ لأنني أكبر منك ••

فقلت له :

ـ أنت على حق ، وهذا اعتراف يهمني ، فأنا إذن أصغر منك عمراً يا نصرت

فقال على الفور :

ـ أنا أكبر منك حجماً لا عمراً ، وهذه وجهة الحق لتكون الخوخة الكبيرة من نصيبي • وشرع يقطعها بتباهٍ الى أربع قطع ، ثم قطّع واحدة من هذه القطع الأربع بشكل هلال العيد ودفعها الى فمي وهو يقول لي :

ـ هذا حق الله ، فلا تنزعج ••

ونصرت من جهة أخرى ، جاد وإيجابي ، وهو كموظف حكومي مثالي وملتزم الى أبعد الحدود ، ودون اجتهاد أو تطوير ، وهو أيضاً كربّ عائلة يحسب لكل أمر حسابه •

وفاة عمي حسين في المستشفى الملكي/١٩٣٤

لا أذكر حادثاً خاصاً هزّني عاطفياً في هذه السنة سوى وفاة عمي حسين (حسوني) ، فقد أُدخل الى المستشفى الملكي لعلاجه من حصاة في مثانته ،

وجاءني عمي (محمد علي) ، وهو أكبر منه ، صباح يوم قائض الى كليـة الطب وأنبأني وهو يمسح بيشماغه دمعة تفيض من عينيه :

ـ عمك حسين في المستشفى ، وحالته خطرة يا كمال ..

ولم أكن أعرف قبل ذلك أن عمـي الذي يتكلـم عنه قد أُدخـل الى المستشفى ، فسألته :

ـ ماذا تقصد يا عمي ؟

ـ عمك حسين في (قاووش) رقم خمسة، قد أجريت له عملية في مثانته وهو الآن بحالة سيئة جداً .

كان هذا النبأ مفاجئاً ومحزناً لي ، فقد كنت في صغري متعلقاً به كما انه كان يحبني ويدللني . ولكن ماذا أستطيع أن أفعل لأجله الآن وأنا طالب لا أعرف من أطباء المستشفى الملكي أحداً ، بل اني الى ذلك اليوم لم أدخل هذا المستشفى ولا أعرف الدرب الى ردهاته . وخطر ببالي حالاً احتمال أن يؤتى به يوماً الى قاعة التشريح بكلية الطب كجثة لا تُعرف هويتها ولا أهلها فيعمل الطلاب فيه تقطيعاً على مرأى مني وفي هذا موتي إن لم أترك الكلية. فذهبت بهذا الهاجس مع عمي محمد علي الى المستشفى دون أن تكون لي فكرة عما أستطيع عمله لعمي المريض . وقادني عمي محمد علي الى الردهة الخامسة حيث يرقد عمي حسين على أحد أسرتها . وكانت تقف على بـاب غرفة صغيرة في مدخل الردهة راهبة فرنسية بدينة وعبوس بصرامة. وسمعتها تتكلم مع أحد خدم المستشفى فاذا هي لا تعرف من اللغة العربية إلا بعض المفردات العامية الخشنة . ورأيت عمي في سريره وأنا واقـف عند مدخل الردهة ، وهو يتلوى من الألم وعلى وجهه علامات الاسترحام والاستنجاد، فتقدمت من تلك الراهبة العبوس وقلت لها :

ـ أنا طالب بكلية الطب وأريد أن أرى عمي المريض في هذه الردهة .

فقالت لي بجفـاء :

ـ ممنوع !

ـ ولكنه في حالة خطرة •

وعدت أقف خائباً الى جانب عمي عند مدخل الردهة • ورأيت من بعيد مضمداً كان يوماً بصحبة (الملا يوسف) الذي يدفع عربة الموتى الى قاعـة التشريح في الكلية ، فاتجهت نحو هذا المضمد لأطلب مساعدته لرؤية عمي ، فقال لي : انتظر حتى تغادر رئيسة الممرضات الفرنسية لتناول غداءها•وخرج من الردهة في هذه اللحظات طبيب أشقر الشعر وردي البشرة ، يتبختـر في مشيته وبنظراته المتعالية ، فندسني عمي بكوعه وهو يقول لي :

ـ هذا هو الطبيب الذي أجرى العملية لعمك ، فاسأله عن حالته ••

فتقدمت من ذلك الطبيب بوجل وتردد ، وخاطبته بمسكنة :

ـ دكتور من فضلك ، أريد أن أسألك عن عمي وهو مريضك في الردهة•

ولا شك انه سمعني غير انه لم يلتفت إليَّ ولم يجبني ، ومشـيت الى جانبه وهو يخطو في الممر (الكوريدور) الطويل ، وعدت أكلمه :

ـ دكتور ، أنا طالب في الكلية الطبية ، وعمي في ردهتـك ، وأنت الذي أجريت له العملية •

غير أن هذا الطبيب لم يلتفت إليَّ وكأنه قد دسَّ سبابتيه في أذنيـه ، واستمر يمشي حتى دخل غرفة ألصقت على بابها لافتة تحمل اسم (الدكتور شاكر السويدي) ، وصفق بابها وراءه في وجهي • وعدت أدراجي لأقـف مرة أخرى الى جانب عمي محمد علي عند باب الردهة لأنظر من بعيـد الى عمي المريض وهو يتلوى في فراشه • وحين غادرت رئيسة الممرضات الفرنسية غرفتها الصغيرة متجهة نحو دار الراهبات ، جاءني ذلك المضمـد الذي خلتُ أنه يعرفني طالباً في كلية الطب ، ووقـف الى جانب عمي وأسرَّ له شيئاً لم أهتم لسماعه لانشغال فكري بأمر عمي المريض ، ثم رأيت عمي محمد علي

يخرج يده من جيبه ويدسها في يد ذلك المضمد • حين ذاك تحرك ذلك المضمد واشار الى عمي أن يتبعه ، وبقيت أنا وحدي عند مدخل الردهة أنظر اليهما من بعيد ، ورأيت عمي محمد علي ينحني على رأس أخيه ويقبله، ثم تناول مروحة معمولة من الخوص كانت الى جانبه وشرع يحركها على وجه أخيه المريض وهو يمر بيشماغه على عينيه ، وبعد نحو دقيقة أخذ ذلك المضمد بيد عمي محمد علي ليبعده عن عمي حسين ، وعمي محمد علي يقاومه ليبقى الى جانب أخيه المريض ، وأخيرا غادر عمي الردهة والمضمد يقوده من عضده وهو يقول له :

ـ استهدي بالرحمن يا مسلم •

وعلى مدخل الردهة وقف عمي يبكي بصمت ويضرب بجمع يمناه على صدره ، ويقول لي :

ـ عمك حسين يحتضر يا كمال •

فأبكاني بحرقة حتى علا بكائي بالنشيج •• وتوفي عمي بعد نصف ساعة تقريباً ، وقد عرفت ذلك حين رأيت ذلك المضمد يسدل الغطاء على وجه عمي ، وهي حركة أعرف معناها المفجع • ثم جاء المضمد الى عمي وقال له بلا حياء ولا مبالاة :

ـ هسّه شوف شغلك ••

فسأله عمي :

ـ شغلي شنو ، ما أفتهم ••

فأجابه المضمد :

ـ شهادة وفاة ، اجازة دفن ، خروجية من المستشفى !

ويبدو أن عمي فهم منه ما لم أفهمه أنا ، فمد يده في جيب زبونه وأخرج منها ما أخرج ودسّه بجيب ذلك المضمد • وبالرغم من أنني أعرف أن ذلك المضمد كان محتالاً ولا انسانية في قلبه ، غير انني ارتحت لذلك

التفاهم الذي تم بسهولة وسرعة فيما بينه وبين عمي ، فقد استبعدت في الأقل احتمال أن يوحد عمي المتوفى الى قاعة التشريح في كلية الطب كما هو المعتاد مع الاموات الغرباء ، فتحتمي جثتهم بحجة ان المستشفى قد تولت تجهيزهم ودفنهم • اما ذلك المضمد العول فبقي في خاطري كريها الى ان مات بعد سنة تقريبا في الردهة التي توفي فيها عمي •

السنة الرابعة في كلية الطب/١٩٣٦

يوم وزعتنا عمادة كليـــة الطب على ردهـــات المستشفى للتدريب على الفحوص السريرية • وقف (اندريا) صاحب (الصيدلية الشرقية) عند مدخل كريدور المستشفى وبين رجليه صندوق كارتوني مليء بالســماعات الطبيــة STETHESCOPE ليبيعها الى من يدخل الردهات من طلاب الكلية،وسعر الواحدة منها دينار ، وسرعان ما اشعرتنا هذه الآلة البسيطة بزهو طــافح ، وصرنا ندفع اكثرها الى عمق جيوب سترتنا ونبقي طرفها الآخر ظاهــرا كما يفعل كثير من الاطباء لنتظاهر باننا من هذه الزمرة ونحن (افراخ) في بيضـــة لم تفقس بعد • وكان عليّ بحسب جدول التوزيع الذي أصدرته العمادة أن أعمل في الردهة الأولى المخصصة للامراض الباطنية (للنساء) التابعة للأستاذ هاشم الوتري ومعاونه الدكتور عبدالرحمن الچورباچي ، ورئيسة الممرضات في هذه الردهة راهبة فرنسية تدعى (ماسير ماري) ، وهي في منتصف العقد الثالث تقريباً ، عذبة الملامح خفيفة الحركة • وبالرغم من تعدد الأثواب التي ترتديها ثوباً فوق ثوب ، فانها لا بد أن تكون رشيقة القوام بتناسق وجاذبية• وكان معي في هذه الردهة من خريجي هذه السنة صديقي كمال نورالدين فلم يفته التعليق على هذه الممرضة الراهبة ، فقال لي بصيغة الاستفهام :

ــ جميلة ، فلماذا ترهبت ؟

وأجاب نفسه على سؤاله :

ــ لا بد أنها نكبت بشيء ، أو فشلت في تحقيق شيء !

ولاحقني كمال بسؤال آخر :

ـ ما هو نوع النكبة أو الفشل يا ترى الذي أصاب هذه الحورية ؟

وأجاب نفسه :

ـ لا بد أن يكون ذلك جسيماً لتقدم على هذه التضحية بقلبها وجسمها..

هذه هي سجية صديقي كمال نورالدين فلا يمر أمامه حدث أو يسمع عنه إلا ويحاول أن يجد له تعليلاً يطعّمه بقليل أو كثير من الفكاهة والنكتة والغمز واللمز ، فقلت له :

ـ ماذا تقصد ؟

فأجابني :

ـ حب لا غيره ، وقد تكون متزوجة أو مثل ذلك فانقطع الرباط ما بين قلبها وقلب من أحبت ، فالتحقت بالدير تطلب السلوى والنسيان .

وكان عملي في هذه الردهة مثل عمل الآخرين من المتخرجين الجدد ، في هذه الدفعة : وهو استجواب المريضة عما تشكو، ومدة شكواهاوموضعها في جسمها ، ثم جسّ نبضها وعدّه في الدقيقة الواحدة ، وتلمس موضع الشكوى في جسمها وغير ذلك مما يقود الى تشخيص مرضها ، وتسجيل هذه المعلومات باللغة الانكليزية في استمارة خاصة وتقديمها للدكتور (الچوربهچي) وهو المسؤول عن هذه الردهة ، ليبدي ملاحظاته على ما أدخلناه فيها ، ويصحح بعضها أو يضيف إليها ما أغفلنا ذكره .

وكانت زيارة الأستاذ الوتري لهذه الردهة وهو المسؤول الأعلى فيها غير منتظمة وقصيرة ، غير انها تملأ الردهة هيبةً ورهبة ، وتثير حركة بين جميع أفراد كادرها من المرضات والأطباء والطلبة المتدربين . كان الوتري برأسه الكبير المتكور بانتظام ، وعينيه الواسعتين الرطبتين ، ونطقه الخشن المتقطع ، وعلمه الغزير في الطب ، انموذجاً صادقاً للأستاذ الجامعي .

وبعد ثلاثة أشهر من التدريب في هذه الردهة ، انتقلت بحسب جدول

توزيع المتخرجين الى الردهة الرابعة الجراحية التي يرأسها الأستاذ (ابريهام)، وكان قد سبقني إليها زميلي نجيب اليعقـوبي ، وفي هذه الردهـة توسع إدراكي لفهم الحالات الجراحية والتدريب على الاعمال اليدوية فيها • وكان واجبي الاول في هـذه الردهة تحضير المـريض بحسب تعليمات ابريهـام ، ومرافقته الى صالة العمليات ، كما منحني فرصا لأعاونه في بعض العمليـات الجراحية فشعرت بسعادة لا توصف • وبعد ثلاثة أشهر صدر أمر نقلي الى الوحـدة الجراحية الثالثة برئاسة الدكتور (شاكر السويدي) وثقافه هذا فرنسية ، ولا يعرف إلا مفردات قليلة من المصطلحات الانكليزية فلم أستفد منه شيئاً علمياً بأي قـدر • فضقت ذرعـا به وبتصرفاته غير العلميـة على المرضى ، وكظمت غيضي وعيني الى الوراء في إحدى الردهتين الجراحيتين ، وحدة الدكتور ابريهام او وحدة الدكتور صائب شوكت •

من أساتذة السنة الرابعة ودروسها

السنة الرابعة بكلية الطب هي أولى السنوات السريرية ، وأبرز معـالم طلابها اقتناؤهم آلة لسماع ضربات القلب في ردهات المستشفى • ودروس هذه السنة هي الأشعة (اشعة رونتكن) ، والصحة العامة ، والادوية المفردة، والطب الشـرعي (العدلي فيما بعد) ، والأمراض النسـائية والتوليـد ، والأمراض الباطنية والأمراض الجراحيـة ، والقوانين الصحيـة بما في ذلك السلوك المهني •

وأستاذ الأشعة هو الدكتور (أي•سي• نورمن) وهو بعمر يناهـز الأربعين ، ومن أطباء الجيش البريطاني الذي دخل العراق في مطلع سـنوات العشرينات من هذا القرن • متوسط الطول ، ضعيف البنية بهزال ، عصبـي المزاج ، ويحمل على قصبة أنفه عوينات صغيرة باطار معدني دقيق ، ويمشي وهو يهز جذعه بحركات ذبذبية وكأنه يصد ريحاً عاصف • وحصة موضوعه

ساعة واحدة اسبوعيا في كهربائية أشعة (رونتكن)،ولمدة فصل واحد فيمطلع هذه السنة •

وخصوصيات هذا الأستاذ تستحق الذكر في هذه المناسبة لما فيها من غرابة •• كان يسوق سيارة (فورد) سوداء بسقف من القماش ، وقضبان دواليبها من الخشب الساج ، وكذلك مقودها • أما مقاعدها فكانت من الجلد الطبيعي بلون أحمر • وكان يعتني بها ، وبنظافتها فتبدو دوما كأن لم تلمسها يد •

وكان يعاون الأستاذ نورمن في أعماله بدائرة الأشعة رجل إيراني الأصل أو هندي ، طويل القامة ويعتمر عمة من طربوش أحمر ، ملفوف عليه طيات من قماش أخضر ، وهي سمة من ينتسب الى سلالة الإمام علي رضي الله عنه ، وربما بسبب هذه العمة الخضراء كان يلقب (بالسيّد) أما اسمه فحسن ، ويكاد يكون أهم موظف في دائرة الاشعة بالنسبة لمديرها الأستاذ نورمن ، أما من في هذه الدائرة من الأطباء فهم بعده مرتبة وقرباً من الأستاذ نورمن ، ولا أعتقد ان معلوماته في أعمال هذه الدائرة قد اكتسبها بالدراسة بل بالمران والتجربة وبتعليمات وتوجيهات من نورمن •

وكان نورمن يطبع تقارير الأشعة بيده • وقد أدركت أيام دائرة الأشعة حين كانت داخل سقيفة (بنگلة) من مخلفات الجيش البريطاني حين أشغل مستشفى (المجيدية) • وينزعج نورمن الى حد الغضب إذا دخل أحد الى مكتبه في هذه السقيفة حين يكون منهمكاً فيها بطبع التقارير الطبية باستثناء (سيد حسن) المدلل ، فيدخل هذا الى مكتبه دون أن ينقر على بابه للاستئذان منه للدخول إليه • ويروي السيد حسن ان عميد كلية الطب سندرسن پاشا في يوم من الأيام أراد أن يقابل نورمن فنقر على باب مكتبه ليخطره بالدخول إليه ، ولما لم يسمع منه رداً فتح الباب قليلاً ومدّ رأسه من خلال فرجته ، وكان نورمن منهمكاً في طبع التقارير الطبية ، وسأل

الدكتور سندرسن لا على التعيين :

ـ هل الأستاذ نورمن هنا ؟

وسمعه نورمن فأجابه وهو مستمر في طبع تقاريره قائلاً :

ـ ان نورمن ليس هنا حين يكون منشغلاً بطبع التقارير •

فانسحب الأستاذ سندرسن وعاد أدراجه من حيث أتى ولم تتم مقابلته مع نورمن •

وكان أكثر زملاء نورمن في كلية الطب يعرفون طباعه ومزاجه الغريب ، ويحتملون صرامة جدّيته في سلوكه معهم لعلمهم انه ذو قلب طيب ونوايا سليمة • وفي سنة ١٩٤٦ نقلت دائرة الأشعة الى بنايتها الجديدة في الجانب الأيسر من نهاية الطريق الى كلية الطب ، والأستاذ نورمن نفسه هو الذي هندس هذه البناية ، وقد أصابه التعب جراء متابعة تطبيق خرائط هذا المبنى ، فسافر الى انكلترا للاستجمام والراحة ، وحين عاد لاحظ وهو يلج لأول مرة الى داخل هذه البناية ان إطار باب المدخل إليها يعلو عن مستوى الأرض بنصف سنتمتر ، وهذا ما لم يكن في تصاميمه ، فهاج وغضب ، وتوجه تواً الى مكتب دائرته وكتب ورقة بالانكليزية ترجمها له سيد حسن الى اللغة العربية ، وأخذها بنفسه وألصقها عند مدخل الدائرة ، وفيها يقول:

(ان هذه العتبة ليست في التصميم الذي وضعته ،
بل هي من عمل المهندس المقيم ، فاذا أحدثت
ضرراً لمن يدخل الدائرة فأنا لست مسؤولاً عن
ذلك) •

التوقيع إي•سي• نورمن
مدير دائرة الأشعة

وكان نورمن ميكانيكياً ماهراً في نصب آلات الأشعة واصلاح ما يصيبها من عطب أو تلف ، وفي يوم حصل ما يعرف باسم (شورت) في إحدى

مكائن الأشعة (أي عطب) وعجز أن يعرف سببه • وذات يوم رأى بعض ثفل جرذ في إحدى المكائن، فهداه ذلك أن يكون هناك جرذ قرض غلاف الاسلاك الكهربائية التي تصل الى الماكنة المعطوبة ، فتحايل وقبض عليه بمصيدة ، وجاء نورمان ورأى ذلك الجرذ في محبسه ، فطلب من سيد حسن أن يعلن على جميع موظفي الدائرة أن يحضروا الى صالة الدائرة ، كما طلب منه أن يطلب من المستشفى الملكي جرعة كبيرة من المورفين ، وان يستحضر أضخم مطرقة من ورشة سيارات المستشفى (ويقول سيد حسن انه لم يعرف حتى تلك اللحظات ما العلاقة بين الجرذ والمورفين والمطرقة) ثم حصر نورمن الجرذ في زاوية من زوايا المصيدة • وما كاد نورمان يغرز إبرة المورفين في فخذ الجرذ حتى زعق هذا الحيوان فتوقف الاستاذ نورمان فجأة وطلب من سيد حسن أن يدفع بنفسه المورفين في جسم الجرذ ، وحين عاد يزعق هذا الجرذ من وخز الابرة أغمض نورمان عينيه وأدار وجهه نحو الجدار ، ولم يعد ينظر الى الجرذ إلا بعد أن تأكد انه انبطح بتأثير المورفين على جنبه بلا حراك • ولم يكتف نورمان بهذا القدر من الحقد على هذا الجرذ ، بل طلب من سيد حسن أن يخرج الجرذ من المصيدة ويضعه على بلاط الأرض• ويقول سيد حسن (ثم طلب مني أن أرفع المطرقة الثقيلة وأهوي بها بكل قوتي على رأس الجرذ) •

وقبيل سفر الاستاذ نورمان عائداً الى وطنه بانكلترا ، ارتأت عمادة الكلية أن تكرم الأستاذ نورمن بشهادة الدكتوراه الفخرية تقديراً لأعماله في اختصاصه ، وفي تدريسه هذا الاختصاص بكلية الطب ، كما سبق ان فعلت للدكتور يحيى الصافي عميد كلية الصيدلة التابعة لعمادة الطب • فذهب الأستاذ فتح‌الله عقراوي لمقابلة الأستاذ نورمن وفاتحه بهذا الموضوع ، فأنصت الاستاذ نورمن الى ما عرضه فتح‌الله عقراوي ، وبعد لحظات ونورمان (يبربش) بجفونه، قال باختصار شديد يفهم منه امتناعه عن قبول هذا التكريم

— إن هذه الشهادة الفخرية لا تمنحها إلا جامعة ، وكلية الطب ليست جامعة.

ولم يضف الى ذلك كلمة أخرى ، أما الاستاذ فتح‌الله عقراوي فقد فهم الكلمات التي أمسك عن ذكرها الاستاذ نورمان ، وغادر مكتب نورمان بخفي حنين •

وفي تلك الأيام أيضاً باع نورمان جميع متاعه بما في ذلك سيارته لأحد موظفي دائرة الأشعة ، وقبل أن يتسلمها هذا الموظف ألقى نورمان عليه محاضرة في مميزات سيارته ، وفي طرق المحافظة عليها ، ثم أشار الى صندوق من الصفيح كان في ركن من مكتبه وهو يقول له :

— هذا الصندوق مليء بكل قطع الغيار التي تحتاجها السيارة لعشر سنوات مقبلة تقريباً •

واستمر الاستاذ نورمان في الأيام الثلاثة التي سبقت مغادرته العراق ، يطلب الموظف الذي اشترى السيارة الى مكتبه ويمطره بوابل من الاسئلة : هل غسلت السيارة في هذا الصباح ؟ هل فحصت كمية الدهن في ماكنة السيارة ؟ وكمية الماء في الراديتر ؟ وهواء العجلات ؟

وغادر الاستاذ نورمن ليموت في لندن بعد ستة أشهر بمرض اللوكيميا الخبيث بتأثير — كما قيل — الأشعة التي عمل فيها في العراق أكثر من عشرين سنة •

أما أستاذ الصحة العامة فهو (ميجر هيكز) ، وهو ضخم الجثة ، وردي البشرة ، كستنائي الشعر ، ويطول شعر حاجبيه حتى يغطي قسماً من أعلى عويناته • ولا أذكر انه دخل قاعة المحاضرات إلا وفي عروة سترته العليا وردة حمراء من القرنفل حتى صارت هذه وبطنه المنتفخ تصلح لتكون كاريكاتورا لشخصه •

وكانت محاضرات الاستاذ هيكز ممتعة ، نسمعها منه بصوت رجولي وبنبرة مسرحية يرتجلها من مؤشرات في دفتر منتفخ بقصاصات من الاوراق

استقطعها من صفحات المجلات الطبية • كما كانت أكثر محاضراته ميدانية ، فيصحب معه طلبة الصف في شاحنة يجلس هو الى جانب سائقها الى مراكـز بعض المنشآت الصحية العامة • وأذكر يوماً أخذنا فيه الى المبغى العـام في منطقة(الميدان)•وحين زرنا المبغى كان قد حوّل مدخله الذي ينفتح الى شارع الرشيد الى شارع ضيق فرعي للتستر على الذين يدخلونه • وكانت هـذه الزيارة مضحكة ومخجلة ، شاهدنا فيها البغايا وهن يصبغن وجوههن بألوان غامقة ومتضاربة ، ويلبسن الثياب القصيرة والضيقة على أردافهن المترهلة ، أو الشفافة لتثير فحولة الرجال وتروج بضاعتهن الرخيصة • وكان الاستاذ هيكز يتقدم الطلبة في هذه الجولة وهـو يشرح مخاطر هذه الآفـة المرضية واللا أخلاقية وكأنه يحاضر في قاعة درس ، بينما كانت العاهرات يتضـاحكن ويعلقن عليه وعلى طلبته بقبيح التعابير •

وفي يوم آخر أخذنا الاستاذ هيكز الى حقل أبقار في منطقة العلويـة ، وهو المكان الذي أقيم عليه بعد ذلك جامع الشهداء • وهذا الحقل مشروع خاص إستحدثه رجل بريطاني طويل القامة أحمر الشعر كان يوماً موظفـاً في دائرة (سرجنت دين) في خان دلّة ، فاستقال وتفرغ لهذا الحقل وتعليب لبن أبقاره الخمس • وساعة وصلنا هذا الحقل كان يهيىء ثوراً من نوع(فريزن) قد وصله قبل يوم بالطائرة ليلقّح بقرة (صارف) من جنسه • وحاول هـذا الثور أن يصعد ظهر هذه البقرة التي كان يمسك بزمامها أحد العـاملين في الحقل غير انه لم يفلح ، وكرر المحاولة مرة أخرى وأخرى فعجز عن ذلك • وكان في الحقل ثور (خابوري) ذميم أصفر اللون على بعد أمتار من مربط البقرة التي عجز الثور الفريزن أن يصعدها ، وهو يراقب العملية التي لم تتم بينها وبين الثور الفريزن ، فصار يخور ويشد على حبل مربطه حتى قطعه ، وهرول بسرعة مخيفة فما هي إلا لحظات حتى صار على ظهر بقرة الفريزن ، وأكمل العملية ونحن الطلبة ومعنا الاستاذ هيكز وصاحب الحقل في ذهول ،

ثم صرنا نضحك بملء أشداقنا . أما الاستاذ هيكز فقد التفت إلينا وهو غاص في ضحكه وقال :

ـ لا عجب ، فان هذا الثور عراقي !

أما أستاذ الطب العدلي فكان الدكتور حنا خياط . وهو طويل القامة بستانة ، واسع العينين ، وذو لحية مشذبة باعتناء ، وكانت محاضرته باللغة العربية ، ونطقه فيها سليم وبجرس رجالي ، إلا انه يلفظ حرف السين (زايا) فلا نسمع منه كلمة (أسباب) إلا بلفظة (أزباب) وحين سمعنا هذه لأول مرة أثارت فيما بين الطلبة ابتسامات مخنوقة ثم اعتدنا عليها بوقت قصير .

ودراسة الاستاذ الخياط الاولى بالفرنسية . وكان من المقربين الى الملك فيصل الأول فعينه وزيراً للصحة في وزارة عبدالرحمن النقيب (١٩٢١) وهو محدث لبق وجذاب . وذات يوم وهو يتحدث معي في بيت زميلي الدكتور فؤاد مراد الشيخ عن حياته الأولى مع الأمير فيصل بدمشق قال :

ـ طلب الأمير فيصل حلاقاً الى حجرته في فندق (أورينت) بدمشق ليشذب لحيته وشعر رأسه ، وكانت لحيته يومئذ تملأ وجهه ، وكذلك كانت لحيتي، فأمر الحلاق أن يحصر شعر لحيته في ذقنه كما يفعل الفرنسيون ، فلما انتهى الحلاق من ذلك نهض الأمير فيصل عن كرسيه ، وأشار إليّ أن آخذ مكانه على الكرسي نفسه ، وطلب من الحلاق أن يعمل لي كما عمل بلحيته (وأضاف الدكتور الخياط) وما كنت أرغب في ذلك ، إلا انها إرادة الأمير،ولا اعتراض على ما يريده . ومنذ ذلك اليوم وشعر لحيتي كما أرادها الأمير فيصل .

والدكتور الخياط هو العميد الثاني في كلية الطب بعد الدكتور سندرسن . وفي زمنه تخرجت أول دفعة من طلاب كلية الطب،كذلك في أيامه أضرب طلاب الكلية على إدخال سنة (الستاج) بعد التخرج ، ولم يفلح إضرابهم بعد أن قابلهم الدكتور عبدالله الدملوجي مدير الصحة العام في بيت الطالب محمد فاضل الداغستاني بمحلة الطوب ، فتوقف إضراب خريجي

هذه السنة ليمارسوا التجربة على مرضى المستشفى الملكي سنة أخرى •

وأستاذ (الطب الباطني) هو الدكتور سندرسن (عميد الكلية) ، ومحاضرته دوماً في القاعة رقم (١) ، وهي بلا حياة ومملة ، إذ كان يمليها على طلبة الصف من دفتر كبير ، كلمة فكلمة • وحين عرفنا انه كان ينقلها عن كتاب (أوسلر) صار الطلاب يعودون الى هذا الكتاب حين تغمض علينا بعض متون المحاضرة • وكان سندرسن قليلاً ما يذكر الحالات المرضية التي يمارسها في عيادته حين تكون تلك الحالات في نطاق محاضرته•وبهذه المناسبة أذكر انه كان يمارس الطب في عيادته بمسكنه بشارع العسكري المحاذي لنهر دجلة ، ويتقاضى من زبائنه يومئذ سبعماية وخمسين فلساً عن كل زيارتين من مرضاه •

وأستاذ فن التداوي هو الدكتور دنلوب (مدير المستشفى العام الجديد سابقاً) وكان من جملة أطباء الجنرال مود • وقامته أقرب الى القصر ، حنطي البشرة بشارب كث ، وهو أقرب الى سمات الرجل الشرقي أو التركي بشكل خاص • وكان هذا الاستاذ ذا خلق رضي وسخي في تعليم الطلبة ، وزبائنه من المرضى كثيرون وخصوصاً من اليهود •

أما أستاذ أمراض العين فهو سپنسر ، وهو وردي البشرة باحتقان خفيف ، أشقر الشارب ، وفي مشيته عرج يسير ، ولا أذكر انه دخل قاعة المحاضرة دون أن تكون في عروة سترته وردة من القرنفل أو ما يماثلها •

وأستاذ الجراحة الدكتور ودمان ، وقد يكون هذا أصغر الأساتذة الانكليز في الكلية ، وهو عذب الملامح ، انثوي الطلعة • وساعة محاضرته ممتعة ، ويطعمها بوصف حالات سريرية راهنة بما في الردهة الجراحية •

ويساعد الأساتذة الذين ذكرتهم ، الأستاذ هاشم الوتري والأستاذ صائب شوكت كل في اختصاصه في الساعات السريرية وهي أكثر متعة وفائدة للطلبة من الحصص النظرية التي يلقيها الأستاذ سندرسن والأستاذ ودمان •

وكان في تلاقي الأستاذ سپنسر والأستاذ جلال العزاوي في الحصص السريرية ما يكسب الطلبة مرحاً ، فجلال العزاوي لا يعرف إلا اللغتين العربية والتركية، وسپنسر لا يتكلم إلا بالانكليزية وهو لا يخاطب جلال العزاوي إلا بكلمة (بك) ، وجلال لا يخاطب سپنسر إلا بكلمة (الصاحب) ، وأي منهما لا يقصد بهذين اللقبين إلا إثارة المرح فيما بينهما •

والأستاذ ملز هو أستاذ علم الأمراض Pathology وقد التحق بالكادر التعليمي منذ تأسيس كلية الطب الملكية في بغداد سنة ١٩٢٧ • وهو نحيف الجسم نشط الحركة ، أزرق العينين ، وزير نساء • أما في اختصاصه فهو مرجع لا يضاهى ، وفي التدريس مثال للأستاذ الجامعي خبراً ومخبراً • ومحاضراته النظرية ممتعة وغنية بالمعلومات • وأفضل جليس له الكتاب ، وفحص النماذج المختبرية هوايته بقدر ما هي مهنته • وبيته صومعته ومحراب تعبده بالضرب على مفاتيح آلة الپيانو • وهو يحسن اختيار صديقاته غير انه معهن مزواج مطلاق ، فاذا سقطت في حبه حسناء فسرعان ما تسأم منه للعزلة التي يعيشها في صالونه الذي لا يضيؤه إلا مصباح واحد هو الذي يتدلى فوق طاولة مكتبه • وقد جاوز عمره السن القانونية كموظف في الدولة فاستبقته الكلية محاضراً وباحثاً في اختصاصه • وحين غادر الانكليز العراق إثر ثورة ١٩٥٨ فضل الأستاذ ملز البقاء في بغداد ، وكتب الى زعيم الثورة عبدالكريم قاسم أن يسمح له بالبقاء في بغداد إذ (كما ورد في كتابه الى الزعيم) انه لا يعرف أحداً في الدنيا ليسافر الى بلده • واستمر يلقي محاضراته في كلية الطب حتى عجز وأصابه الاعياء وأخيراً سقط مريضاً في سريره وليس معه إلا (طباخه) الهندي محمد • وفجأة وصلت الى بغداد سيدة انكليزية من لندن بعمر الستين تقريباً وادعت أنها زوجته أو إحدى صديقاته وحملته وهو مغمى عليه الى مستشفى (سنت ميري) بلندن ، وتوفي في هذا المستشفى بعد بضعة أيام •

وكان الأستاذ ملز قد أودع وصيته في السفارة البريطانية في بغـداد وفيها تفويض للدكتور عبدالرحمن قطان (أحد معاونيه في المختبر الباثولوجي المركزي) لتنفيذ بنود الوصية • وفيها إعطاء ألف دينار من مدخراته في البنك الشرقي ببغداد الى طباخه (محمد) ، ومائتي دينار للدكتور غـانم عقراوي الذي كان قد أجرى عليه عملية جراحية في أواخر أيامه ببغداد ، ومكرسكوبه الخاص للدكتور عبدالرحمن قطـان • وقد قال لي الدكتور قطان ان الدولة وضعت يدها على المكرسكوب وحاول بكل الوسائل الحصول عليه فلم يفلح وأضاف الدكتور قطان يقول : وقد أكل التراب عدسـات هذا المكرسكوب دون أن تستفيد منه الدولة ، أو تعطيه إليّ بحسب وصية صاحبه الأستاذ ملز •

في سـامراء سنة ١٩٣٥

اعتدت أن أمضي العطل المدرسية الصيفية في بلدتي سامراء ، ولما صرت في السنة الرابعة بكلية الطب كنت قد تعلمت شيئاً عن فحص المريض وشـيئاً في علاج بعض الامراض • ويوماً سـافرت الى سامراء ، وحملت في جيبي السماعة الطبية كما يفعل الأطباء ، لأتظاهر بمعرفتي في علاج المرضى •وفيما كنت أخرجها من جيبي لأضعها على أحد رفوف الحجرة أمام أعين أبي وأمي ، نظرت أمي اليها باعجاب واكبار ، وغادرت الغرفة الى المطبخ والفرح يطفـح على وجهها ، فقد اعتقدت أنني بهذه الآلة قد أصبحت طبيباً فعلاً ، ثم رجعت من المطبخ وقالت لي :

— ان الحاج (حسين الهندريس) مريض ، وقد فحصه الطبيب الهندي وقال انه مصـاب (بالقلب) ، وحاجي حسين جار العمـر فافحصـه وداوه يا إبني كمال •

ولم يعجبني أن أقول لها أنني لست طبيباً بعد ، وفضلت أن أقـول لها ؛ ممنوع أفحص مريض خارج المستشفى الملكي ببغداد • فقالت أمي : لا أحد يعرف إن كنت أنت فحصته ، ثـم اني سبق أن وعدت زوجته (أم

محمود) أن تفحصه إذا أنت جئت الى سامراء ، وهم اليوم ينتظرونك بفارغ الصبر • وفي المساء جاء الحاج حسين الى بيتنا • وهو رجل في الستين من عمره أو أكثر قليلاً • ولما سألته عما يشكو أجابني ببساطة : هو الخفقان إن أنا حملت أكياس التمر • ووضعت السماعة على موضع قلبه وسمعت ضربات قلبه غير منتظمة وتشابه الضربات التي اعتاد الأستاذ هاشم الوتري والأستاذ سندرسن أن يركزا عليها في الدروس السريرية ، فقلت للحاج حسين :

— نعم عندك (قلب) والأفضل أن تذهب الى المستشفى الملكي ببغداد ، وسأكون أنا بخدمتك هناك •

فأجابني بشيء من التذمر :

— أسافر الى بغداد ؟ ومن يعمل في محلي بصنع (الدبس)؟هذا ما لا أعمله وان الله هو الشافي •

ولما غادر الحاج حسين بيتنا سألتني أمي بهمس :

— مرضه خطر ؟

فأجبتها بايجاز :

— لا يعيش طويلاً •

وتوفيت أمي بالسكتة القلبية ولم تكن تشكو من مرض له علاقة بقلبها، وتوفي أبي بعدها بعام واحد ، والحاج حسين حي يرزق يعمل في (بزارته) بلا هوادة ولا راحة الى أن توفاه الله بعد سنين طويلة ، بالشيخوخة لا بمرض القلب •

والحاج حسين الهندريس شخصية تستحق أن تذكر في هذه المناسبة فهو بالرغم من عمره المتأخر ظل كثير النكت والمقالب مع زبائنه البسطاء ، وخصوصاً من البدو والفلاحين الذين يقصدون محله لشراء التمر وعسل الدبس • وفي يوم من أيام طفولتي وقفت على باب محله حين كان منشغلاً في مطاردة (فأرة) في قعر دكانه المظلم • وأنا حينئذ لم أرَ تلك الفأرة ولكنني

كنت أسمعه يهدّدها ويتوعدهـا بالويل والثبـور ، كما يتوعد الانسـان الغضوب عدوه من البشر :

ــ أين أنت يا بنت الحرام ! لن تهربي مني ، فاذا أنت شجاعة فاطلعي عليّ .

أين أنت يا ملعونة الوالدين (ثم سمعته يقول) بلهجة المنتصر :

ــ آه هذه أنت بيدي يا خبيثة . أمسكتك يا خبيثة . أمسكتك وأنت الآن في قبضة (الحاج حسين) الذي لا تستطيعين الأفلات من يده .

واعتدل الحاج في مكانه واستدار نحـوي ، ورفع يده وهو يضـم أصابع كفه الأيمن ، ويقول لي :

ــ تعال يا ابني كمال .

ولم يمهلني ، ومدّ يده اليسرى وأمسك بثوبي ودفع كف يمناه بجيبي، وأحكم بأصابعه على فتحته ، وهو يقول لي :

ــ امسكها بيديك واركض الى البيت ، فان الفارة في جيبك .

وركضت طائعاً بخوف مميـت الى بيتنا ، ولم أقـف إلا أمام أمي ، وصرخت في وجهها :

ــ ماما ، فارة بجيبي ، فاحذري أن تفلت من يديك .

وصاحت بي أمي :

ــ من أين جاءت إليك هذه الفارة ؟

ــ من الحاج حسين الهندريس .

وحاولت أمي فك قبضة يدي على فتحة جيبي ، وأنا قابض عليها بكل قواي . وسمع أبي ما دار بيني وبين أمي ، وصاح في وجهي :

ــ افتح يدك يا ولد ، ففتحها وأنا ألوي وجهي عن جيبي لأتحاشى رؤيـة الفأرة . فلما أخرج أبي يده من جيبي لم يجد فيه سوى كمية من الصوف!

في محلة الفضـل/ ١٩٣٥

يتعب الطلاب الغرباء عن بغـداد ليجدوا لهم مـأوى ملائماً . وكان

باستطاعتي أن أعود الى خان محمد طيب لرخصه وتوفر الراحة فيه ، غير انني لم افعل ذلك للسبب الذي ذكرته آنفا ، فنظرة عتب من عيني مالك الخان إذا ما اعتقد انني سبب نكسة ابنه المريض كفيلة ان تغمرني بإثم نفسي لا أطيق حمله • ففتشت عن سكن آخر ورفيق آخر يلائم مزاجي• فاتفقت في مطلع هذا العام مع اثنين من زملائي في كلية الطب ، وطالب ثالث في كلية الحقوق ، هو من اقارب الزميلين ، وثلاثتهم من أهل أربيل ، ويتفاهمون فيما بينهم باللغة التركية التي لا اعرفها ، ويرطنون بالعربية •• اتفقت مع هـؤلاء الاصدقاء على استئجار دار قريبة من كلية الطب ، فوجدنا تلك الدار في محلة الفضل • كما اتفقنا نحن الأربعة على القيام بأعمال البيت من تنظيف وطبخ وما يتبع ذلك ، ووضعنا لذلك جدولاً اسبوعياً حرصنا على تطبيقه•وطالب كلية الحقوق واسمه شاكر ، متعاون ومؤنس ومريح ، كما لم يكن يتردد أن يقوم بواجبات أحدنا في أعمال البيت ، وبخاصة في أيام الامتحانات • ومن وجه آخر كان ساذجا وعبيطاً ويسهل إيهامه بسهولة • ويوماً شكى شاكر من ضرسه ، فلم ينفعه دواء لتسكين آلامه ، وجفاه النوم ليلتين متوجعـاً من آلام مبرحة في ذلك الضرس ، فنصحناه أن يستشير طبيب أسنان ، فركبه العناد وأبى • وفي الليلة التالية لم أسمع له أنيناً مع انه كان يتلوى في فراشه ، ويكثر من الضغط براحته على فكه المتورمة • فلما أصبحنا قلت له أنت أحسن يا شاكر ؟ فهز رأسه علامةالايجاب على تساؤلي • ورفع رأسه عن الوسادة ودفع يده تحتها وأخرج قطعة مستطيلـة من الخشب ، غرزت فيها أربعة مسامير مدّ فيما بينها خيط من القطن • وقرّب شـاكر هـذه الخشبة مني لأراها ، وسألته :

— ما هذه يا شاكر ؟ فأجابني كمن يؤكد حقيقة لا تقع من معارضتها، وهو يعيد الخشبة حيث كانت تحت وسادته ، وقال لي :

— عندي نوازل !

وسألته متعجباً :

ــ نوازل ؟..

ــ نعم نوازل وهذه دوائها ، عملها لي السيد حسّون ، وأوصاني أن أضعها تحت وسادتي وأنام عليها بفكي الذي فيه الضرس الموجعة .

ولما هزئت بما عمل له السيد حسون ، قال باعتداد وثقة :

ــ هذا شيء مجرّب يا أخي .

وفي صباح اليوم التالي ذهب دون علمنا الى الأسطة ناصر ، فقلع ضرسه المنخورة ، ولم يعلم بذلك إلا (بدور) وهي التي قادته الى عيادة الاسطة ناصر . أما من هذه المرأة فسأتكلم عنها فيما يلي ..

وحدث بعد أيام قليلة ان شعرت بعدم ارتياح في بطني الوسطى فضايقتني في متابعة دروسي ، فاقترح شاكر أن أستشير السيد حسّون ، فهزئت من مقترحه ، وألحّ عليّ باخلاص وعقيدة أن يأخذني إليه ،فخضعت لطلبه بعد يومين . وفي صباح يوم الجمعة كنت معه في (علوة) السيد حسون القريبة جداً من المدرسة المأمونية المواجهة لطوب (أبو خزامة) وكان في مدخل العلوة نضد من أكياس التمن وصناديق خشبية وأخرى معدنية كثيرة، وتتدلى من سقف العلوة قلائد من الثوم والبصل اليابس ، وعلى يمين مدخلها ميزان ضخم مربوط بسلسلة حديدية مثبت طرفها الأعلى بسقف العلوة . وبين هذه البضائع يقف رجل بدين أكثر ضخامته في بطنه المتدلي بتراخ ، ويأتزر بمرولة حمراء طويلة لا أستطيع أن أقول عنها إلا انها غير نظيفة .. كان هذا الرجل هو السيد حسون الذي أخذني إليه صديقي شاكر.وتوقفت عند باب العلوة ، أما شاكر فقد دخلها بلا تردد حتى صار أمام السيد حسون ، وقد رأيته يبش بوجهه ثم يخفض من قامته المديدة ليستمع الى ما يقوله صديقي شاكر ، ثم رأيت السيد حسون يرفع رأسه وينظر إليّ ويقول :

ــ تفضل يا إبني •

وصرت بعد بضع خطوات أمامه وجهاً لوجه • وفي غضون ذلك سأل السيد حسون صديقي شاكر :

ــ قل لي ، أنت الآن شلونك ؟ يعني سنك بعد يوجعك ؟

فأجابه صديقي شاكر :

ــ انا كُلّش زين •

وأنا أعرفه انه لم يكن كذلك إلا بعد أن قلع أسطة ناصر ضرسه المؤلمة • ولكنني أمسكت عن أن أقول له ذلك •

والتفت السيد حسون إليّ وقال :

ــ والآن أنت أيضاً سنك يوجعك ؟

فتدخل شاكر فيما بيننا وقال له :

ــ لا ، صديقي (كمال) يشكو من بطنه •

وحان دوري لأشرح له شكواي ، فأنصت إليّ وعينه زائغة ينظر الى عميل يدخل علوته ، وبعد لحظات قال لي :

ــ إبني هاي (صرتك مشلوعة) ، تعال معي • واقتفيت أثره الى عمق العلوة القليل النور ، العبق بالروائح القوية المنبعثة من التمور والبقول المكدسة الى جانب جدران العلوة ، وبعض أكياس أخرى كانت تشكل ساتراً لقسم العلوة الخلفي • وتناول السيد حسون كيساً فارغاً من على الأرض ،ونفضه مرتين مما علق به من تراب وبعض ما كان فيه من بضاعة ، وفرش به أرض العلوة وهو يقول لي :

ــ تفضل تمدد يا إبني ودقيقة واحدة وتصير زين •

وعملت ما أراده مني ، ثم سألني أن أرفع قميصي لأكشف له عن بطني ففعلت ذلك طائعاً • وبسط السيد حسون كفه الممتلئة الثقيلة عليها، وحركها تدويراً وضغطاً وقرصاً ليناً ، وأنا كالمبنّج أنظر الى سقف العلوة ، وكانت

على أحد أعواده حمامة تهدل ، وعلى كيس امامي قنة بونين بني وأبيض تنظر إليّ بتركيز ، وربما تفكر شيئاً عسى ان يعمله صاحبها السيد حسون في بطني ، وبعد أقل من دقيقتين قال لي السيد حسون بصوت آمري :

ــ قم ، مشافى بإذن الله •

ونهضت أعيد شد نطاقي وأدخل تحته أطراف قميصي • ولمحت صديقي يدس في جيب السيد حسون شيئاً ، علمت بعدئذ انه مائة فلس هي أجرة أتعاب هذا المتطبب ، وهو المبلغ الذي يأخذه الدكتور (نورالله) مني لو أنني استشرته • وغادرت العلوة مع صديقي شاكر وأنا في عجب كيف أطعت صديقي شاكر لأستشير السيد حسون في أمر بطني !

ونعود الآن الى حكاية بدور في البيت الذي سكنته مع أصدقائي بمحلة الفضل • وكان يومئذ قد نما حسّي الجنسي ، ولم أكن الى ذلك الوقت أوليه اهتماماً خاصاً ، فكل ما مررت به مما له علاقة بالجنس كان طارئاً فرضته ظروف ومناسبات لم تقوَ على إبعادي عن متابعة القراءة في كتبي بأي قدر • وقد يكون صديقي شاكر هو الذي أثار فيّ الحس الجنسي الذي لم أعهد مثله من قبل • فقد رجعت ذات يوم الى البيت الذي أسكنه مع شاكر فوجدت في وسط فنائه امرأة منهمكة في غسل الصحون وأكواب الشاي ، وحين رأتني أدخل البيت شرعت بهمّة وسرعة تسحب عباءتها لتستر بها وجهها عني • فصعدت الى الطابق الثاني من البيت حيث غرفة النوم فوجدت فيها صديقي شاكر ، واستعلمت منه عن هذه المرأة ، فأجابني باقتضاب :

ــ هذه إمرأة لخدمتنا ، تعمل لنا الشاي في الصباح ، وتطبخ طعام الغداء أيضاً •

فقلت له :

ــ ولكن كيف يا شاكر ، وخدمتها تكلفنا ؟

فأجابني باختصار وغموض أكثر :

ـ لا تكلفنا غير السكن والأكل ..

فسألته :

ـ وأين تنام ؟

فأجابني :

ـ في الغرفة الصغيرة التي في سطح الدار .

فقلت له بخبث :

ـ أنت رتبت لها كل شيء يا شاكر !

فابتسم ولم يجبني ، ثم سألته :

ـ وأين عرفتها ؟

ـ كانت واقفة أمام دكان إبراهيم البقال لتشتري سكاير ، واسمها بدور ، وابراهيم هو الذي اقترح عليها أن تشتغل في دارنا .

كانت بدور في نحو الثلاثين ، نظيفة ونشطة ، وهي تحاول دوماً أن تخفي نصف وجهها بطرف عباءتها لتستر شيئاً ما فيه ، أو لتثير حب النظر إليه .. وكانت تتقرب من شاكر أكثر مما تفعل معي أو مع صديقيّ الآخرين، كما كانت تدخن بعلمه من سكائره الخاصة التي تصله من أهله في أربيل بانتظام . وسرعان ما رُفعت من بينهما الكلفة وحلّ محلها النكت المتبادلة والضحك ، ثم صار شاكر الوحيد الذي يصعد الى غرفتها الصغيرة ، ويطيل البقاء فيها أحياناً . ولم يكن ذلك يغيضنا بل كان يثير فينا الظنون ، ودخل في تخيلاتنا من الاحتمالات المثيرة . وأردت يوماً أن أداعب شاكر فسألته بقصد :

ـ شاكر ، انت دخلت الدنيا لو بعد ؟

فردّ على سؤالي بمثل الامتعاض المفتعل :

ـ عيب أفندم ، هي مثل أختي .

فسألته :

ـ ومن هي التي تقصدها ؟
فلم يجبني ، وعدت أسأله :
ـ طيب ، هي دخلت الدنيا ؟ لو بعدها مثل الرمان أول نزلته ؟
فأجابني وقد احمر وجهه :
ـ شنو مثل الرمان أول نزلته ! شنو دخلت الدنيا ؟
وتعمقت في إثارته ، فقلت له :
ـ طيب شاكر • أنت أوصف لي إذا كانا لا يشبهان الرمان !
ولم أحصل منه على جواب سوى الحياء الذي طغى على وجهه •
وبعد بضعة أيام فوجئنا بشاكر يقول لنا بتصميم :
ـ هذه ما تنفعنا !
ـ منو هذه ؟••
ـ بدور ••
وغادرت بدور بيتنا دون أن تودع أحداً منا •
وبعد سنوات عدة دخلت عيادتي الخاصة مريضة ، وسألتني قبل أن تعرض شكواها :
ـ عرفتني ؟ أنا بدور !

ولأول مرة رأيتها بكامل وجهها • كان على خدها الأيمن ندبة تمتد الى الطرف العلوي من رقبتها ، وهو ما كانت دوماً تستره بعباءتها عنا • قالت لي:
ـ أنا تزوجت يا دكتور •
وفي الحال رأيت نفسي أسألها :
ـ شاكر ؟
ولم أكن رأيت شاكر منذ تخرجي في كلية الطب ، فأجابتني :
ـ شاكر خدعني الله يسامحه •• تزوجت رجلاً آخر ، وزواجي غير موفق ، فقد طلقني في صبيحة يوم الزواج • وأردت أن أقطع الحديث

عن حياتها الخاصة ، فقلت لها :

— أنا أيضاً تزوجت ..

فسـألتني :

— فريـال ؟

وسـألتها :

— من هي فريـال ؟

— لا تتجاهلها ، هي البنت التي كنت تراقبها حين تكون على سطح دارهـا المقابل للدار التي كنا نسكنها ، لترش عليه الماء في الأمسيات الحارة .

وسـألتها :

— وهل كان اسمها فريال ؟

— أنت أعرف مني باسمها يا دكتور كمال .

— صدقيني أنا لا أعرف اسمها ولم أتعرف عليها .

وابتسمت بدور ابتسامة من لا يصدق ما يسمعه .

وفريال التي أشارت إليها بدور صبية ناعمة العـود وذات وجه ناعـم مفعم بالأنوثة أكثر مما هو جميل ، كنت أراها أحياناً من بعيد وهي تكنس سطح دارها الذي يقابل دارنا في محلة الفضل ، ثم ترشه بالماء قبيل غـروب الشمس . وكانت حركاتها نشطة ورشيقة ، فكنت أستمتع بلذة حين أراهـا تغدو وتروح وهي تحمل جردل الماء الذي يثقل جانباً من جسمها فترفع طرف ثوبها الفضفاض الزاهي الألوان . وهذا كل ما كنت أرى فيها ، ولـم يكن بيني وبينها أية علاقة ، غير ان بدور لم تصدقني وقالت :

— أنا لا أحاسبك على ما فات ، وعلينا بهذا اليوم ، فهل تحتـاج الى مـن يعاون زوجتك في أعمال البيت ؟

فقلت لهـا :

— سأكلم زوجتي بهذا الموضوع وأجيبك عصر يوم غد .

فقالت :

ـ في الموضوع استشارة الزوجة إذن !

فنهضت وغادرت عيادتي ولم أرها بعد ذلك .

في قاعة التشريح بالطب العدلي/ ١٩٣٦

الدرس في الجرائم الأخلاقية . والأستاذ المحاضر هو الدكتور أحمد عزت القيسي . وقد بدأ يشرح لطلاب الصف أنواع الجرائم ودوافعها وأدواتها . ثم قادنا الى قاعة تشريح الجثث حيث كان على طاولة التشريح المرمرية جثة صبي عارٍ في حوالي الخامسة عشرة من العمر ، مثخن بالجراح القاطعة . قال الأستاذ القيسي ان هذه الحالة ليست نادرة ولكنها مثال لضروب الجرائم الأخلاقية . وأخذ بيده عصا وصار ينقلها بين الجروح العديدة التي أدت الى وفاة هذا الصبي . طعنة واسعة عميقة في صدر الصبي، وطعنتان على الجانب الأيمن من البطن ، وبضع طعنات على الوجه الأمامي من فخذيه . وطلب الاستاذ القيسي من مضمد القاعة (عبد) أن يقلب الجثة على وجهها ، فرأينا على إليتيها وظهرها مثل تلك الطعنات غير انها أقل منها عمقاً . كان منظر الجثة بهذه الجروح بشعاً ولا يصدق معه أن يكون الجاني من بني البشر ! ثم طلب الأستاذ القيسي من المضمد عبد أن يحضر الجاني ، فجاء به مكبّل اليدين وهو رجل في نحو الخمسين من عمره ، ذو قيافة مهملة ، وقد نما شعر لحيته وشاربه حتى طال بشكل غير منتظم . وسأله الأستاذ القيسي :

ـ تعرف هذا (الولد) ؟

فلم ينظر إليه ولم يجبه ، بل انخرط في البكاء ، وحاول أن يرتمي على حافة الطاولة ، فأزاحه المضمد عبد عنها بخشونة. وعاد الأستاذ القيسي يسأله

ـ تعرف هذا الولد ؟

واستمر الرجل يجهش بالبكاء ، وهو يجيبه دون أن ينظر إليه :

— نعم ، انه إبني .

— لماذا فعلت ذلك وانت أبوه ؟

واستمر الرجل يبكي ولم يجب على سؤال الاستاذ القيسي ..

— هل هو ولدك الوحيد ؟

— نعم ، هو ولدي الوحيد .

— بنات ؟

— بنتان وكلتاهما متزوجتان .

— أمهم في الحياة ؟

— ماتت قبل سبع سنوات !

— شغلك ؟

— خادم بفندق تايكرس پالاس .

— تشرب ؟

ولم يجب ..

— تشرب ؟

فعاد الرجل يبكي بحرقة ..

— تشرب ؟

واستمر يبكي ..

واكتفى الاستاذ القيسي بهذه الاستجوابات ، وطلب من المضمد عبد أن يخرج الرجل من القاعة . ثم بدأ يعلق على الحالة :

— هذا الرجل سكير ، ولوطي ، وباحتمال كبير انه كان يلوط بابنه هذا الذي رأيتموه مثخناً بالجراح ، وفي لحظات وهو مخمور لاط بابنه ، ولما صحا وأدرك الجناية البشعة التي اقترفها على ولده صار يطعنه دون هوادة كما لو انه يطعن نفسه جزاء ما فعله .

جغرافية المستشفى الملكي

وقفت على جغرافية المستشفى الملكي بشكل مفصل بعد أن صـار على طلبة الصف الرابع أن تتلقى الدروس السريرية في ردهات هذا المستشفى •• وهذا المستشفى بنـاء قديم يرجـع تأريخه الى عهد السـلطان العثمـاني عبدالمجيد • وهو ذو أقسام متباعدة تضم دار التمريض الخاص وهو بسبع غرف تنفذ الى كريدور ينتهي من الشمال بمطبخ كبير • كما تنفذ بأبـواب عالية الى ساحة مشجرة تحاذي الطريق العام الموازي لنهر دجلة • وغرف هذا القسم بسقوف عالية وأبواب ضخمة ، ولعمومها مرافق صحية واحدة تحتل الفسحة الخلفية الواقعة بين الغرفة الاولى والغرفة الثانية • وعلى بعد بضعة أمتار من الطرف الجنوبي لهذه الغرف يرتفع سلم بخمس درجات الى صالـة تنفذ إليها أربع غرف خصصت لحالات الولادة الخصوصية • أما ردهـات المستشفى المجانية وعددها إحدى عشرة فتتصـل بكريدور طويل جـداً ، وبسقوف عالية بدرجة غير مألوفة • وفي عمـق كل ردهة من جهة الشـرق مرافق صحية بدائية كان يعمل في تنظيفها وحرق قاذوراتها أفراد من الهنـود التابعين للجيش البريطاني • أما جناح العمليات فحديث البناء ، وقد شيد في أوائل العشرينات ما بين الردهة الثالثة والردهـة الرابعة ، وكلا الردهتـين للحالات الجراحية • وفي جناح العمليات ثلاث صالات اثنتان للعمليات الكبرى وواحدة للعمليات الصغرى وغير النظيفة • وفي كل صالة كبيرة شرفة يصل اليها طلبة الكلية من سلالم مكشوفة خارج جنـاح العمليات • أما دائـرة الأشعة فتقع على يمين مجمع ردهات المستشفى ، ويليها بناء لسكن الراهبات الفرنسيات ، ثم مدرستا القوابل والمرضات ، وبين بناية هاتين المدرسـتين زريبة فيها عدد من صغار الخنازير ، وهي دائمة الحركة بين أكـوام نفايات مطبخ المستشفى ، وآذانها الرخوة تتدلى الى جانبي خطمها وهي تلتهـم ما تجده مستساغاً في تلك النفايات • وعرفت بعد ذلك ان هذه الحيوانات تربيها

الراهبات لتكرمن من لحمها أطباقاً على موائدها من المآكل • ولأنني لم أكن قد رأيت قبلاً هذه الحيوانات فقد كنت لا أنسى المرور بها ومشـــاهدة ما تعمله في حضيرتها الصغيرة •

في ضائقة مالية/١٩٣٥

كنت أسمع من أصحابي وأساتذتي الذين درسوا في أوروبا أو أمريكا أن كثيراً من الطلاب و بعضهم في كثير من الدنيا يعيلون أنفسهم بأنفســهم بالعمل في الدوائر الخاصة أو في البيوت أو في المطاعم بعد الانتهاء من ساعات الدروس في كلياتهم ، وانهم لا يفعلون ذلك للفاقة التي هم فيها بل ليتدربوا على الاعتماد على أنفسهم ، فقلت لنفسي وما العيب في ذلك لو أنني قلدتهم ووجدت عملاً في مكان ما ولو في أيام محدودة ، أو في أيام العطل المدرسية ، كما ان ذلك يقلل من طلباتي المتلاحقة من أبي وأخوتي • فقررت دون تردد تاويل أن أعمل في أيام الجمع في أحد مطاعم بغداد ، فاخترت مطعماً متواضعاً بعيداً عن الأنظار في سوق (هرج) الميدان هو اليوم حانوت واســع لبيــع الأثاث القديم • ولكي أكون على اطلاع على نوع العمل فيه ، فقد دخلته في يوم جمعة لأتناول فيه طعام الغداء ، فاذا هو عفن الرائحة وأرضيته رطبة ، ولا منافذ له ، وجدرانه ليس لها لون من كثرة ما تراكم عليها من الاوساخ والاتربة التي تتطاير عليه بعد كنس أرضيته وأثاثه • وعلى أحــد جدرانه صورة كبيرة رخيصة القيمة بألوان متنافرة ، ومصباحان يتدليان من سقــف المطعم وقد غطى سلكيهما الذباب حتى اختفى لونهما • وأغطيــة المناضــد ملطخة بالدسم وألوان المرق ، وعليها الملاعــق بأشكال وألوان وأنــواع • فتقززت نفسي من هذا المكان وما رأيته فيه فغادرته الى غير رجعة • وعرفت حينذاك ان الاستاذ شيت نعمان وغيره ممن درس في خارج العراق حينذكروا اشتغال الطلاب في المحلات العامة في أيام العطــل المدرسية ، كان يجب أن

يذكروا في الوقت نفسه المحلات وما فيها من نظافة وراحة في العمل ...

وعرف زميلي في الصف حسقيل دبي بضائقتي المالية وحاجتي الآنية الى بعض الدنانير، فقادني الى غرفة صغيرة في خان بشارع فرعي قريب من شارع السموأل ، وقدمني الى رجل في الخمسين من عمره أو أكثر وهو جالس وراء منضدة مصنوعة من الخشب كالحة اللون عليها سجادة ايرانية قديمة مهترئة. وتقدم زميلي حسقيل دبي من هذا الرجل وأسرّ في أذنه شيئاً ، فاعتدل الرجل ونظر إليّ وقال :

— حلّت البركة يا إبني .

ونادى على رجل كان يجلس على نضد من الاقمشة قريباً منه ، وطلب منه أن يأتي بقدحين من الشاي، ثم سحب درجاً من منضدته وأخرج منه ورقة، والتفت إليّ وسألني :

— خمسة دنانير ؟

فأجبته :

— نعم خمسة دنانير .

فقال لي :

— تدفعها يا إبني خمسة دنانير وربع بعد شهر ، مفهوم ؟

فأجبته :

— مفهوم .

حين ذاك سألني عن اسمي كاملاً ، فدونه على تلك الورقة ، ثم وضع الورقة أمامي وأشّر باصبعه على موضع فيها وقال لي :

— وقّع هنا ..

وما كدت أبدأ برسم توقيعي في ذلك المكان حتى أمسك بيدي وهو يقول لي :

— تعلّم يا إبني ، لا توقع على ورقة إلا بعد ان تقرأها .

فعدت أنظر الى الورقة لأقرأ محتوياتها ، ووقعت على مكان التوقيع فيها ، ودفعتها الى ذلك الرجل بينما كان هو يقدم لي الخمسة دنانير التي طلبتها منه ، وغادرت محله وأنا أشعر في صميمي انني أقدمت على عمل لا يعمله إلا من هو أكبر مني ، وأنا بعد لست منهم • أما زميلي حسقيل دبي فقد بقي في محل ذلك الرجل وقال لي :

ـ لا تنتظرني فسأتبعك بعد قليل الى الكلية • وبعد شهر حملت خمسة دنانير وربع الى ذلك اليهودي المرابي ، فسحب من درج منضدته الورقة التي وقعتها قبل شهر ، وقدمها لي وهو يقول :

ـ هذا محلك ، تعال متى شئت ، على أن لا تؤخر الدفع عن يومه ، وهذا اليوم هو زائد على موعد الدفع ولم أحسب عليك فائدة عنه •

ولم أفهم من كل هذه اللغة شيئاً ، فشكرته وخرجت الى الشارع • ولم أحتج أن أعود إليه بعد ذلك والحمد لله •

عجيل الياور وابنه صفوك/ ١٩٣٥

في شهر نيسان ١٩٣٥ استأجرت غرفة بالاشتراك مع صديقي نصرت عبدالحميد في فندق الأمراء المقابل يومئذ لسينما الحمراء بشارع الرشيد • وكانت هذه الغرفة (على قدر حالنا) في أعلى الفندق وتشبه (البيتونة) التي تحتفظ بها أفرشة سطوح البيوت من حرارة شمس النهار ، كما كان الوصول اليها عن طريق سطح الطابق الثاني لا من فناء الفندق ، ولذلك كانت أجرتها الشهرية أقل بكثير من أية حجرة أخرى في هذا الفندق • في هذا الفندق تعرفت على الشاب (صفوك بن عجيل الياور) شيخ مشايخ شمّر ، وكان يومئذ في مثل عمري تقريباً ، وغرفته في الطابق الثاني ، وهي في مرافقها وتأثيثها شيء آخر غير غرفتنا المتواضعة • ويوماً جاءني صفوك وقال لي وهو يرفع عويناته السميكة الى أعلى قصبة أنفه :

ـ إن أبي الشيخ عجيل الياور سيزورني اليوم عصراً ، فأرجو أن تكون في

غرفتي قبل وصوله الى الفندق ..

وفي الساعة الرابعة كان الشيخ ومن ورائه عدد من الرجال المدججين بالسلاح يصعدون السلّم بجلبة الى غرفة صفوك . ونهضت كما نهض صفوك عندما ظهر أبوه الشيخ بقامته المديدة الممتلئة ، على باب الغرفة.وكان الشيخ عجيل إذ ذاك بتقديري في العقد الخامس من عمره ، وذا وجه صبوح ولحية وقورة غير طويلة ، وعينين براقتين ، وعلى رأسه كوفية رمادية اللون تبرز من تحتها ذوائب من شعر رأسه الأشقر . وقبل أن يقبّل صفوك يد أبيه قال الشيخ عجيل : حيا الله الشباب . ثم سأل إبنه صفوك وهو يهمّ بالجلوس على أحد الكراسي ويشير إليّ :

- من يكون هذا الشاب الفليح ؟

فأجاب صفوك :

- هو من سامراء واسمه كمال ، ويدرس في كلية الطب .

فقال الشيخ :

- أنعم وأكرم بالسوامرة .

وسألني الشيخ صفوك :

- من أية عشيرة أنت يا إبني كمال ؟

فأجبته :

- من البو عباس .

- ونعمين وثلاث ..

ثم سألني الشيخ :

- هل هذه العشيرة أكبر عشائر سامراء ؟

فأجبته :

- ليس لي علم بذلك .

فقال لي :

ــ كيف لا تعلم وهي سندك عند الملمات يا إبني ؟

واستطرد يتكلم بعلم عن عشائر سامراء المشهورة ويعدد أفرادها ومناطقها وأفخاذها .

وبعد فترة سكوت قال موجهاً كلامه لإبنه صفوك :

ــ يا ولدي يا صفوك ، أنا مسافر (للمضارب) هالحين ، فهل عندك شيء تقوله لي ؟

فأجاب صفوك وهو ينظر الى أرض الغرفة :

ــ سلامتك يا أبي .

فقال له أبوه الشيخ :

ــ يعني أنت مصر على عدم العودة الى الاسكندرية لمواصلة الدراسة ؟

فأجاب صفوك بصوت خفيض :

ــ نعم يا بيّ .

فقال له أبوه الشيخ عجيل :

ــ أنا أريد أن أقول لك آخر ما عندي من نصيحة ، فان الدراسة يا ولدي أفضل من المشيخة حتى لو خضعت لك جميع عشائر العراق لا عشائر شمر وحدها ، فاسمع نصيحتي وعد الى مدرستك في الاسكندرية ، لتعود الى العراق شيخ متعلم .

ــ ماني راجع يا بيّ لو تذبحني .

كان الشيخ في هذا الحوار ليناً ولم يبد عليه السخط أو الغضب على إبنه صفوك ، بل بدا عليه كأنه في موقف المستعطف لا الأب الآمر والناهي .

ــ أخشى يا ولدي يا صفوك أن تعتقد أن مركزي وصداقتي لكبار رجال العالم أمثال هندنبرج وجورج الخامس وفيصل الاول سيولونك رعايتهم بعدي ، فان هذا لن يكون إلا في حالة واحدة وهي ان حملت

بيدك شهادة علم ومعرفة ، فان الشهادة الآن هي الأساس ، والمشيخة شيء جانبي لا أساسي ، كما انها غير باقية ، فلها زمان لا أظنه يدوم طويلاً • أولاد البدو صاروا يقرأون ويكتبون ، وكنت الى وقت قريب أغبطهم على هذه المعرفة ، وأتمنى لو يبادلونها بثروتي • أما الآن فانا مثلهم أقرأ واكتب • فاسألني كيف ومتى تعلمت ذلك ، وصديقك كمال يسمعني ، ثم استطرد الشيخ عجيل :

كان ذلك قبل سنة واحدة يوم دعتني (مس بيل) الى العشاء في دارها ، وأعلمتني أن من ضيوفها سيكون جلالة الملك فيصل ، والمندوب السامي البريطاني وياسين الهاشمي ونوري السعيد ورستم حيدر وجعفر العسكري • ورتّبت مس بل مكاني على مائدة العشاء بين رستم حيدر وجعفر العسكري ليترجما لي بعض ما يفوتني فهمه من أحاديثهم بالانكليزية• واستطرد الشيخ يقول : ولاحظت أن مس بيل قدّمت لجلالة الملك ورقة هي قائمة بأنواع الصحون التي ستكون تباعاً على مائدة العشاء ، كما لاحظت أن الملك قد وقّع على ظهر الورقة ودفعها الى المندوب السامي فوقع هذا على ظهرها أيضاً • وحزرت أن هذه الورقة ستصلني وأنا لا أعرف القراءة والكتابة • فلما وصلت الورقة الى جاري رستم حيدر وقع عليها باسمه ثم كتب اسمي الى جانب اسمه ، وأدار وجهه إليّ وقال وهو يبتسم: أنا وقعت على هذه الورقة عوضاً عنك يا شيخنا • واستمر الشيخ يقول لابنه صفوك : لا يمكنك قط أن تتصور ما حلّ بي في تلك اللحظات يا ولدي ، فقد تمنيت الموت الفجأة • وانتظرت بفارغ الصبر الانتهاء من هذه الدعوة (فهجت) بعدها مباشرة الى المضارب ، واستقدمت من الموصل (ملا)وحبست نفسي في بيت شعر أربعة أشهر بتمامها صرت بعدها أقرأ الجريدة كما يقرأها أي أفندي ، والآن وليس قبل ذلك صرت أعد نفسي شيخ مشايخ شمر بحق وحقيقة •

ونهض الشيخ عجيل متعجلاً وغادر الغرفة ، ومن ورائه يسحل هالة من الوقار والهيبه • ومكثت انا في الغرفة أفكر في عظمه هدا الرجل وحلو احاديثه ، وصواب افكاره وما يقابلها من موقف إبنه صفوك •

حالة مرضية غريبة/حزيران ١٩٢٦

النار تخلف عار •

شاب في نحو الخامسة عشرة من عمره ، من سكنة محلة القراغول بغداد ، وهو يتيم الأب ، وتعيله أمه بصنع الحلويات وبيعها لأطفال المحلة. وشكى ذلك الشاب ذات يوم من حرقة اثناء التبول ومن بوله الخليط بالدم والقيح • وأم هذا الصبي من اقارب خادمة الردهة العاشرة التي أعمل فيها. فذكرت لي خبر هذا الشاب ، فأرشدتها الى الدكتور (علي البير) في الردهة الخامسه بالمستشفى الملكي ، ولم يقف الدكتور على علامه مرضيه ترشده الى تشخيص مرضه سوى الحس بألم عند الضغط على منطقة المثانة فعرضه لأشعة (ايكس) فكان في الصورة الشعاعية أغرب ما يمكن أن يتصوره من يختص بأمراض المثانة • كان في المثانة سلك معدني ملتف حول بعضه حتى صار كتلة ملأت حيزاً من جوف المثانة • واستجوب الدكتور علي البير هذا الشاب بعد أن صارحه بوجود السلك المعدني في مثانته • فاتضح له أن هذا الشاب المراهق لم يكفه الاستمناء بيده بل وجد لذة غريبة في إدخال عود الحياكة الدي تستعمله أمه في إحليله • ويوماً أخذ قطعة من سلك كهربائي وجرده من غلافه المطاطي ، وطواه على نفسه لكي لا يحدث طرفه المدبب تخريشاً في جدران إحليله • ودفع هذا الطرف في إحليله • فوجد في ذلك لذة تفوق ما كان يشعر به عند استعمال أعواد الحياكة ، فضلاً عن ان هذه لا تتوفر له دائماً وامه تحتاج إليها • وصار هذا الشاب يمارس هذه العملية يومياً • ومرة استمر يدفع السلك في إحليله ، ولما قضى وطره وأراد أن يخرجه عسر عليه ذلك ، فاضطر الدكتور البير الى اخراجه بعملية عن

طريق فتح المثانة من البطن وأخرج منها ذلك السلك الذي كان قد التف على نفسه •

وفي هذه المناسبة أذكر ان (الدكتور سلمان فائق) حين سمع بحكاية ذلك الشاب بعد سنوات ، وكنت قد تخرجت في كلية الطب ، قال لي :

ـ ذات يوم استشارني رجل متقدم في العمر وهو يشكو من امتلاء في داخل حوضه ، ففحصته بالأصبع عن طريق مقعده فلمست جسماً صلباً في مكان علوي من أمعاء الحوض ، وعرضته للاشعة فلم يستبن بها شيء فاستثنيت أن يكون ذلك الجسم من الحديد أو من العظم ، ولما استخرجته بعملية عن طريق البطن وجدت قطعة من خشب معمولة بفن ودقة على شكل (قضيب) • وبعد أن أفاق ذلك المريض من التخدير بعد العملية ، طلبني إليه ، وأخذ يدي وقبّلها وهو يقول : استر عليّ يا إبني الله يستر عرضك، ولما فارقت سريره ناداني ورجاني بتوسل أن أعيد اليه ذلك القضيب الخشبي•

في محلة العيواضية/١٩٣٦

في صيف ١٩٣٦ سكنت مع أصدقاء أربعة هم رفعت الحاج علي وهو طالب بكلية الطب وأخوه طلعت الحاج علي ، وجمال بندر وهما بكلية الحقوق ، في دار قريبة جداً من الباب الصغير الخلفي لكلية الطب • وكنا جميعاً في أعمار متقاربة وعلى مشارب متماثلة • وكانت تلك الدار صغيرة يتوسطها فناء صغير زرعت فيه شجرة جلنار ذات الزهر الأحمر ، وبعض شجيرات أوراد الختمة ذات الالوان الريفية الزاهية • ويحيط بفناء الدار ثلاث حجرات من جانبيها الشمالي والغربي ومرافق صحية من جانبه الشرقي• وليس في الدار طابق علوي • أما سطحه فمحصّن بستائر من التوتيا (الجينكو) من جهة الطريق العام ، وبجدران الدور المجاورة له من الجهات الثلاث الأخرى • وكان جارنا الى اليمين رجلاً عرفنا أن له زوجتين،إحداهما شابة ناعمة الوجه والعمر والأخرى أكبر عمراً منها • ولم يكن لهذا الرجل

أطفال ، وهو كهل وقور ومثال للبرجوازي المعتدل ، ولم أره يوماً إلا والسدارة تغطي أكثر رأسه في وقت كانت السدارة يومئذ قد بدأت تختفي من رؤوس العراقيين ، واذا صادف ان قابل أحدنا نصحه بالقراءة ، فالكتاب كما يقول هو الكنز الثمين لكل انسان • ويكرر مثل هذه النصيحة لكل منا حتى لو رآنا أكثر من مرتين في اليوم ، كما كان يقوم بنفسه في أيام الصيف الحارة بحمل الماء المثلج أو اللبن الخضيض البارد إلينا وهو يقول بتواضع وحنو :

— أنتم يا أولادي ليس لديكم وقت لشراء الثلج ، فكرسوا أوقاتكم للقراءة ، وأنا أزودكم بالثلج •

كان هذا الرجل يحنو علينا ويهتم لمصالحنا كما يفعل الأب لأبنائه • أما جارنا الى اليسار ، فكانت عائلته كثيرة الاطفال وكثيرة الصخب ، فتقلق انعزالنا الى مراجعة دروسنا بقراءة الكتب ، ولم نجرؤ أن تنبه ذويهم الى ما يصيبنا منهم من أذى •

وعبر الطريق دار بطابقين تقابل دارنا ، وهي الدار الوحيدة بهذا التركيب المعماري في هذا الطريق • ويسكن هذه الدار رجل في الأربعين من عمره ، أصلع الرأس ، ويغطيه ببرنيطة بلون بني ، لم نخطىء في معرفته أجنبياً قبل أن نسمعه يكلّم زوجته بلغة غير عربية ولا انكليزية • وزوجته تقاربه عمراً أو أصغر منه على ما بدت لنا من رشاقة جسمها وطراوته • أما وجهها فكان صبيحاً متورداً في شيء من الامتلاء • وكانا يبكران في مغادرة دارهما ، ويعودان في حدود الساعة الثالثة بعد الظهر • ولا أذكر أنني رأيتهما يوماً وعلى وجهيهما إبتسامة أو انشراح ، بل كانا يتكلمان أحياناً كما لو أن بينهما خلافاً يحاولان أن يتفاهما عليه بالعتاب • ويوماً اكتشف أحدنا وهو الطالب طلعت الذي يدرس في كلية الحقوق ، أمراً غريباً في دار ذلك الرجل الأجنبي • فقد رأى مصادفة من خلال فتحة صغيرة في ستارة السطح ، ان

ذلك الرجل الاجنبي وزوجته يهجعان في غرفة مسكنهما المطلة على الطريق •
وكانا يأويان اليها مبكرين في وقت بحدود الساعة العاشرة ، فاذا ولجا الغرفة
شرع الزوج يرش مبيد البعوض (إمشى) بضخة يدوية صغيرة ، ثم يتعريان
تماماً وبعد ذلك يضطجعان على سريريهما ، فيتناول كل منهما كتاباً من على
منضدة صغيرة بين سريريهما فيقرآن فيه بضع صفحات ، ثم تطفيء الزوجة
المصباح الذي الى جانبها • وأخيراً يلتقيان في فراشهما بعد أن تعم الظلمة
الغرفة إلا ما ينفذ إليها من النور المنبعث من مصباح الشارع القريب من
نافذة الغرفة ، فيكشف عن جسميهما العاريين والتلامس الذي يحدث بينهما•
ولم يكن يتكرر هذا المشهد في كل يوم غير اننا نندفع متدافعين لننظر من
خلال الفتحة الصغيرة آملين أن نرى ما يدور في مخيلتنا على سرير الزوجة•
واذا عدنا الى أسرتنا فقد ينهض طالب كلية الحقوق خلسة ليرى فيما إذا
عاد الزوجان الى تمثيليتهما المثيرة ، فاذا أطال النظر من خلال تلك الفتحة
التي في ستارة الصفيح عرفنا ان ثمة شيء يدور في غرفة الزوجين فننهض
لنشاركه في المتعة • ومع ان ذلك كان يتعبنا ويلهينا عن الدراسة حتى في
ساعات النهار ، فانه بحكم العمر اندفاع غريزي لا يقهر ويحن إليه الكبار
ولا يلعنونه • فما أحلى أيام الشباب بالرغم من خطوراته والتحول الخطير
من بعده الى أيام أفضل أو أسوأ •

الاستاذ ابراهام في الكادر التعليمي

فوجئنا ذات يوم من شهر حزيران سنة ١٩٣٦ بشخص بعمر الخمسين
تقريباً يدخل الردهة الخامسة في المستشفى الملكي ، وقد عرفناه طبيباً لأنه
كان يرتدي (صدرية) الأطباء البيضاء ، وسرعان ما عرفنا ان اسمه ابراهام •
وهذا الاسم من أسماء اليهود في بغداد ، كما كان ذا أنف ضخم مقوّس ،
وهذه علامة أخرى لهذه الملة ، فحسبناه يهودياً ، وبوقت قصير عرفنا انه ليس
مسيحياً فحسب بل كان متديناً ومتحزباً لدين المسيح (ع) أيضا ، فلا تفوته

زيارة الكنائس في المناسبات الدينية • واسمه كاملاً (ليونيل ابراهام) ، ويوماً رأيت على مدخل بيته في شارع العسكري قطعة خشبية كتب عليها (مستر ابراهام) ، ثم عرفت بعد ذلك أن هذا اللقب يطلق على الجراحين في بلاد الانكليز • ولم يكن ابراهام طويل القامة ، إلا أن أناقته ورشاقة بدنه جعلته يبدو بطول معتدل • وكان في نطقه وملبسه ومشيته ما جعلته أيضاً يبدو ارستقراطيا ، فلا يرتدي إلا القمصان ذات الياقة المرتفعة المنشاة التي يرتديها الارستقراطيون في الأعياد والزيارات الرسمية ، ولا يسوق سيارته الشفروليت السوداء إلا ويديه في قفاز أبيض • وكان أنفه دائم الاحمرار من فرط ما يحتسي من الخمرة حتى في ساعات النهار ، غير انه لم يكن يفقد توازنه وأحكامه الصائبة حين يستطب العلاجات الجراحية للمرضى او حين يعملها لهم •

دخل ابراهام الردهة الخامسة ، وتقدم من أحد أسرة مرضاها ، وكنا أربعة طلاب يومئذ في هذه الردهة ، فتجمعنا حوله ، وطلب من أحدنا أن يقوم باستجواب المريض عن حالته المرضية ، والتفريق بينها وبين أمراض أخرى مشابهة في العلامات والأعراض • وكان يتكلم ببطء ، وبنطق واضح فعددناه خير معلم لتدريس الطب ، وصرنا نلازمه حين يدخل الردهة • وهو يدخلها بصورة منتظمة لمتابعة تطورات مرضاه وبخاصة من أجرى لهم العمليات الجراحية • كما كنا نهرع في أيام عملياته الى (بالكون) صالة العمليات لنراقب حركات يديه وهي تقطع أو تخيط الجروح في بطون المرضى • ومع ان ابراهام كان يقدر اهتمام الطلاب بمتابعة أعماله على طاولة العمليات غير اني سمعته يوماً يقول : ان الجراح يرى في هذه العمليات كل شيء في ساحتها ، ومعاونه يرى بعض الشيء منها ، أما الطلبة فلا يرون شيئاً منها •• ثم يستدرك قائلاً : ان مراقبة تحركات من في قاعة العمليات من الجراحين وهم يرتدون ملابس العمليات ، وقفازاتها المطاطية ، ومساعديهم ، والممرضة

التي تقدم الآلات الجراحية التي يطلبها الجراح ، لا تخلو من فائـدة للطالب النبيه • وجو العمليات خاص لا يدرك أبعاده وطبيعته إلا من له حس طبي•

وفي يوم رأينا الاستاذ ابراهام وبصحبته سيدة تقاربه عمرا ، ذات شعر أحمر والى جانبها فتاة في العقد الثاني من عمرها ، عرفنا انهما زوجته وابنـة زوجته التي طلقها زوجها إثر ولادة ابنته •

وتاريخ الأستاذ ابراهام العائلي حافل بالأحداث والمفارقات • فقد أحب في شبابه فتاة سلبت لبّه ، ثم تركته بعد أن أحبت شاباً آخر ، فآلمـه ذلك، وصار يداوي خسارته بفقد حبيبته بالالتجاء الى شرب الخمرة • ولما نشبت الحرب العالمية الاولى طلب الالتحاق بالجيش البريطاني وأن ينقل الى أبعد مكان عن موطن حبيبته ، فعين جراحا في منطقة (عبادان) • وبعد سنين طوال في هذا البلد أصيب بضربة شمس قوية فحمل بالطـائرة الى لندن وأدخـل مستشفى (كايز) للمعالجة • ولما أبل من مرضـه عاد الى عبادان على ظهـر باخرة ، وفيما كان يمارس رياضة المشي على سطح هذه الباخرة قاطعته صبية وصارا يتحدثان في كل شيء ، أحاديث بمقاطع مسلّية، وبينما كانا يتضاحكان من حادث في عبادان فاذا صوت امرأة تنادي تلك الصبية باسمها (سوزن ، سوزن ، يا سوزن) •• والتفت ابراهام الى مصدر الصوت فاذا هي حبيبته المطلقة ، وهي أم هذه الصبية التي كان يتحدث معها • وكانت فرحة أمهـا بخجل في لقائها مع حبيبها الاول ابراهام • أما ابراهام فكانت فرحته هي كل الذكريات الحلوة أيام تعارفه مع حبيبته لأول مرة ، ولم يكن لخيانتها له مع زوجها مجال ليطوف على وجهه أو معالم شعوره • فتزوجا على سطح الباخرة وهي في طريقها الى عبادان • وبعـد أقل من سنة قدم الى بغـداد ليكون جراحاً في مستشفى الغرباء الذي أسسه الوالي مدحت پاشا في جانب الكرخ، وفي هذا المستشفى كانت عمليـة الملقط الولادي والعمليـة القيصرية التي مارسها ابراهام أولى العمليات من نوعها في بغداد •

ولما وصلت كلية طب بغداد الى سنتها الرابعة استدعي الدكتور ابراهام ليترأس وحدة الجراحة الأولى في المستشفى الملكي ويكون في الوقت نفسه أستاذ الجراحة في كلية الطب • وفي الحرب العالمية الثانية أعيرت خدماته الى طبابة الجيش العراقي برتبة عميد وظل يتمتع بهذه الرتبة المرموقة حتى وفاته سنه ١٩٣٩ وقد حمل جثمانه على سيارة عسكرية ونعشه مغطى بالبزة العسكرية العراقية الى مقبرة الانكليز القريبة من ساحة يونس السبعاوي حالياً • وقد أمسك بالحبل الذي تدلى منه نعشه الى قاع القبر كل من زوجته وابنتها من طرف والدكتور هاشم الوتري وموظف من السفارة البريطانية من الطرف الآخر ، بينما أطلق فصيل من الجيش العراقي ست اطلاقات نارية •

رحم الله الأستاذ ليونيل ابراهام وأسكنه جناته الفسيحة •

فراو كرومبيتر وماكدا/١٩٤٢

وحكاية هذه المرأة ممتعة ، وفيها من المصادفات العفوية التي تبدو كأنها رتبت بقصد لتكون مادة لفلم سينمائي مترابط الأحداث والأطراف ، لا مجرد حكاية عن جاسوسة فقط •

كنت في مطلع شهر آذار أبحث عن سكن لي قريب من الكلية الطبية تتوفر فيه الراحة والهدوء لمراجعة كتبي تهيؤا لامتحان التخرج في الكلية• فتعرفت في مطعم « الغزال » القريب من فندق (دجلة) الواقع على رقبة جسر الملك فيصل حيث كنت أسكن بالمشاركة مع صديق لي من أهل أربيل يدرس في كلية الحقوق ، على شاب يدعى جبرائيل كسّاب ، وكان يومئذ يعلم الكيمياء في إحدى المدارس الحكومية ، فلما علم بما أبحث عنه نصحني أن أستأجر حجرة في بيت سيدة ألمانية سماها (فراو كرومپيتر) بمحلة العيواضية، وقال لي انه هو نفسه يسكن في إحدى حجرات بيتها ، كما ذكر لي محاسن السيدة الالمانية والبيت الذي تديره • فأخذني اليها عشية ذلك اليوم • كان البيت ملكاً لعقيد في الجيش العراقي اسمه صالح العزاوي ، وكنت قد عرفته

عن طريق زوجته التركية التي كانت إحدى مراجعات الردهة النسوية التي أديرها في المستشفى الملكي ، وقد طورت السيدة الالمانية ذلك البيت،وغطت أكثر جدرانه الداخلية بالورق المزوّق حتى اختفت أكثر معالمه الاولى ، فأعجبت بالبيت في أول نظرة وأنا أخطو الى داخله حين فتحت بابه السيدة صاحبة البيت • وقد بدت لي هذه السيدة في الخمسينيات من عمرها ، وهي أقرب الى القصر ، ممتلئة الجسم بغير تناسق ، وتحمل على أرنبتي أنفها الدقيق عوينات نصف دائرية • قدّمني إليها صديقي جبرائيل كسّاب بالالمانية التي يعرف التكلم بها ، فرمقتني من فوق عويناتها بتفحص ، ثم رحّبت بي بانكليزية سليمة ، وأعربت عن سرورها أن تستضيف طالباً جامعياً في بيتها ، ولم تمهلني طويلاً بل قادتني لأرى الحجرة التي تعرضها للايجار ، وقالت لي ونحن لا نزال واقفين في داخل الحجرة : ان أجرتها دينار في الاسبوع ، يدفع سلفاً في بداية كل اسبوع • ووجدت الأجر باهظاً بالنسبة لماليتي بعد أن تذكرت أنني أدفع أربعة دنانير فقط في فندق دجلة لقاء السكن وتناول وجبات الطعام الثلاث في مطعم الغزال التابع لأصحاب الفندق • غير أني سرعان ما قبلت بما طلبت مدفوعاً بقرب بيتها من الكلية ، ونظافته وترتيب أثاثه • وبعد ساعة حملت حقيبتي ، وفيها ملابسي القليلة وبعض الكتب المدرسية ، الى الحجرة التي رأيتها في بيت السيدة الالمانية • وبعد بضعة أيام صرت أميل الى مجالستها حين تتعبني القراءة •

كانت هذه السيدة محدثة لبقة ، وفنانة في سرد الأحداث واجتذاب المستمع اليها ، وسرعان ما صارت تخاطبني بتودد وتدلّلني بقولها : يا إبني الصغير •

وكان شهر مايس كعادته قائظاً • كنت أنام ليلاً على سطح البيت طلباً لبرودة الهواء • أما فراو كرومبيتر وصديقي جبرائيل كسّاب فينام كل منهما في حجرته • وكنت غالباً ما أرى في هذا الوقت رجلين يزوران صاحبة

البيت ، أحدهما متوسط الطول بامتلاء ، وبسحنة شرقية ، والآخر بسحنة أوروبية ، فيمضيان ساعة أو أكثر برفقة (فراو كرومبيتر) يتحدثون في الظلة تحت شجرة توت باسقة في حديقة البيت الخلفية • وقد عرفت من (فراو) ان الاول هو الدكتور (غروبا) سفير المانيا في العراق ، والآخر ممثل شركة « باير » للادوية في العراق • ثم يغادر الضيفان البيت بلا صخب كما دخلاه ، وكأنهما لم يكونا في حديقته قبل قليل •

وذات ليلة أيقظتني حركة غامضة على سطح البيت ، غير بعيدة عن سريري ، ولما تخلصت من النعاس في عيني رأيت رجلاً وامرأة يغطان في نومهما على حشية خفيفة مبسوطة على بلاط سطح البيت ، فنهضت عن سريري بهدوء ، وخطوت نحو السلم بخفة لأنحدر الى داخل البيت ، وأكمل نومي في داخل حجرتي • وذكرت وأنا أساعد (فراو) في تهيئة مائدة فطوري وفطورها ما شاهدته على السطح ، فأعلمتني بغير اكتراث انهما من المانيا وهما في طريقهما الى طهران ، وقد وصلا بغداد ليلاً ، وسوف يستأنفان سفرهما بعد بضعة أيام • وأضافت : نعم كان يجب أن أخبرك بذلك مسبقاً غير أني نسيت ذلك يا ولدي الصغير • وقطعت كلامها حين سمعت خطوات الضيفين تضرب درجات السلم وهما ينزلان الى «هول» البيت حيث تتناول وجبات الطعام يومياً • قالت لي (فراو) بتعجل : سوف أقصّ عليك حكاية هذه المرأة بعد سفرها • وظهر الضيفان على عتبة السلم حين كدنا ننتهي من تناول فطورنا — أنا و(فراو) • ونهضت (فراو) لتقوم بتعريفي على الضيفين؛ كان الرجل اسمه (هر كراوس) وهو في نحو العقد الخامس من العمر ، فارع الطول ، أشقر الشعر ، وكانت المرأة في مثل عمره تقريباً واسمها (ماگدا) وردّ الضيفان على تحيتي بانكليزية طلقة • وبدت لي (ماگدا) وكأن عمرها لم يؤثر على أنوثتها إلا بقدر ما تؤثر الأتربة في التحف الغالية ؛ وجه بمسحة من الذبول الطارىء المستحب ، ونظرات دافئة ، وصوت ممتلىء

بحنان ، وجيد لا تزيد في جماله قلائد الذهب والأحجار الكريمة • وبعد ثلاثة أيام غادر الضيفان الى طهران • وفي ظهر يوم سفرهما ، وأنا و(فراو) تتناول غداءنا تململت لتقص عليّ ما وعدتني به عن السيدة (ماگدا)، وقد بدا لي أن اهتمامها لكي أسمع القصة منها أكثر من شوقي الى الاستماع اليها• وبدأت الكلام دون مقدمات وكأنها تستمر في إتمام حديث له تكمله• قالت: ان (ماگدا) كانت أشهر مغنية في برلين ، وقد ربط حب عنيف متبادل بينها وبين محام كبير اسمه (براون) ، فلم تطق زوجته الصبر على ذلك ، ولما رأته مصراً على الاتصال بـ (ماگدا) ، اتصلت هي نفسها بها تلفونياً واستعطفتها بتوسل أن ترحمها وترحم طفلتيها ، باسم الوجدان والانسانية ، وأن تسد بابها بوجه زوجها براون • فوعدتها (ماگدا) بتحقيق طلبها ، وبرّت به••وكان أن هجر براون زوجته وطفلتيه مثلما هجرته (ماگدا) الى الأبد • وكادت (فراو) أن تتوقف عن إتمام حكايتها ، فسألتها لأستحثها على الكلام ، عن الرجل الذي كان يصحبها حين استضافتهما قبل أيام ، فأجابتني : ليس لي علم بذلك ، فقد يكون زوجها وقد لا يكون • وسألتها مرة أخرى: ألا يجوز أن يكون هو المحامي (براون) ؟ فأجابتني بشكل قاطع : كلا • ثم سألتها : وكيف تعرفين ذلك ؟ فقالت : لأن براون زوجي وأنا التي كلمت (ماگدا) بالتلفون لترفض دخول براون الى بيتها • وكان ذلك مفاجأة لي أوقفتني عن متابعة تناول غدائي • أما هي فقد استمرت تتناوله لا إرادياً • وسألتها : هل عرفت (ماگدا) الآن أنك زوجة براون ؟ فنفت ذلك • ثم سألتها : ولماذا لا تخبريها وتصفي الحساب فيما بينكما بعد أن انتهى كل شيء ؟ فأجابتني باصرار وحقد : لا تقارب بيننا يا ولدي الصغير ، فهي تحب براون حتى لو عاش لغيرها من النساء ، وأنا أفضل موته على أن يعيش لغيري • ونهضت عن مائدة الغداء وهي لما تزل تلتهم اللقم من مواعينه • وكان ذلك الحديث الطويل آخر حديث لي مع مضيفتي فراو كرومپيتر ، فقد انتهيتُ من أداء امتحانات التخرج في الكلية ، وهجرت بيتها الى غير عودة •

وفي يوم ما أردت أن أزورها لأردّ لها بعض أفضالها عليّ ، فطلع عليّ لدى باب بيتها العقيد العزاوي مالك البيت ، ودعاني الى داخل بيته • سألته بعد أن رأى اني فوجئت بمرآه : أريد ان أرى فراو كرومبيتر لو تفضلت ، فقال لي بأنها قد رحلت منذ شهر • ثم أضاف : وقد علمت أنها أُعدمت في طهران لثبوت تجسسها على القوات البريطانية لحساب المانيا • ولما أبديت استغرابي وأسفي على ذلك قال لي : أنا نفسي كان يخالجني الشك بهذه المرأة ••• وها قد تحققت شكوكي • وبعد بضعة أيام رأيت صديقي جبرائيل كسّاب في مطعم « الغزال » ، فنقلت اليه ما أخبرني به العقيد صالح العزاوي ، فنفى جبرائيل ذلك ، وأضاف قائلاً : ان التي أعدمت في طهران هي السيدة (ماگدا) التي استضافتها (فراو) يوم دخلت بغداد بمعية الرجل الذي كان يصاحبها • فعدت أأسف مرة أخرى على النهاية المأساوية لتلك « التحفة » النادرة ! وفكرت ••• لا بد ، إذن ، من أن إحداهن — فراو كرومبيتر أو ماگدا — قد أعدمت •• أو قد تكون الاثنتان معاً •

الامتحانات النهائية بكلية الطب/١٩٣٨

كانت الامتحانات المدرسية تخيفني • والخوف من الامتحان وعدم الخوف منه قد يؤدي الى الرسوب فيه أو النجاح دون اعتبار كون الطالب مجداً أو كسولاً • وأنا حتى بعد أن اجتزت مراحل الدراسة في عمري أحلم أحياناً أنني أدخل امتحاناً لم استحضر له فأرتعد خوفاً منه واستيقظ من كابوسه وأنا أرتعش والعرق يقطر من وجهي ، فاذا وعيت أن ذلك كان حلماً لا حقيقة حمدت الله على ذلك • وقد قيل عن لسان نابليون انه كان في صغره يخشى دخول الامتحان أكثر مما صار يخاف خوض المعارك الحربية بعد ذلك • على انني لم أكن من المتأخرين في سنوات الدراسة بكلية الطب ، بل كنت دوماً من الخمسة الأوائل في صفي • وقربت أيام الامتحان النهائي في

السنة السادسة ، فتهيبت من الاستاذ كندي بشكل خاص حين أتخيله أمامي وهو يوجه لي أسئلة الامتحان الشفهي ، إذ كنت أراه دوماً كما لو أنه طبيب في جميع الاختصاصات الطبية مع اني لم أعـرفه إلا عن طريق محـاضراته السريرية والنظرية ، وعن مشاهـداتي لعملياته الجراحية وأنا أتابعهـا من شرفة الطلاب في صالة العمليات ، فأراه مسيطراً في حركات أصابعه في جوف المريضة ، وازداد اعجابي به في السنة الدراسية السادسة ، حين كنت أتسلل الى الردهة النسائية لأقـف مع من يكون معه وهو يتفقد مرضى الردهة ، وكنت أشعر أو أتخيل انه يوليني نظرة خاصة ألمس فيها احتمال اهتمامـه بأمري • فلما آن يوم الامتحان بموضوعه ، وقفت أنتظر لحظـة ينـاديني مساعده الدكتور اسكندر برهاد ، ونودي على غيري من الطلاب ممن كانوا بعدي في تسلسـل أسمائهم في الجـدول الذي أعد للامتحـان • وفوجئت بالاستاذ كندي يغادر غرفة الامتحان فحسبت أنه أغفل قراءة اسـمي في ذلك الجدول ، فلحقت به وقلت له :

ـ سيدي ، أنت لم تمتحني ••

فلم يلتفت إليّ ولم يجبني • وأعدت عليه أقول :

ـ سيدي ، أنت لم تمتحني ، أرجوك •

ولم أكمل هذا الرجاء حتى التفت إليّ وهو يقول :

ـ سمعتك يا بني ، ولا ضرورة أن أمتحنك ، فأنا أعرفك مجداً •

أما في موضوع الطب الباطني والجراحة فلم أخف ممن امتحنني بهذين الموضوعين • ولما انتهيت مـن أداء جميع الامتحـانات النهائية في السـنة السادسة بكلية الطب ، قبعت في الغرفة التي كنت استأجرتها منذ أسبوع في فندق الأهالي المقابل لسينما الزوراء بمنطقة المربعة ، ولم تكن هذه الغرفـة مريحة ، فليس فيها من مسالك التهوية إلا نافذة واحدة تطل على كريـدور الفندق ، ومروحة منضدية صغيرة ضجيجها يطغي اساءة على تحريك الهواء

في الغرفة ، وإنما فضلتها لأنها وفرت لي العزلة التي حرمت منها منذ غادرت بيت (فراو كرمبيتر) إثر سفرها الى طهران • وكان يشاركني في هذه الغرفة صديق من أهل أربيل اسمه (مجيد) وهو مريح العشرة، خفيف الروح وودود، وذلك ما كان يخفف عني وطأة جو هذه الغرفة الخانق • وكان في نطق هـذا الصديق تمتمة تزيد كلما ركبه الاضطراب أو أي ضرب من الانفعال ، فضلاً عن لغته الكردية التي تنحشر في كلامه إذا تكلم بالعربية ، فاذا تلكأ لسـانه بدت على وجهه انفعالات عضلية متضاربة وهو يحاول جاهداً اخراج كلمـاته من فيه ، وحين يقهر هذه الانفعالات ، يضحك من نفسه فأضحك معه دون وعي مني • ولما قرب اعلان نتائج الامتحانات النهائية بكلية الطب قال لي :

ـ كمال أريد أن أكون أنا الذي يبشرك بالنجاح ••

ونهض الى التلفون واستعلم من ادارة الكلية عن يوم نشـر نتـائج الامتحانات وسمع من قال له انها ستنشر بعد دقائق ، فذهب متعجـلاً الى الكلية ليقرأ على لوحة الاعلانات أسماء الناجحين ، ومكثت أنا في غـرفتي أنتظر مخابرته التلفونية • وهذا الانتظار لا يماثل ما يسببه من القلـق إلا انتظار الحكم في محكمة قضائية • وصرت أرهف سمعي كلما رنَّ جرس تلفون الأوتيل • وأخيراً طرق سمعي من أجاب على التلفون :

ـ دقيقة ••

ثم سمعته يطلبني بصوت عال :

ـ كمال يطلبونك على التلفون ••

فهرولت الى التلفون ، ووصلني صوت مجيد المتقطع :

ـ أنا مجـيد

وتوقف لسانه ، وتصورته يحاول أقصى جهده ليقول لي شـيئاً ، غـير انه لم يستطع أن يقول ذلك الشيء بسبب تمتمته في النطق • وبالرغـم من أنني لم أتوقع أن ينقـل إليَّ خبراً سـيئاً ، بل انه لا بد يريد أن يبشـرني

بنجاحي ، فانني مع ذلك أردت أن أسمع منه ما يريد أن يقوله ، كما شعرت ان تمتمته ستطول الى آخر عمري فلا أسمع منه البشرى بنجاحي في الامتحان قبل ذلك • نعم لم يقل مجيد لي شيئاً • وسرعان ما انفجر ضاحكاً ، وهي المرحلة التي تنفك فيها عقدة لسانه ، وسمعته أخيراً يقول :

ـ أهنئك يا كمال ••

واكتفيت بهذه الكلمة ، فما أعظمها وأطيب نغمها في أذني • وعدت الى غرفتي وارتديت ملابسي وتوجهت الى دائرة البريد لأبرق الى والدي عن نجاحي في الامتحان ••

ولم أرجع الى الفندق في ساعتها بل صارت في رجلي القوة والراحة والاطمئنان لأذهب الى الكلية لأقرأ اسمي بين أسماء الناجحين من أترابي ، وكان من بينهم محمد حسين كاظم ، وأكرم القيماقچي ، وأشرف محمود ، ومصطفى محمود ، وموسيس هاكوبيان ، وحسقيل معلم ، وداوود كباي ، وأنور كباي ، ونجيب اليعقوبي • ولم أقرأ مع هؤلاء اسم صديقي كمال نورالدين مع انه بحق كان أذكى من كثير ممن نجحوا في هذا الامتحان ، وسوف أتطرق الى سبب رسوبه فيما يأتي ••

حفلة التخرج/١٩٣٨

حفلة التخرج في أية مرحلة تعليمية تُخطف مرة واحدة في العمر ، بينما كل ما يحدث للانسان يمر بعضه أو مثله مرات ومرات • ومن ذلك يجيء فرح المتخرج في هذا الحفل بما لا يوازيه فرح آخر من أمثاله ••

أقيمت حفلة التخرج في هذه السنة بحديقة الكلية اليسرى ، التي أقيم عليها بعد ذلك نادي ومطعم طلبة الكلية • وقد صفّت كراسي شاغرة بعدد المتخرجين في جانب ، وأخرى صار يجلس عليها المدعوون من رجال الدولة ووجهاء بغداد وبعض منتسبي كليات بغداد الأخرى • ويتقدم كراسي هؤلاء عدد محدود من الكراسي لرجال الحكم من الوزراء والأعيان ، وكرسي خاص

ذو متكأ عال في وسط هذه الكراسي . وسرعان ما حضر نوري السعيد بسيارته السوداء رقم (٢٠) بغداد وهو يمسك بيده اليسرى سدارته ، وصافح رئيس مجلس الأعيان (السيد محمد الصدر) ، وجلس الى يساره وبينهما الكرسي الخاص المعدّ لجلالة الملك غازي .. وانتبه المدعوون الى الطلاب المتخرجين يخرجون من باب كلية الطب وهم يرتدون الأرواب السود وتتدلى من خلفها الذؤابة الحمراء ، وأخذوا أمكنتهم على الكراسي المعدة لهم . وفور وصول الملك صدحت فرقة الجيش الموسيقية بالتحية العسكرية، وخطا الملك متوجهاً نحو الكرسي المعد له ، فقام له كل من نوري السعيد والسيد الصدر ومن كان من المدعوين الى هذا الحفل . وكان الملك يرتدي اللباس الغربي . ثم تقدم عميد الكلية الاستاذ سندرسن من جلالة الملك ورحب به باللغة الانكليزية وتلاه مدير الصحة العام الدكتور حنا خياط ، وبدأ هذا كلمته قائلاً :

— ليسمح لي جلالة الملك .....

وهي افتتاحية لم أسمعها ولا قرأتها قبلاً ، فاستسغتها كثيراً . والدكتور خياط يجيد اللغة العربية العذبة ، وذو جرس رجولي نغم . واستعرض في كلمته تأريخ التعليم الطبي في العراق ، ومدارس تعليم هذه الصناعة فيه ، ثم تلى ذلك أداء القسم الطبي يردده المتخرجون وراء الدكتور صائب شوكت . وكان القسم هو نفسه الذي وضعه كبير أطباء اليونانيين أبقراط بتطوير أدخل فيه (القسم باسم الله) (والاخلاص للملك والوطن) . ثم نهض مفتش الصحة العام الدكتور ابراهيم عاكف الآلوسي ونادى على المتخرجين واحداً واحداً ليتسلموا من يد وزير الداخلية (مصطفى العمري) شهادة التخرج الموقعة من وزير الداخلية والدكتور سندرسن عميد كلية الطب العراقية .

كان حفل توزيع الشهادات منتظما وبهيجا ، وقد بدت على وجه الدكتور سندرسن أبلغ علامات الغبطة وهو يتابع توزيع الشهادات • ثم صحب الملك غازي الى سيارته المتواضعة التي كانت تقف على حافة حديقة الاحتفال ، والمحتفلون يودعونه بالهتافات والتصفيق •

حفلة التخرج الخصوصية/١٩٣٨

اتفقنا نحن المتخرجون أن نقيم حفلاً خاصاً بمناسبة تخرجنا في كلية الطب ، لنتكلم ما شئنا أن نتكلم في هذا الحفل ، وبأعلى أصواتنا لنعوض ما فاتنا من سنوات الضجر والكبت ، واداء الواجبات التي أرهقتنا ، والقيود الجامعية والنظم التي كانت تتحكم فينا باستبداد • وفكرة إقامة هذا الحفل لم تكن لنا بل سبقنا اليها الدفعات الست الاولى من الطلاب • واستعرضنا فكرة إقامة الحفلة في حدائق الكلية كما فعل من سبقونا ، فعارض أحدنا الفكرة قائلاً بتذمر :

— في الكلية أيضاً ؟ دخيل الله لا بالكلية ••

واقترح آخر أن نقيمها في بيت واحد منا • فقال ثانٍ :

— في هذا التزامات وتحفظ يتوجب علينا مراعاتها •

واقترح نجيب اليعقوبي أن يقيمها في بيته بالوزيرية • وقال أحدنا خير البر عاجله ، فجمعنا من جيوبنا ما يكفي لإقامة الحفلة ، فكان منها تسعة دنانير • ووزعنا العمل في ما بيننا ، فأسرع محمد حسين كاظم وقال : أنا أعمل أي شيء إلا شراء الكحوليات • وصار عليَّ أن أشتري الكرزات ، وعلى موسيس شراء البيرة ، وعلى نجيب اليعقوبي شراء السمك ، وعلى أكرم القيماقچي شراء الحلويات والفاكهة • وأُديرت الكؤوس ، واذا نحن نتكلم بجذل وحبور ، مقلدين ما يفعله الرجال في المقاهي والفنادق • وتقارعنا الكؤوس كما يفعلون • قال أكرم القيماقچي وهو يرفع كأساً فارغة :

— صحتكم ••

وقال أشرف محمود :

ـــ هذا زغل مو مقبول •

وأسكته موسيس وهو يرفع كأسه بيده ويقول :

ـــ نو شجان ••

ونضحك وفي أفواهنا قطعة من ورق الخس ، أو فلقة فستق •

ولم أكن الى ذلك اليوم قد ذقت أي مشروب كحولي ، فأرغمني هؤلاء الأصدقاء على تناول جرعة من البيرة ، فلم أستسغها لما فيها من مرارة ، وتغضنت عضلات وجهي تقززاً منها •• فقال أكرم متهكماً :

ـــ يابه كمال ، على كيفك ، خلّصت بطل البيرة !

ولم أكن قد شربت منها إلا أقل من القليل ، فقال موسيس موجهاً كلامه لأكرم :

ـــ انت يا هو مالتك ، هو يريد يسكر ، بفلوسه لو لا ؟!

وتناولت جرعة ثانية من البيرة ، وفي الجرعة الثالثة صرت أشعر بشيء لا أستطيع وصفه ، غير أنني تساءلت حالاً مع نفسي قائلاً ؛ هذه هي البيرة فكيف بالعرق الذي يشربه موسيس ؟ وكنت أعتقد ، دون تجربة ، ان العرق أقواها ، ومن أراهم يتمايلون في ظلمات الأزقة لا بد قد أثملهم العرق لا غيره ، فيتجنبهم المارة حين يشاهدونهم يضربون بأكتافهم الجدران يمنة ويسرة • وقال أحدنا أريد ان أسكر هذه الليلة ، فتذكرت تلك الفئة من السكارى • أما محمد حسين كاظم فقال له :

ـــ انت سكرت وما تدري بنفسك ••

فردّ عليه :

ـــ شنو يعني سكرت ؟ فأنا لست سكراناً ، وأعرفكم واحد واحد !

وقال موسيس :

ـــ أساتذتنا كلهم يشربون (حليب السباع) ، ويسكرون ••

فقال له أكرم :

ــ يبين أنت قديم بالمهنة ..

فقال أشرف :

ــ حتى (السيد) منهم ..

وسأله أكرم :

ــ من هو السيد ؟

ــ أنت تعرفه ..

ــ ما أعرفه ..

ــ من أقاربك شلون ما تعرفه ؟

وأراد أكرم أن يحوّل الحديث الى موضوع آخر فالتفت الى محمد حسين كاظم وقال :

ــ سوّيها مفاجأة واشرب ، حتى تقول التلميذ على سر أستاذه ..!

فرفع محمد حسين كأساً فارغة وقال :

ــ نخب السادة

فقال له أكرم :

ــ تقشمرنا مثلما قشمر السيد المريّة !

فقال موسيس :

ــ شنو موضوع السيد والمريّة ، خلونا نسمعها ..

فقال أكرم :

ــ أنا سمعتها من كمال (نورالدين)

ــ فقال موسيس : هذه إذن ملفقة ، طيب نسمعها ..

فقال أشرف :

ــ أقولها باختصار كما سمعتها من كمال :

ــ لا قلها بتفصيل مع الملح والفلافل .

قال أشرف :

ـ دق جرس باب بيت السيد

فسأله موسيس :

ـ من هو السيد ؟

ـ هو الذي يشرب حليب السباع !..

واستمر أشرف يقول :

ـ منو بالباب ؟

فأجابته امرأة تلبس عباءة سوداء :

ـ عمي الدكتور ... آني فطومة

ـ انتِ منو ؟

ـ آني ما عرفتني ؟ البارحة شفتني ، آني فطومة

ـ شتريدين ؟

ـ أريد أسألك ..

ـ إلمن تريدين تسألين ؟

ـ أريد أسألك ، انت مو الدكتور ...

وكان الدكتور يرتدي الفانيلا واللباس الطويل أبو (البزمة) فقال لها :

ـ الدكتور طلع ..

ـ عمي انت الدكتور !

ـ انتِ غلطانة يا أمي ، الدكتور طلع من البيت ..

فقال جوزيف (خدوري) :

ـ لا تگولون ، الدكتور سكران ، لأن السيد لا يسكر ..

وملأ أكرم كأساً من البيرة وقدمها لي وهو يقول :

ـ اشرب يا كمال ، أنت مو سيد ..

وتذوقت ما في الكأس فاذا هي مرة أيضاً ، فهضمت الجرعة على مضض،

وأردت أن أداري موقفي فسألت :

ـ أريد أن أعرف ماذا حلّ بالمرأة وطبيبها السيد ؟

فقال لي جوزيف :

ـ أنت لا تفكر إلا بالمرأة ..

وقال موسيس :

ـ يا معود ، المرأة عجوز ..

ـ والسيد قابل أصغر منها ؟

فقال مصطفى محمود :

ـ السيد نفسه طريّة ..

وقال أكرم :

ـ كل من يذهب الى طبيب فهو عجوز ، وأردف يقول :

ـ إذا ذهب العمر ذهبت معه العافية .

ـ هذا كلام السيد الطبيب ، لا من عندياتي ..

وانتهى مجلسنا ولا يعرف أحد منا كيف انتهى إلا محمد حسين كاظم ، إذ انه لم يذق البيرة في تلك الليلة .

× × ×

طبيب في التدريب بالمستشفى الملكي
ومقيم في شعبة الولادة والامراض النسائية

التدريب في المستشفى الملكي/١٩٣٨

صدر أمر من العمادة بتوزيع العشرة الأوائل من خريجي كليـــة الطب وعددهم ثمانية عشر على وحدات المستشفى الملكي فكان عليّ بموجب ذلك الأمر أن ألتحق بوحدة الجراحة الأولى برئاسة الأستاذ ابراهام ، وبعد ثلاثة أشهر تسلمت أمراً بالالتحاق بالوحدة الجراحية الثالثة برئاسة الدكتور شاكر السويدي٠وكنت وأنا طالب أميل الى الاختصاص بـ(الباثولوجي)،وقد يكون ذلك لنظرتي باعجاب لرئيس هذا الاختصاص الأستاذ ملز الذي كنت حين أراه منكبا على المكرسكوب لفحص شريحة نسيجية لمعرفة علة المريض الذي أخذت منه الشريحة ، أراه حينذاك كأنه يشرف باتقان وتدقيق علىالأمراض جميعاً ٠ غير اني سرعان ما ابدلت رأيي في اختيار هذا الاختصاص ،وفضلت أن ألتحق بإحدى الوحدات الجراحية إلا الوحدة الجراحية الثالثة ، ومكثت لسوء حظي ستة أشهر بهذه الوحدة فبدت لي سنين لا آخر لها ، لما شاهدت فيها من المخالفات العلمية في علاج المرضى ٠ ولم تكن لي حاجة الى من يدلني على تلك المخالفات فقد كانت واضحة بالرغم من قلة خبرتي بموضوعهـا ٠ ورأيت أن لا سبيل لي للتخلص من هذه الوحدة إلا التوسّل بعميد الكلية الدكتور صائب شوكت لمساعدتي على ما أرجوه ، فقصدت مكتبه الملاصق لصالة العمليات ، وعرضت عليه شكواي من الوحدة التي أعمل فيها،ورجوته

ان ينقلني الى وحدة أخرى في المستشفى ، واذا صعب ذلك أن يساعدني في الوزارة لينقلني الى أحد مراكز الالوية • وبدا لي أن الدكتور صائب قد لمس حسن نيتي ، واني وراء التعلّم والاستفادة من خبرات أساتذة المستشفى، كما بدا الدكتور صائب في تلك اللحظات يبغي مساعدتي فقال لي :

ـ لا يا كمال ، ستبقى في المستشفى الملكي • وأضاف : سأفكر في إيجاد حل يرضيك ، فشكرته بتكرار ، وغادرت غرفته وأنا في غاية السرور بأمل التخلص من الوحدة الجراحية الثالثة •

وفي صباح اليوم التالي ، جاء (أيوب) فراش الدكتور صائب الى غرفتي في الوحدة الجراحية الثالثة وقال لي :

ـ البيك يريدك ••

والبيك هو الدكتور صائب ، وكذلك كان يذكره بهذا الاسم أكثر منتسبي المستشفى الملكي ، فهرعت بسرور الى مقابلته ، وأنا أعرف مقدماً ان طلبه يخص نقلي من الوحدة الجراحية الثالثة • وكان حين دخلت غرفته يملأ الكرسي الدوّار وراء المنضدة الواسعة وهو يتحدث مع الدكتور صبيح الوهبي ويقف على مقربة منه الدكتور شاكر السويدي ، فقطع حديثه مع الدكتور الوهبي وبادرني يقول :

ـ كمال إسمعني ، الدكتور كندي يريدك في شعبته بقسم النسائيات •

وكان ذلك مفاجأة لي لم أتوقعها ، والتفت الدكتور صائب الى الدكتور شاكر السويدي وقال له :

ـ عندك مانع لو نقلنا كمال الى الشعبة النسائية ؟

وكان جواب الدكتور السويدي سمجاً جافاً إذ قال :

ـ لا فرق عندي ، أن يبقى هو أو من يحل محله ••

ولم أعلم من أين أتتني الجرأة ، فقلت له :

ـ وأنا غير راغب في البقاء بالوحدة الجراحية الثالثة ••

فقال الدكتور صائب :

ــ إذن حلّت المشكلة ، كمال ينقل الى وحدة الاستاذ كندي •

ولم أكن يومئذ أميل الى التخصص بموضوع النسائيات ، ولكن الاعتراض على قرار الدكتور صائب ليس من صالحي • فغادرت غرفته وأنا أشعر أنني لم أحصل على ما يرضيني من هذه المقابلة • وركبني القلق ، وصرت أقلّب الأمر على جميع وجوهه ، حتى استقر رأيي أن أعود الى مقابلة الدكتور صائب مرة أخرى • وفي غرفته قال لي بعد أن شرحت له عدم ميلي للعمل في الأمراض النسائية :

ــ إسمع كلامي يا ابني كمال ، فأنا أريدك أن تلتحق بالوحدة النسائية، فأنا أخطط لتكون جميع الوحدات في المستقبل برئاسة أطباء عراقيين ، ويوما سيغادر كندي العراق ، ويحل محله انكليزي آخر أيضاً ، ووحدة النسائيات تبقى لتترأسها أنت في يوم ليس بعيداً ، فضلاً عن ذلك فان الدكتور كندي قد طلبك بنفسه ، فهو صاحب المبادرة لنقلك الى هذه الوحدة لا أنا ، وهذا امتياز لك ومفخرة ، فقد رفض قبول فلان وفلان من أقرانك ، وفضّل أن تكون أنت لا غيرك في وحدته • وهو يعتقد أن الطبيبين اللذين في وحدته الآن لا نفع يرجى منهما في المستقبل ••

وأردت ان أقول للدكتور صائب (ولكنني يا استاذي لا أميل الى موضوع النسائيات وأفضل عليه الجراحة) ولكنني لم أقل له ذلك بعد أن لمست منه على حين غرة عطفا أبوياً من الجحود أن أتجاهله • وكأن صائب قد قرأ فكري فعاجلني يقول :

ــ ان اختصاص النسائيات (جراحي) وسيعجبك وتحبه بوقت قصير ، خصوصاً بعد أن صارت لك معلومات أولية في الطب الجراحي بشكل عام •

ومدّ يده الضخمة الى التلفون وطلب الأستاذ كندي وخاطبه يقول :

ــ أستاذ كندي ، كمال في غرفتي وسيجيئك بعد قليل،وأرجو أن يرضيك•

وتهيأت بتخاذل لأغادر غرفة الدكتور صائب لأقابل كندي ، ولم أكن أعرف كندي إلا بقدر ما يعرفه أي طـالب عن أستاذه الذي لا يـراه إلا في ساعات الدروس • وكندي منطوٍ على نفســه أكثر من غيره من الأسـاتذة الانكليـز •

كانت غرفة الدكتور كندي على يسار مدخل الردهة العاشرة(الولادية)• ونقرت على بابها مرة ثم مرة أخرى ، فلم أسمع رداً من داخلها ، ففتحتـه بحذر ، فلم يكن فيها أحد • ورأيت هذه الغرفة صغيرة جداً ، وليس فيهـا إلا طاولة للكتابة ضاعفت من صغر الغرفة ، وكرسي واحد بمتكـأ وآخـر صغير بلا متكأ ، وقفص من الحديد في الركن الأيسر من الغرفـة ، ودققت النظر الى ما في داخلـه فاذا فيه أرنب كبير الحجـم ، أبيض اللون ، ولمـا استدرت لأغادر الغرفة ، رأيت الدكتور كندي أمامي وجهاً لوجه • ولم يطل النظر إليّ حتى سألني مستفهماً :

— سـامرائي ؟
— نعم يا سيدي ، أنا كمال السامرائي •
— انتظرني في الردهة •

ولم أسمع منه كلمة أخرى ، فقد كان الموضوع مفهوماً لكلينا • وبعد دقائق وأنا أقـف متكئاً على الطاولة الطويلة التي في وسط الردهـة ، دخل الأستاذ كندي ومن ورائه رئيسة الممرضات (زريفة ميخائيل) ثم كـل من الدكتور فؤاد مراد الشيخ والدكتور إسكندر برهاد • وقد عرفـت اسـمي هذين الطبيبين حين قدمني إليهما الاستاذ كندي قائلاً :
— سامرائي سيعمل معكما في هذه الردهة •
والتفت إليّ وقال :

— الدكتور مراد الشيخ والدكتور برهاد ، هما المعاونان في هذه الردهـة ،

وزريفة رئيسة الممرضات ..

وداهمني في اللحظة شعور أن هذين الطبيبين وكذلك رئيسة الممرضات لم يرحبا بصدق في انضمامي إليهم ، فقد كانت نظراتهم لي وشفاههم التي تحركت برد التحية باردة بوضوح ضاق لها صدري ودفعني الى أن أعيد التفكير في إيجاد طريقة للالتحاق بشعبة أخرى من شعب المستشفى ؛ وقررت حالاً الذهاب الى الأستاذ ملز ليطلبني الى شعبة الپاثولوجي التي كنت منذ باكورة معرفتي بالطب السريري أميل إليها ، وأتمنى لو أختص بها . والتفت إليّ الأستاذ كندي وأنا في غمرة أفكاري وقال لي بتحبب :

— سامرائي ، إرجع دوماً الى كتاب (إيدن وهولاند) واقرأ فيه عما تراه من الحالات المرضية في الردهة ، ولا تجزع من إعادة قراءة الموضوع نفسه حين تتكرر مثل تلك الحالات ، فسترى في كل مرة تقرأها أنك تقف على أشياء جديدة من المعرفة بهذا الاختصاص . واستطرد يسألني :

— هل عندك هذا الكتاب ؟ إحصل عليه من مكتبة الكلية ..

لقد غيّرت هذه الالتفاتة من أستاذي كندي ونصيحته في متابعةالحالات المرضية والقراءة عنها موقفي الذي كان قلقاً قبل لحظات ، ورأيت فيه المعلم الذي يمكن أن أستفيد منه ، ولا يبخل عليّ من علمه .

وانتهى لقائي بالأستاذ كندي في ذلك اليوم بانتهاء مروره على مرضى الردهة ، واحدة بعد الأخرى ، وكان كندي يملي تعليماته في علاج المريضات على رئيسة الممرضات زريفة باللغة الفرنسية ولا يكلم معاونيه إلا أقل من القليل ، وهذا ما جعلني أستغرب منه أشد الاستغراب ؛ ثم علمت انه لايعتمد عليهما في تطبيق توصياته للمرضى . ولما انتهينا من المرور على المرضى أشار إليّ كندي وهو يغادر الردهة الى غرفته أن أتبعه ، وفيها وقفت أمامه باحترام ووجل . وقال لي :

— اقعد !

وجلست على الكرسي الصغير الوحيد في الغرفة ، ودار هو حول الطاولة الوسيعة ليجلس على الكرسي الذي خلفها وسألني :

ـ هل تحب موضوع النسائيات ؟

فأجبته باقتضاب :

ـ لم أعمل به قبلاً .

فقال لي :

ـ سوف تجده ممتعاً . وأنا أعرفك طالباً مجداً ، وأتوسم فيك قابلية أن تكون يوماً ذا شأن بهذا الموضوع ، ولهذا طلبتك بالذات من الدكتور صائب دون الآخرين من أترابك .

ـ شكراً يا سيدي الأستاذ .

وعاد كندي ينصحني أن أقرأ في كتاب (إيدن أند هولاند) في كل ليلة عن الحالات التي أمارسها أو أشاهدها أثناء النهار ، أقرأ هذا الكتاب كطالب وممارس ، ولا تتردد ان تسألني عما تراه فيه غير متطابق واقعياً أو عملياً مع الحالات السريرية . ثم أنت سوف تساعدني في العمليات التي أراها تفيدك المساعدة بها ، كما سأعلمك طريقة فحص الأبوال عن الحبل .

لقد كانت هذه الوعود قد أمالتني نحو التخصص بهذا الموضوع ، بل كأنها قد حملتني الى مرحلة متقدمة فيه .

الردهتان العاشرة والحادية عشرة

الردهة العاشرة مخصصة لحالات الولادة ، والردهة الحادية عشرة للامراض النسائية ، وأي من هاتين الردهتين انموذج لردهات المستشفى الملكي الأخرى : طول كل واحدة منها عشرون متراً وعرضها تسعة أمتار ، ويزيد علو سقفها على أربعة امتار ونصف المتر ، وعلى جانب كل منها طولاً ست نوافذ عالية ما بين سقف الردهة وأرضها . ومدخل الردهة العاشرة ينفتح الى ممر (كريدور) تنفذ إليه جميع أبواب الردهات التسع الأخرى .

وباب المدخل الذي ذكرته عالٍ ، أما نهاية الردهة العاشرة فتنفذ من جانبها الأيمن الى ممر ضيق ينحدر بليونة ثم يستوي ليصل الى مدخل الردهة الحادية عشرة • وعلى الجانب الأيمن من هذا الممر مطبخ صغير لتوزيع الطعام الذي يجاب من مطبخ المستشفى العمومي ليدفّى فيه قبل توزيعه على المرضى ، أما جانب الممر الأيسر فمخصص للمرافق الصحية •

وفي كل من الردهتين صفان من أسرّة المرضى مجموع كل منهما أربعة وثلاثين سريراً • وتتقارب هذه الأسرة فيما بينها لتستطيع المريضة وهي مضطجعة في سريرها أن تصافح المريضتين اللتين على جانبي سريرها ، أو لتناولها المروحة اليدوية المصنوعة من خوص النخيل ليتناوبن على استعمالها في تحريك الهواء على وجوههن المنضوحة بالعرق في فصل الصيف • أما المروحتان السقفيتان فلا يدل على وجودهما إلا الضجيج الذي تفعله أجنحتهما التي تدور بسرعة أجنحة طيور الدراج التي تفزعها الطلقات النارية •

★ ★ ★

ولهاتين الردهتين تاريخ حافل ، فهما بداية تأسيس كلية الطب العراقية• فقد كانتا في أول أمرهما مخصصتين للمرضى من نساء الانكليز المجندات حين دخلت القوات البريطانية الى العراق سنة ١٩١٧ بقيادة الجنرال مود • أما ردهات المستشفى الأخرى فكانت لقوات الاحتلال من الرجال ، جنوداً وضباطاً • وكان على الجانب الثاني من شاطىء دجلة مستشفى آخر أسسه الوالي مدحت باشا باسم مستشفى الغرباء ، فتولاه الانكليز وخصصوه للامراض النسائية والتوليد برئاسة الجراح ليونيل ابراهام ومعاونه الطبيب اليهودي التركي ساموئيل أداتو • كما كان على الطريق الترابي الذي يمتد من بغداد الى الأعظمية مستشفى آخر باسم المستشفى العمومي الجديد (N.G.H) خصصه الانكليز لمرضى القوات الهندية ولأهالي بغداد • وكان يعمل في هذا المستشفى الدكتور دنلوب والدكتور صائب شوكت إثر

عودته من استانبول • وفي سنة ١٩٢٠ نقل الانكليز مرضاهم من المستشفى رقم (٥٣) الذي هو مستشفى المجيدية بعد ذلك ، الى منطقة الهنيدي ، حينذاك نقلت أسرة مستشفى الغرباء وأسرة المستشفى العمومي الجديد الى بناية مستشفى رقم (٥٣) باسم مستشفى المجيدية نسبة الى السلطان عبدالمجيد ، وفيه خصصت الردهة رقم (١٠) للحالات الولادية والردهة رقم (١١) للامراض النسائية • وحين صدرت الارادة الملكية سنة ١٩٢٧ بتأسيس الكلية الطبية لم تكن لهذه الكلية يومئذ بناية لتقام فيها ، فاستعمل عميد الكلية الدكتور سندرسن الردهة العاشرة لادارة الكلية ولتعليم التشريح ، واستعملت الردهة الحادية عشرة لدروس الفيزياء والكيمياء ، وبقيتا كذلك سنتين ثم انتقلت الكلية الى بنايتها الحديثة •

★ ★ ★

ولم يكن اقبال النساء على دخول الردهتين عند تأسيسها كبيراً ، وظل المعتقد عندهن أن المستشفى للموتى لا للأحياء ، وشيئاً فشيئاً ازداد اقبالهن على دخول الردهتين بحسب أمراضهن ، فاذا جئت الى الردهة العاشرة في الصباح ، وهي الردهة المخصصة للحالات الولادية أرى صفاً من النساء الفقيرات وهن يسندن ظهورهن الى جدار الردهة أو يقعدن في الظل في انتظار دخولهن الى الردهة لزيارة قريباتهن فيها ، وتنهض واحدة من هؤلاء وتسألني :

— عمي أصير لك قربان ، شلون فطيّم ؟

وأنا لا أعرف من تكون فطيم ، فأقول لها :

— هي أحسن •

فترفع تلك المرأة الساذجة يدها الى السماء تدعو لي بالستر والعافية والبخت •

ولا أذكر أنني أهملت متابعة هوية من هي بهذا الاسم في الردهة ،

فأسأل وأنا أقف وسط الردهة :

— من هي فطيم ؟

فيجيئني الجواب من مريضتين فأقول لهن دون تخصيص :

— أمّكن تسأل عنكما . والأمهات هن اللاتي يتابعن ذويهن من النساء اللاتي يدخلن المستشفى ، لا الرجال .

صالات العمليات بالمستشفى الملكي

كانت هذه الصالات عامة للعمليات الجراحية والعمليات النسائية والعمليات الولادية ، وتقع جميعها كما ذكرت آنفاً في مجمّع بين الردهة الرابعة والخامسة ، ويتكون هذا المجمع من قاعتين للعمليات الكبرى ، وقاعة ثالثة صغيرة للعمليات غير النظيفة . وحين دخلت الصالة لأول مرة مع الأستاذ كندي لم أكن أعرف يومئذ كيف أتصرف في هذه الدائرة . ورأيت أن أتابع ما يفعله كندي لأفعل ما يفعله . وتدخلت رئيسة الممرضات وطلبت مني أن أخلع حذائي وألبس الحذاء المطاطي الأبيض ذي العنق الطويل ، وألبس فوقه جورباً فضفاضاً من القماش السميك الأبيض اللون زيادة في التحفظ من الأوساخ التي علقت بالحذاء المطاطي . وكان غريباً عليّ حين رأيت رئيسة الممرضات في هذه الدائرة (مس ويد) تثني ركبتيها على الأرض وترفع قدميّ لتدفعهما بيديها في الجوربين ، وهي تسألني :

— هل تعرف لماذا كل هذه الاحتياطات ؟

فأجبتها بسذاجة الجاهل :

— لكي أبعد ملابسي من دم الجروح .

فقالت تصحح جوابي :

— بل لكي نحافظ على نظافة الجروح ونمنع تلوثها بحذائك وثيابك .

ورئيسة الصالة مس ويد انكليزية في العقد الرابع من عمرها ، إلا أنها تبدو أصغر من ذلك بكثير . وهي سريعة الحركة بحبور ونشاط وكأن في

مفاصلها نوابض ، كما كانت صارمة مع كادر الصالة من المعقمين والخـــدم والممرضات المساعدات • كذلك كانت صارمة مع الجراحين الذين لا يلتزمون بأوقات بدئهم في العمليات ، فكانت مس ويد تريد أن يكون كل شيء كما يجب أن يكون بالكمال والتمام • وكانت أيضاً تحتــاط لوصول قفــازات العمليات الى القطر في الوقت المعين ، فدربت ممرضات الصـــالة المساعدات على ترقيع القفازات المتمزقة واعادتها صالحـــة للاستعمال الى حين وصـــول شحنة جديدة من القفازات • وكان على الجراح أن يغسل يديــه بالصابون أولاً ثم بالفرشة والصابون أكثر من بضع دقائق ، ثم يغمس يديه في محلول السليماني المعد دوماً في إبزن مكانها عند مدخل قاعة العمليات • فاذا أكمل الجراح هذه الاجراءات تكون مس ويد حينئذ على استعداد لترمي على يد الجراح منشفة صغيرة ليجفف بها يده الرطبة • ثم ترفع قارورة الكحـــول الموجودة دوماً عند مدخل هذه القاعة ، فتصب قدراً من الكحول على يديه ، وبعد ذلك تقف مستعدة لتربط حزام رداء العمليات الأخضر الذي يرتديــه الجراح • واذا انتهى الجراح من العملية عاد الى أحواض غرفة غسل اليدين، فيغسل يديه وهي ما تزال مكسوة بالقفازات المطاطية لزيل عنهما الدم المتخثر عليهما • وأذكر أنني في أول يوم كنت أساعد فيه الأستاذ كندي ، خلعت القفازات دون أن أغسلهما ورميتهما في حوض الماء ، ثم غسلت يدي ، واذا بمس ويد تقول لي بقدر من السخط :

ــ ان القفازات يجب أن تغسل قبل أن تخلع من اليدين يا بني ، فقلت لها باعتداد الجاهل :

ــ سيغسلها مضمد القاعة بعد ذلك يا مس ويد ••

فقالت لي :

ــ ان ذلك من واجب الجراح ، وان استاذك وغيره من الجراحين يغسلونها وهي تكسو أيديهم • أنت في الجراحة يا بني ما زلت في بيضـــة لم

تفقس بعد ، وتحتاج الى توجيه وتعليم .

فعددت ذلك إهانة لي ، فأدرت ظهري إليها وخرجت بامتعاض من غرفة أحواض غسل اليدين . ولحقت بي لتقول :

— صبراً ، إذا أنت لا تريد أن تتعلم فلا فائدة لك من دخول هذه الصالة .

وفي اليوم التالي عدت إليها واعتذرت بعد أن اقتنعت بصواب نصيحتها وحسن نيتها معي ، فقالت لي ببساطة :

— هذا حسن ، وأفضل لك يا بني ، وابتسمت ..

وكان ذلك علامة العفو والرضا . وصرنا بعد ذلك على وفاق وتفاهم ، وكسبت منها كثيراً من العلم في العمليات الجراحية . ولما غادرت مس ويد العراق الى وطنها بلندن بعد انتهاء عقدها مع مديرية الصحة العامة ، كرّمها جراحو المستشفى بحفلة شاي في حدائق المستشفى تكلم فيها الأستاذ صائب شوكت مشيراً الى حسن تصرفها في صالة العمليات ومع الجراحين وطلاب الكلية . ثم قدم لها هدية رمزية من صنع الصابئة في بغداد . وردّت مس ويد على كلمته قائلة :

— لا أظنني سأنسى الأيام الهنيئة التي خدمت فيها بهذا المستشفى ، وتلك كانت من واجبي ولا فضل لي في ما عملت ، وتأكدوا أن ليس في ذاكرتي عنكم وعن بغداد إلا الجيد وغير البغيض .

لقد كانت مس ويد بهذه الكلمة المختصرة عذبة الروح حتى بدت لـ أصغر عمراً وأجمل خلقة .

غادرت مس ويد بغداد في صيف سنة ١٩٣٩ فخلفتها مساعدتها الآنسة (ماركريت حبيبي) . وكانت هذه يوم رأيتها في صالة العمليات لأول مرة بعمر في منتصف العقد الثالث ، معتدلة الطول ، عسلية البشرة ، وبعينين سوداوين ذات نظرات لينة محببة . وقد تعلمت فن التمريض والقبالة في مدارس الهند ومستشفياتها . فثقافتها انكليزية وتجيد الكلام بلغتها مثلما

تجيدها أمهات هذه اللغة ، فضلاً عن سمو أخلاقها وأدبها الجم مع الصغير والكبير في صالة عمليات المستشفى بما فيها من ممرضات ومضمدين وخدم •
وبقت الأخت مركريت عزباء على طول معرفتي بها وهي في عنفوان شبابها الفياض بالجمال •

مريضات ردهة الولادة والتوليد

كان حين التحقت بردهة الولادة ، أكثر من يدخلن ردهة الولادة ، ممن يجئن من بيوتهن وهن بحالة مخاض ، وقد لا تدخل بعضهن إلا بعد ساعات أو يوم أو يومين من بدء المخاض ، وهذا توقيت يعرض الماخض قبل وصولها الى المستشفى الى مداخلات القوابل قليلات الخبرة أو من لاينظرن الى النظافة إلا بوصفها نوعاً من الترف الذي لا ضرورة له فتصاب الماخض بمضاعفات لا يسهل علاجها ، وقد لا تصل الى المستشفى إلا وهي في رمقها الأخير ، والنتيجة الحتمية المؤسفة معروفة •

ولا تذهب الماخض الى المستشفى إلا ومعها سرب من النساء الأقارب والجيران بالرغم من أن جميعهن يعرفن مقدماً ان لا احتمال لدخول أكثر من واحدة منهن الى غرفة التوليد ، أما الجمع الآخر فيبقى خارج الردهة حتى في أيام الصيف الحارة ، أو أيام الشتاء الممطرة ، وعلى وجوه أكثرهن كل علامات التشاؤم بما في ذلك احتمال إعادة الماخض الى بيتها جثة بلا حياة •

والماخض حين يشتد طلقها تستسلم بلا حدود لقابلتها أو طبيبها المولد دون تردد أو حياء بدرجة تدعو الى التعجب ، فتكشف عما يتطلبه الفحص أو العلاج عن كل جزء من بدنها ، وتستنجد المسلمة حين يتفاقم الطلق بفاطمة الزهراء ، والمسيحية بمريم العذراء ، أما اليهودية فتودع أمرها للقابلة أو الطبيب المولد فتكرر عبارة (افدالك يا جدة ، أو افدالك يا دكتور) واذا ولد جنينها سرعان ما ترفع الأم رأسها عن الوسادة لترى وليدها وكأنها لم تكن هي نفسها قبل لحظات يائسة من هذه النتيجة ، وتهدأ باطمئنان وسرعة

كما تتوقف بعض الزوابع الهوائية بسرعة مدهشة . وتسأل الأم حينذاك:

— ولد؟ بنية؟

ثم تسأل القابلة :

— أنا لا أسمع صوته؟

ثم تقول :

— جدّة ، أرجوك غطيه لئلا يبرد .

ثم تسألها :

— طلعت الجارة؟

ثم تعود بعد قليل هذه الماخض الى طبيعتها الانسانية فتطلب بالحاح من القابلة أن ترى طفلها ، ثم تمد يديها الى دثارها لتغطي به بطنها وفخذيها استحياءً ممن في غرفة الولادة حتى لو كن من بنات جنسها من الأهل والأقارب .

وأوجاع المخاض مؤلمة حتى صار تعبير طلق المخاض والألم مترادفان، وهو سبب اندفاع الجنين وولادته . وسرعة الولادة في كثير من الحالات تعتمد على شدة الألم (الطلق) .

وقد تنتهز القابلة أو الطبيب المولد فرصة الألم الشديد فتقطع العجان من أحد جانبيه لتوسع مخرج المهبل إذا اقتضى هذا الأمر فلا تحس النفساء بالقطع كما تحسه في حالات ما بين الطلق، بينما خياطة جرح العجّان دون مخدر يسبب لها آلاماً لا تحتملها . وكان بعض المولدين يوم التحقت بهذه الردهة يمارسون عملية التوليد بالملقط دون تخدير الماخض، وخصوصاً حين لا يتوفر وجود مخدر إبان ضرورة التوليد ، وحجة من يعمل ذلك (وكان أستاذي الدكتور حيقاري يمارسه في بيوت المرضى وفي الردهة العاشرة) ان آلام الطلق عادة أشد من آلام تطبيق عملية الملقط دون مخدر . أما الدكتور كندي فكان يتحاشى هذه العملية دون تخدير .

حين التحقت بهذه الوحدة كان فيها فضلاً عن رئيسها الأستاذ كندي طبيبان هما الدكتور فؤاد مراد الشيخ والدكتور اسكندر بابا برهاد • وبعد نحو شهر صار الدكتور أحمد كمال عارف ثالث الأطباء في هذه الوحدة ، غير انه انقطع بعد أشهر قليلة عن الدوام فيها ولم أره بعد ذلك إلا في وظائف ادارية في دوائر الصحة • وعند انتهاء فصل الصيف دخل الردهة العاشرة باعتداد الدكتور (جورج حيقاري) الذي كان قد عاد تواً من عطلته الصيفية التي أمضاها في فرنسا • والدكتور فؤاد مراد الشيخ من مجموعة الأطباء الذين كانوا أول دفعة تخرجت في كلية الطب العراقية سنة ١٩٣٣ • أما الدكتور اسكندر برهاد فكان يسبقني في التخرج بهذه الكلية بسنة واحدة ، وهو ابن طبيب آثوري مشهور في مدينة الموصل • والدكتور اسكندر يتقن اللغة الانكليزية ويتعثّر بنطق العبارات العربية •

والدكتور جورج أول طبيب نسائي عراقي في المستشفى الملكي ، غير أنه لم يلتحق بالملاك التدريسي في الكلية ، وشعبيته بين القوابل أكثر من مركزه الحكومي ، وهو من أهل (سعرد) بشمال العراق ومن عائلة دينية ، وثقافته فرنسية ، ويستحق أن تتكلم عنه أكثر مما قلناه عن الطبيبين الآخرين • فهو قصير القامة ، وردي البشرة ، أحمر الشعر أو أقرب الى الحمرة • وكان حين رأيته أول مرة بعمر قدرته بنحو الخمسين سنة • وطريقته في فحص المريضات وعلاجهن تختلف عن طريقة كندي ، وربما لا يرضى عنها • وأذكر جيداً انه ذات يوم بينما كان الدكتور حيقاري يفحص ماخضاً تمزق جيب المياه بأصابعه ، فاستشاط كندي حين علم ذلك ، إذ كان يوصينا حين نفحص الماخض أن نبتعد عن تمزيق جيب المياه بوصفه أفضل موسّع لعنق الرحم • وهذا هو مبدأ انكليزي كنا نقرؤه في كل المؤلفات الانكليزية • وإذ أن حيقاري لم يمزق جيب المياه متعمداً كطريقة علاجية حين تطول ساعات الطلق،

فقد جاء تمزق جيب المياه حدثا رحب به الدكتور حيفاري أو في الاقل لم يهتم له ، وهذا عكس موقف رئيس الوحدة لندي • اما اليوم فانها طريقة معترف بجدواها في إسراع الولاده حين يكون رأس الجنين منحشرا في مدخل الحوض • كما كان الدكتور حيفاري حريصا على تسجيل جميع الحالات الولاديه التي تدخل الردهه في دفتر واسع ، ويشير أحيانا الى هذا الدفتر بانه (الكنز الثمين) في تاريخ الحالات الولاديه في المستشفى الملكي•

وكانت عمليات الدكتور حيفاري الولاديه في الحالات العسرة متقنه ، وقد تكون يداه الصغيرتان عامل في انجاح مداخلاته اليدويه • وفي السنوات الاخيرة التي سبقت إحالته على التقاعد اشتغل بهمة متواصلة في وضع كتاب باللغه العربيه في فن التوليد بعنوان (اليف المولد) ، وصدر هذا الكتاب سنة ١٩٦٢ ، ولغته الانشائية سليمة ، وقد تقدر بمستوى عال ، غير ان هذا الكتاب لم يلق رواجا بين طلبة الكلية أو الاساتذة بسبب لغته العربية التي لم تكن يومئذ لغة التدريس في كليه الطب بالرغم مما فيه من معلومات تطبيقية ذات أهمية عالية •

ومما يذكر للدكتور حيقاري بالثناء والتقدير تحريه عن ما كان يسمى (مانكوليان توش) أي اللطخة المنغولية ، وهي اللون الأسود الباهت الذي يرى قريباً من عجز الوليد • وفي احصائيات الدكتور حيقاري عن هذه العلامة في الاطفال العراقيين انه وجدها في أكثر من ربع عدد المواليد • واسم هذه اللطخة يعود (كما يقول الدكتور حيقاري) الى وجودها في جميع أو أكثرية مواليد المغول ، ثم تختفي تدريجياً بمرور العمر • ويوماً سألته : وماذا تعني هذه العلامة في أطفال العراق ؟ فأجابني بتردد : قد تشير هذه العلامة الى اختلاط المغول بنساء هذه المنطقة !

الدكتور اسكندر برهاد

آثوري الأصل ، ممشوق القامة،وأنيق في ملبسه ويجيد اللغة الانكليزية

التي تعلمها في بيروت • وقد اختار دراسة الطب بتوجيه من أبيه (الدكتور) بابا برهاد • واسكندر برهاد اول من امتلك سيارة من طلاب كلية الطب ببغداد ، وكانت صغيرة الحجم ومن نوع (وليز) الامريكية • وكان كثيراً ما يجيء الى قسم النسائيات وبصحبته شابة عرفنا انها أرمنية من بيت اصفر في البصرة ، وليس في هذه الشابة وسامة ، وجه مدوّر ، وسحنة داكنة وليس فيها من الانوثة ما يجلب النظر إلا ملبسها الملتصق بتقاطيع جسمها الرشيق• وبعد عام واحد من التحاقي بهذا القسم استقال الدكتور اسكندر برهاد وسافر الى بيروت حيث كان يعمل اخوه الدكتور (ملكون برهاد) في ممارسة جراحة الاعصاب ، وانقطعت عنا أخبار الدكتور اسكندر برهاد حتى عام ١٩٦٠ ، فبلغني حينذاك أنه عاش في بيروت طيلة هذه المدة بعشرة تلك السيدة الأرمنية التي كنت أراها بصحبته ببغداد • وذات يوم وُجدت هذه السيدة قتيلة في شقة اسكندر برهاد الذي كان طيلة ذلك اليوم في برمانة ضيفاً على احد أصدقائه هناك • فاستوقفته شرطة التحقيق في الحادث ثم أفرج عنه بعد أن اكتشفت ان القاتل كان جار الدكتور برهاد في العمارة التي يسكنها • ولم أسمع عن الدكتور اسكندر بعد ذلك •

الدكتور فؤاد مراد الشيخ

وهو من خريجي كلية الطب العراقية في الدفعة الأولى سنة ١٩٣٣ • وسيم الوجه وذو قامة مربوعة وأنيق في ملبسه ، واجتماعي النزعة • وقد سافر بعد تخرجه في الكلية الى (دبلن) بارلندة التي كانت مشهورة بأساتذتها في فن التوليد ، وصار له في هذه المدينة أصدقاء من الرجال والنساء وكاد يتزوج بابنة الزعيم الارلندي (دي فاليرا) وعاد الى بغداد ليلتحق بشعبة النسائيات في المستشفى الملكي • ولم أجده جاداً في هذا الاختصاص ، وكان هذا أيضاً انطباع الكثيرين من أصحابه الأطباء وغير الأطباء ، فكان من ذلك أن جهل كندي وجوده في شعبته •

الأستاذ كندي

واسمه كاملاً : وليم ديفد كندي ، ويوقع اسمه بالحرفين الأولين من اسميه الأول والثاني ثم باسم عائلته (كندي) . وهو من أم فرنسية وأب اسكوتلندي من مدينة أبردين. وتوفي أبوه وابنه وليم في عمر الصبا ، فكفلته أمه ، وآثرت أن تستقر في أبردين الى جانب عائلة زوجها المتوفى حتى يتم وليم دراسته في الطب . وأجاد وليم اللغة الفرنسية على أمه ، كما أتقن الانكليزية نثراً ونظماً . وكانت قامته أقرب الى القصر ، متين البنية ، أصلع الرأس ، متبتّل في عيشه وملبسه الى درجة تستدعي الاستغراب ، فكان لباسه في الصيف من قماش الخاكي الرخيص ، وفي فصل الشتاء يرتدي طقماً أسود وقميصاً أبيض بياقة منشاة كالتي يرتديها القسوس،ويلف حولها رباطاً أسود وهو نفسه الذي يرتديه في الصيف . وأغرب من كل ذلك ، كان كندي إذا حمل موزع البريد رسالة له من أوروبا ، فتحها بطريقة خاصة وقرأها ، ثم يجيب عليها برسالة يضعها في المظروف نفسه ، ويعيد غلقه ويكتب على ظاهره كلمة مرفوض REFUSED ويعيده في اليوم الثاني الى موزع البريد ليردها الى القطر الذي صدرت منه بحسب العنوان المدوّن على ظهر الرسالة. من جهة ثانية كان كندي زاهداً في المال والحصول على المزيد منه ، كما كان كريماً مع المريضات الفقيرات ، فقد كان يرفض فتح عيادة خصوصية في بيته الملاصق للمستشفى كما فعل زميلاه الأستاذ سندرسن والأستاذ دنلوب وكلاهما مثله يعملان في كلية الطب ، ولو فعل مثلما فعلاه لكسب مثلهما أموالاً كثيرة .

وكان كندي متتبعاً لحالات المرضى بلا تعب ولا ملل ، وايجابياً في جميع أعماله في الردهة وفي صالة العمليات ، فيحمل المريضة بيديه من سريرها الى النقّالة لأخذها الى صالة العمليات ، ثم من النقّالة الى طاولة العمليات . وينظف منطقة العملية بيده بالماء والصابون ثم بالكحول ثم بصبغة

اليود التي يوسع مرورها على أكثر من منطقة العملية • ويغطّي هذه المنطقة بالملاآت بنفسه أيضاً • وفي يوم قال لي : إذا تركت ذلك للممرضة لتعمله بيدها فان ذلك يشبه من يسمح لغيره أن يحلق له ذقنه • واذا شرع كندي بشق بطن المريضة فانه لا يرفع السكين عن بطنها حتى ينتهي من شق طول ما يريده ، فهو لا يكرر الحركة في القطع ، ولا في خياطة الجروح ، وهذا ما جعله يبدو بطيئاً إلا أننا لو ضبطنا الساعة عليه لدلّ على عكس ذلك• ولم يكن كندي يكشف جروح عملياته إلا حين يقرر رفع غرز خياطة الجلد وهي طريقة لم يألفها الجراحون في بغداد إلا بعد حين ••

ولم يكن في أيام كندي الأولى معروفاً في بغداد اختبار بول المرأة عن كونها حامل أو غير حامل • وقبل مغادرته العراق بسنة فقط نشر الطبيب الامريكي (فريدمان) طريقة لتشخيص الحبل بحقن بول المرأة في دم أنثى الأرنب ، ثم يفتح ظهرها ليرى تكوين (الجسم الأصفر) في مبيضها • فأسس كندي مكاناً صغيراً ملحقاً بردهة الولادة جمع فيه بضع أرانب إناث لتجربة تعامل فريدمان عليها • وكان يفتح ظهر الأرنب بعد اسبوعين لفحص مبيضها عن (الجسم الأصفر) • وفشلت تجربته الاولى ، وكان الفشل من جانب الأرنب ، إذ ان هذا الحيوان أدار رأسه نحو الجرح الذي في ظهره وقرض بأسنانه الخيوط التي خيط بها ذلك الجرح • وتحايل كندي على ما يفعله الأرنب بجرحه ، فخاط الجرح في تجربة أخرى بقارصات (مشل) المعدنية• وفي هذه الحالة أيضاً أصرّ الأرنب أن يخلع هذه القارصات بأسنانه فأدمى شفتيه•وفي تجربة ثالثة ربط كندي أطراف الأرنب الأربعةعلى سطح خشبة فلم يستطع الأرنب ثني جذعه ليصل رأسه الى الجرح • لقد كان باستطاعة كندي أن لا يلجأ الى أي من هذه الطرق ولا يبالي بما يفعله الأرنب بجرحه ، غير انه كان يهدف كباقي أعماله الأخرى الى ان يكون عمله متقناً ونظيفاً كما انه بطريقته يستطيع أن يستعمل الأرنب الواحد في أكثر من تجربة واحدة •

واشد ما أثار استغرابه انه لم يشاهد على جرح الارنب اية علامة للالتهاب ،
حتى صار بعد ذلك يستعمل ادواته على جروح الارنب دون تعقيم •

★ ★ ★

وكان الاستاذ كندي قليل الكلام إلا مع رئيسة الردهة (زريفة ميخائيل)
ولذلك صممت ان لا اتصل به إلا عند الضرورة ، ولسبب علمي ، وان أعمل
بيدي كل ما تحتاجه المريضة حتى تفريغ مثانتها بالقسطرة • كما لاحظت ان
زريفة تسبق كلاً من الدكتور فؤاد والدكتور إسكندر لملاقاة كندي لاعطائه
المعلومات عن المرضى ، وكانت تتفاهم معه باللغة الفرنسية وهي تجيدها كما
يجيدها كندي ، فلم أكن افهم ما كانا يتكلمان ، وهذا ما كان يغيظني
ويزعجني أيما إزعاج ، فاذا انتهينا من مرورنا على مرضى الردهة انفرط عقدنا
فيذهب كندي الى غرفته ويذهب زميلاي فؤاد واسكندر الى غرفتهما الملحقة
بالردهة ، اما انا فلم اكن أعرف أين مكاني في الردهة ، ولا سألت عنه من
زريفة ، فاتخذت الطاولة الكبيرة الطويلة التي تتوسط الردهة العاشرة مكتباً
لي • وفضلت هذه الطاولة على مثيلتها في الردهة الحادية عشرة لقربها من
غرفة الدكتور كندي ، كما ان أكثر أعمالي الليلية كانت في تلك الردهة ،
فضلاً عن ان هذه الطاولة كانت في طريق كندي اذا دخل الردهة أو اذا
غادرها ، فاكسب من ذلك التفاته إليّ كطبيب مبتدىء يهدف بجد الى
دراسة تطور الحالات المرضية باستمرار ، وهذا المكسب بهذه الطريقة لم
أخطط له مسبقاً بل كان واقعاً لا بد منه دون عمد مني •

وكان كندي في تعامله مع الحالات المرضية ايجابياً الى أبعد الحدود ،
ومتمكناً من خططها الجراحية بدرجة مدهشة وكأنه خلق ليكون جراحاً ، وهو
يستعمل أصابع يديه وكأن كل واحد منها بأكثر من ثلاثة مفاصل ، ويعقد
الخيوط بطريقة خاصة كأنها عمل من أعمال الحواة ، ويقطع باليد اليسرى
كما يفعل باليد اليمنى بسواء ، وهو يبطىء حيناً في عمله ويسرع حيناً ،

فتنعدم الرتابة المملة في حركات يديه . وكان في جميع ذلك يفسر لمن يعاونه في العملية فيقول مثلاً :

ـ علامة واحدة على جلدة البطن بقفا السكين بحافتها غير الحادة كافية لتدل على تطبيق حافتي الجرح الذي يعمل لفتح البطن . ثم يقول: واستذكر دوماً تشريح المنطقة التي تعمل فيها (ثم) يؤشر بطرف الملقط أو السكين التي بيده ، ويقول : هنا في الطرف الأسفل وعاء دموي ، ويضرب بالسكين هذا المكان فيتدفق الدم (ويسكت ليقول) واجعل ساحة عملك نظيفة كما تعنى بأفرشة سريرك ، ولا تمسك الأنسجة بالملقط المسنن إلا عند الاضطرار قبل أن تستذكر الأوعية الدموية التي تحتويها ، وجفف الدم بشاش يدك بالضغط عليها بخفة لا بالمسح ، لأن المسح بالشاش قد يورث الالتصاقات فيما بين أعضاء الحوض وانسجته عند التئام الجروح فيه بعيد العملية ، أو انه يفتح أوعية دقيقة تسبب النضح الدموي فيما بعد . وحين يصل الى التقاطعات الليفية البيضاء في الجدار البطني ، يقطع قسمها العلوي بالمقص في يده اليمنى ثم ينقل المقص الى يسراه ليقطع طرفها الأسفل ، وسمعته مرة يقول متسائلا: لماذا خلقت هذه التقاطعات في هذا المكان من الجدار البطني يا ترى ؟ ويجيب على سؤاله والضحك الخافت ينفجر من بين لثامه :

ـ انها لتجميل بطون النساء ، لا لتقويتها فقط .

وكان كندي يبهرني في أعماله في الجوف البطني ، حتى خلت أنه يستطيع أن ينجز أكثر حركاته وهو مغمض العينين ، وهذا عكس أعماله في التوليد ، وربما يكون ذلك لأن العمليات الجراحية في الحوض أو البطن تكون مكشوفة أمامي فلا تفتني متابعتها اذا قطع أو خاط في أنسجتها ، أما في عمليات التوليد فانه يتمها دون أن أرى ما يفعل في داخل المهبل أو في داخل البطن ، باستثناء العملية القيصرية . فعمليات تدوير الجنين وتقطيعه وتفتيت جمجمته ، وتطبيق الملقط على رأسه ، فبالرغم من انه ينجزها بخفة

وسيطرة إلا انها لم تشغفني بقدر ما شغفتني أعماله الجراحية المكشوفة .
وكانت يدا كندي ضخمتين غير انهما بسبب تجربته الواسعة يستطيع أن يصل بهما الى أدق أطراف الجوف الحوضي بيسر وبأقصر وقت . وكان يردد حين يعمل في التوليد : ان القوة الجسدية ليس لها مكانة واسعة في هذا الفن، إلا ان الجهد الذي كان يبذله في بعض الحالات العسرة لا تدع مجالاً للشك أنها عامل مهم لاتمام بعض المواقف الولادية .

وكان كندي يستطب العملية القيصرية في حالات المشيمة المتقدمة في البكور إذا لم يكن عنق الرحم منفتحاً بكفاية لادخال إصبع أو إصبعين من أصابعه لتدوير الجنين ومسك رجل منه وسحبها . وقد يستعمل ملقط (وليت) على فروة رأس الجنين اذا كان معتلناً بهذا الطرف . وكنت في بداية اشتغالي بردهة التوليد مؤمناً بصواب هذه الطرق لحداثتي بفن التوليد .

★ ☆ ☆

وكنت من شدة سروري باهتمام الأستاذ كندي بتعليمي أحاول بمختلف الطرق ارضاءه . وصرت أبكر في دخولي صباحاً الى الردهة العاشرة واسأل رئيسة الممرضات زريفة عن المريضات الجدد اللاتي دخلن الردهة ، وكان بيني وبين الأخت زريفة ودّ أجتهد أن أبقيه متواصلاً ، فتدلني على المريضات الجدد برقم السرير والاشارة إليهن بيدها إذا كن بعيدات عني . فابدأ بمساءلتهن عن شكواهن ونوعها ومدتها وما الى ذلك مما يتطلبه تشخيص المرض ، وأسجل هذه المعلومات على استماراتهن واحدة فواحدة . ويدخل الأستاذ كندي الردهة بخطواته القصيرة ، خافضاً رأسه ويده اليسرى في جيب سرواله ، فنهرع جميعنا إليه ، أنا وزريفة والممرضة فضيلة والدكتور فؤاد مراد الشيخ ، غير أن زريفة على بدانة جسمها كانت تسبقنا للقائه . ويبدأ كندي بالمرور على مريضات الردهة جميعاً ، القديمات والجدد ، ويركز كندي على استمارة الحرارة للمريضات القديمات ، أما المريضات الجدد ، فيقرأ

ما كتبته في استمارتهن وقد يفحصهن وهن في أسرتهن • وتحاول زريفة أن تكشف له أوسع قدر من بطن المريضة ، والمريضة في هذه الردهة قلما تعارض ذلك ولو على مضض وغير رضا ، وينخرط بعضهن في البكاء بعد أن يتم الأستاذ كندي فحصهن لا قبل ذلك • وقد يكون خضوعهن لهذا الفحص بسبب شخصية الأستاذ كندي الطاغية ، كانت عيناه الخضراوين تفاذتي النظرات ، ووجهه الصارم بحنان يرغم المريضة على الخضوع والاستكانة حتى للفحوص المهبلية • واذا أتم فحوصه أخرج من جيبه قلماً وبدأ يصف لي وهو يرسم ما لمسه في الجوف الحوضي على استمارة المريضة ، وهو حسن الوصف والرسم • وكان اذا وضع القلم على الورقة لا يرفعه إلا بعد أن يكمل الصورة ، ثم يشرح لي تفاصيلها التشريحية والمرضية ، وكنت أتابع بتركيز قلبه ولسانه بمنتهى الشغف ، وأكثر الاحتمال انه كان يدرك ذلك وربما كان لهذا السبب يندفع الى المزيد من الاهتمام بتعليمي •

وحين صارت بيني وبين كندي علاقة بلا كلفة أضحيت في حيرة لأعرف حقيقة عقيدته الدينية ، إذ هو يوماً يتكلم عن النبي موسى باسهاب، ويعده الطبيب الأول في التاريخ لأنه (كما يقول) أول من نادى بضرورة النظافة لتحقيق الصحة ، فأوصى بالختان • وكذلك كان يقول بثناء عن النبي محمد (ص) • كما سمعته يوماً يتكلم عن كونفوشيوس بتقديس كحكيم ذي عقل راجح ، ويتكلم عن زرادشت الذي كان أول من دعا (على حد قوله) الى المحبة والتآلف • وذات يوم قال لي ان تعاليم النبي عيسى فيها توسّل واسترضاء أما النبيين موسى ومحمد (ع) فبموضوعية ايجابية تقرب أن تكون صارمة •

طرق المعالجات الطبية في الردهتين الحادية عشرة والثانية عشرة

كانت الأدوية المستعملة في علاج حالات الولادة والنفاس يوم التحقت

بالردهـــة العاشرة محـــدودة لا تزيد على أصـــابع اليد الواحدة كان منهـــا (الپروتتوسل) حبوباً وحقناً في الدم ، وهو من مركبات (السلفا) ، وبلونـــين أحمر وأبيض ، ولكل منهما نطـــاق في الاستعمال لمعالجة الالتهابات • ثـــم ظهرت في أوائل الأربعينات حبوب ٦٩٣ ، وقد كسبت هذه المادة شعبية واسعة في الاستعمال لمعالجة الالتهابات بشكل عام ، وصارت تباع في الصيدليـــات دون وصفة من طبيب كما تباع حبوب الاسبرين •

ومن الأدوية الكثيرة الاستعمال أيضاً حقن (الاومنادين) وتعطى عن طريق الدم ، أو في عضلة الاليتين كمقو للجسم ، قبل وبعد العمليات الجراحية• وتقطر نترات الفضة بنسبة (٢) بالمائة في عين كل وليد • وكانت تعطى جرعات دهن الخروع لكل نفساء في صباح اليـــوم الاول بعد توليدها • وتســـتعمل سلفات الماغنسيوم حقناً في العضلة في حالة الصرع النفاسي •

ومن الأدوات الطبيـــة التي كانت تستعمـــل في هـــذه الردهة (الملقط) الولادي • وكان في الردهة نوعـــان منه هما (بار ــ تقل) و (سمسون) ، والأول أكثر شيوعاً في الاستعمال • كما كان يستعمل (المشداخ) بكثرة وآلة تفتيت جمجمة الجنين ، وآلة (دي ريب) لتوسيع عنـــق الرحم ، وملقـــط (وليس) في حالة المشيمة المتقدمة •

وكان المعتقد في عملية التوليد بالملقط ان قطع العجان من جانبيه يحرم المنطقة من الدم الذي يكفي لتغذيته ، ولذلك يعمل القطع في جانب واحد •

صالة الولادة والتوليد والقابلة موزلي

وغرفة الولادة لا يجوز أن أسميها صالة عمليات طبية إلا مجازاً، ود. لأن مساحتها لا تزيد على الستة عشر متراً مربعاً ، في وسطها سرير من الحديد المفروض أن يكون قد صمم بطريقة فنية لتسهيل عملية التوليد ، غير انه لـــم يكن كذلك ، فليس فيه أي تطوير يجعله يختلف عن أسرة النوم الاعتياديـــة إلا موضعان لقائمتين تدفعان فيه ارفع رجلي الماخض عليهما عند الحاجة أو

لتطبيق عملية التوليد بالملقط •

وكان في ردهة التوليد قابلتين مأذونتين الى جانب رئيسة ممرضات الردهة (زريفة ميخائيل) التي هي الأخرى قابلة تدربت على القابلات الفرنسيات ببغداد • وثمة قابلة واحدة لأعمال الليل اسمها (موزلي) ، وهي كهلة في عمرها ، وتحمل على قصبة أنفها عوينات سميكة ، فيبدو بؤبؤا عينيها كأنهما في قعر بئر ، ، وكانت إذا مشت تضرب الأرض بقدميها المثقلتين بحذاء سميك أشبه بالأحذية الرجالية ، وتخفض رأسها لتتبين موضع قدميها، كأنها تفتش عن شيء سقط من يدها،ومع ذلك كانت موزلي كدودة لا تتعبها مشاكل التوليد ، ولها تجربة لا بأس بها في فحص المواخض وتوليدهن• كما كانت تعرف حدود صلاحياتها في ذلك ، فلا تقدم على عمل ليست على ثقة فيه ، فتطلب حينذاك أحد مساعدي الأستاذ كندي ليتصرف في علاج الحالة، أو تطلب الاستاذ كندي إذا كان ذلك من اختصاصه •

كذلك كان للقابلة موزلي قابلية مدهشة في معرفة ما تلمسه في داخل المهبل أثناء المخاض • ولا بد أن أقول انني أفدت منها معلومات تطبيقية مهمة في هذا المنحى • فتقول لي على سبيل المثال ان الحبل السرّوي الساقط في المهبل في حالة موت الجنين يكون له ملمس (تكّة) اللباس الرخوة ، أما إذا كان الجنين حياً فتحس فيه نبضات بسرعة ضربات قلب الجنين، واعتدال الحياة فيه • كما انها تشبّه ملمس المشيمة المتقدمة (بليفة) الاستحمام•وهي مصيبة في كلا التشبيهين •

رحم الله معلمتي موزلي ، فقد استدعيت بعد سنوات لفحص مريضة في (عقد اليهود) ، واذا المريضة هي (موزلي) وقد بدت لي وهي في سريرها أنصر قامة وأنحف عوداً مما كنت اعرفه عنها ، كما وجدت بطنها منتفخة في جسمها الهزيل فبانت كما تنتفخ الحية حين تبتلع عصفوراً• كذلك نشف الماء من مقلتيها ، وعم الهزال جميع أطرافها • ولم تطل حياتها بعد ذلك إلا

أياماً وتوفيت بسرطان المبيض •

أما القابلة الأخرى التي كانت تعمل مع موزلي ليلاً فهي في الواقع من خادمات الردهة العاشرة ، فتعلمت منها بالمشاهدة شيئاً من التوليد ، وصارت تعاوننا في العمل اذا كثرت حالات الولادة في الردهة • وكانت هذه (القابلة) هرمة غير انها كانت نشطة في أعمالها ، وحنوناً مع النفاسى في الردهة، وبذلك كانت تحصل من بعضهن على الهدايا النقدية أو العينية • ويوماً دخلت غرفتي لتودعني بعد صدور أمر احالتها على التقاعد ، وسافرت الى مدينتها (تلكيف) في شمال العراق ، ولم أرها بعد ذلك •

وتتم عملية التوليد بالملقط في غرفة الولادة نفسها ، وكثيراً ما تنجـز هذه العملية دون تخـدير عام أو موضعي ، وكذلك في عملية قطع العجـان وخياطته • أما كندي فلا يعمل ذلك دون تخدير، وقد ذكرت ذلك فيما تقدم•

مقيم في الوحدة النسائية/١٩٣٨

طلبني تلفونياً الدكتور صائب شوكت عميد الكلية الى غرفته ،ودخلتها وكان في حديث بينه وبين الدكتور شاكر السويدي والدكتور صبيح الوهبي، وفي لحظة قطع حديثه معهما والتفت نحوي وقال :

— اسمعني يا كمال ، ان أكثر حالات الولادة تدخل المستشفى في سـاعات الليل ، والأستاذ كندي يريدك أن تقيم في المستشفى لتكون قريبـاً من ردهة الولادة ، فقلت له :

— ان الدكتور كندي ذكر لي يوماً ضرورة وجود طبيب قريب من الردهة كما هو الأمر في المستشفيات البريطانيـة ، غير انه لم يقترح عليّ أن أقوم بهذه المهمة •

فقال لي الدكتور صائب على الفور :

— أنا أرشحك إليها ، وسوف تستفيد منها ما لم يستفد سواك من الاطبـاء في هذا المستشفى • وأضاف: وانك سوف تكون أول مقيم في تاريخ

هذا التنظيم في المستشفى ، وسوف أعمم تطبيق هذا التنظيم في الاختصاصات الطبية الأخرى واحداً بعد واحد ، وقسم الولادة أحوج الى هذا التنظيم بأي حال من الأقسام الأخرى •

ولما قلت له :

ـ أفكّر

عاجلني قائلاً يسأل :

ـ هل أنت متزوج ؟

فأجبته :

ـ لا ، غير متزوج •

قال :

ـ فيمَ نفكر إذن ، هل تخاف من التعب والسهر ؟

واستطرد بما يشبه التقريع : « عيب على شاب مثلك يفضل الراحة على العمل والتعلّم » •

إن هذه هي لغة تفاهم الدكتور صائب ، فهو يريد أن يرى في غيره ما هو عليه في نفسه ، فهو نشط في كل شيء حتى في نظراته ، وفي أفكاره وأعماله ، وفي كلامه وحركاته • كما له تجارب في ان ركوب المصاعب يقود في كثير من الحالات الى الأهداف المطلوبة •

ولم أجد عندي في تلك اللحظات ما أقوله للدكتور صائب إلا أن أسأله بسذاجة :

ـ وأين أنام يا أستاذ صائب ؟

فأجابني كمن يعتلي منبر خطابة :

ـ إذا تريد أن تتعلم تنام في العراء ، تحت الشمس والمطر •

وقطع الدكتور صائب حديثه معي ، وكأنه حسم الأمر بموافقتي • وتناول التلفون وطلب مدير المستشفى للأمور الداخلية الدكتور علي حسن •

— دكتور علي ، هيىء مكان إقامة للدكتور كمال السامرائي قريباً من ردهة التوليد ، ووفر له فيها كل أسباب الراحة رجاءً ..

وأنهيت مقابلتي مع الدكتور صائب بهذا القدر ، وانسحبت من غرفته الى مكاني في الردهة العاشرة بانتظار المتوقعات اللاحقة . وقد جهد الدكتور علي حسن في إيجاد غرفة لي تريحني فلم يجد غير مخزن مهمل متصل بالردهة النسائية من جانبها الجنوبي . حجرة طويلة قطعها بستارة من الخاكي الثقيل ليكون القسم الأول منها لاقامة من يخدمني ، ويكون القسم الثاني لمنامي وتناول طعامي . وعلى جدار الغرفة المقابل لنافذة هذه الغرفة علقت حصيرة لتعلق عليها ألبستي . أما سرير النوم فكان يملأ الزاوية التي تقابل مدخل الغرفة . وجدران الغرفة كالحة اللون فضلاً عن الرطوبة التي وصلتها من الأرض الى علو يقرب من المتر عن أرض الغرفة التي كانت أيضاً بلا لون معين . وبالاختصار لم تكن هذه الغرفة تغريني لأتناسى ذمها والشكوى منها . وكان يقوم على خدمتي فيها شاب بحدود العشرين من عمره اسمه (شمسي) ، وكانت في عينيه (رأرأة) ، تزداد إذا نظر الى عيني بتركيز، فتدور مقلتا عينيه بسرعة تتعبني عندما أنظر إليهما ، كما كان شمسي لا تحتمل أخطاؤه ، فقد طلبت منه في يوم من شهر كانون الثاني أن يدفىء غرفتي قبل حلول الليل ، فلما ولجت الغرفة لأهجع بعد ساعات متعبة في ردهة الولادة، وجدت نفسي أخوض في مطبات من الماء بأرض الغرفة ، فاستغربت من ذلك وسألت شمسي عما فعله بأرض الغرفة ، فأجابني بكل برود قائلاً :

— أغرقت أرض الغرفة بالماء الحار لأدفئها !.

وشمسي فضلاً عن غبائه غريب الأطوار والتصرفات . فقد كان يد[illegible] بتصفيف شعره بدقة غير عادية ، ويقف حيال المرآة ليتأكد ان لا شعرة واحدة شاردة عن صاحباتها . ويستعمل لهذه الغاية دهون سيارات الاسعاف الموجودة في رحبة المستشفى ، ويضع المشط في جيب سرواله الخلفي ويتعمد

أن يبقى قسماً منه ظاهراً للعيان . وقد ضقت ذرعاً بتصرفات شمسي فطلبت من الدكتور علي حسن أن يستبدل فراشاً آخر به لخدمتي ، فلبى طلبي في الحال ، فجاءني رجل في الخمسينات من عمره ، داكن السحنة معروق الوجه، صغير الرأس ، وأشيب الشعر ، غير انه نشط في تحدثه وحركاته . قال لي حين قابلني أول مرة ، ولم أكن رأيته قبلاً :

ــ دكتور كمال ، أنا كاظم بمكان شمسي

فقلت له :

ــ أهلاً وسهلاً ، وأرجو أن تكون خيراً منه .

فقال لي باعتداد :

ــ انت بعد ما عليك ، انت مثل إبني جواد ، وأنا مثل أبوك توفيق أفندي.

فاستغربت أن يعرف اسم أبي ، وانتظرت أن يكتفي بما قاله ، إلا أنه استطرد يقول :

ــ أنا أعرفك وأعرف والدك وأعرف عمك صالح وعمك محمد علي وعمك حسن .

فاستغربت كثيراً أن يعرف أسماء أهلي . كما انه وصف لي بيتنا بسامراء بما في ذلك غرفة (الطاق) التي تعلو الطريق . كذلك ذكر لي أموراً أخرى تخص عائلتي بشكل دقيق ، فدفعني الى متابعة أخباره حتى ضاق عليّ استيعابها وحسبت أن ما يعرفه عنا قد جاءته بالرواية لا بالمشاهدة ، وانه يخلط الصدق بالكذب ، ولم يهمني ذلك ، بل صار يحلو لي في ساعات فراغي من العمل في الردهة أن أتحدث اليه للتسلية ، ويوماً سألته :

ــ كم عمرك يا أبا جواد ؟

فأجابني باختصار :

ــ أنا بعمر نوري السعيد ، وعليك الحساب .

ويومها كان نوري السعيد قد تجاوز عمره الستين ، فقلت له ما علينا

من نوري السعيد ، فقال لي ما هو أكثر إبهاماً :

ــ أنا كنت في (بلك) نوري السعيد ، واسأل أبوك ، وهكذا فسّر الماء بالماء !

وكان كاظم ينام وراء الستارة التي تعزلني عنه ، ولم يكن يشخر كما كان يفعل سلفه شمسي . وهو يمضي ليالي الجمع إجازة اسبوعية في بيته بمحلة الطوب ، فاذا عاد إليّ في صباح يوم السبت جلب معه ابنه الصغير جواد وهو يحمل تحت إبطه رغيفين من خبز (العروق) فأنقده خمسين فلساً، فيأمره أبوه كاظم أن يقبل يدي فيقول له :

ــ بوس إيد عمك الدكتور

وأعجبني ذات يوم أن أدردش معه فسألته :

ــ كاظم ، قل لي ، عندك زوجة غير أم جواد ؟

فنظر إليّ وهو يضيق ما بين عينيه :

ــ أنا تزوجت ثلاث نساء ، وعندي من الزوجة الاولى ولد هو جواد ، وأمه بنت عمي ، وقد توفيت الله يرحمها على الولادة ، ومن الزوجة الثانية ولد وبنت .

فقلت له :

ــ إذن في عصمتك الآن زوجتان ..

فقال لي :

ــ لا ، واحدة ، الثانية طلقتها بالحلال .

وعدت أسأله :

ــ ومن الزوجة الثالثة ؟

فأجابني :

ــ ما عندي شيء منها ..

وشئت أن أخابثه ، فقلت له :

ـ كبرت يا كاظم ، ما عندك ولد من الثالثة ؟

فأجابني باعتداد وكبرياء :

ـ أنا ما كبرت ، أنا عمك أبو جواد ، الثالثة عاقر .

ـ وكيف عرفت أنها عاقر ؟

ـ أخذتها أرملة ، ولم تخلف من زوجها الاول .

ـ يجوز أن يكون زوجها الأول هو العاقر .

ـ زوجها ابن عمي ، وليس في عائلتنا رجل عاقر (وأضاف يقول) : إحنا ولد محسن وليس فينا عيب ..

فقلت له :

ـ العقم ليس عيباً يا كاظم .

ـ لا يا دكتور ، عيب ونص . الرجل يجب أن يكون عنده درزن ولد .

ـ انت عندك ولـدين وبنتـين فقط أليس كذلك ؟ فأين الـدرزن إذن ، وانت رجّال ؟

ـ الأولاد رزق من الله .

وسكت وهو يعتقد انه لم يندحر في هذه المناظرة .

لقد ألفت كاظم ، وأحببت حكاياته وغمزه بالأمثال ، حتى صرت أفتقده إذا غاب عني في عطلته الاسبوعية ، فأتوق الى بساطته وصراحته وادعاءاته الوهمية والصادقة التي يحملها إلي في أخبار محلته وما يسمعه في مقاهيها ومن يتحدث من السابلة في دروبها ، فيسردها لي بتفصيل وباسلوب بغدادي جذاب . ولا ينسى أبداً أن يضع لنفسه مكاناً مرموقاً في تلك الأخبـار ، وغالباً ما يجعل نفسه بطلاً فيها ، فهو (إمامي) المحلة وحامي ديارها وحارس أموالها ، وهو حاتم طي في الجود وعنترة في المنازلة في كثير من المبالغة المفضوحة .

وذات يوم جاءني كاظم الى كلية الطب وهو يلهث وسألته :

ــ خير ان شاء الله يا (أبو جواد) ؟

فأجابني :

ــ عمك ينتظرك بالغرفة .

فاسرعت معه لارى عمي ، فاذا هو (ابي) لا عمي ، وبعد أن قبلت يديه قلت لكاظم :

ــ هذا أبي لا عمي يا (أبو جواد) .

فقال لي :

ــ تقشمرني ، هذا عمك محمد علي .

وأصرَّ على انه عمي ، وضحك أبي وضحكنا جميعاً . وسألت أبي بعد ذلك فيما إذا كان كاظم قد عاش عندنا في البيت بسامراء ، وانه رآنا واحداً واحداً ، فأكد لي أبي ذلك ، وانه دخل بيتنا (فرارا) من الجيش العثماني ، فألجأه أبي وأسكنه مختفياً في غرفة الطاق أياماً . ومنذ ذلك اليــوم صرت أصدق كل ما كان يقوله لي كاظم .

واجباتي في ردهة الولادة

ومضت ستة أشهر وأنا ليس لي عمل في الردهة سوى تسجيل تواريخ المرضى على الاستمارات الخاصة بهم ، وتلمس الرحم يوماً بعد يوم لتقدير تتابع نكوصه في جوف الحوض في أيام النفاس ، ورسم مخطط بيــاني لــه على استمارة المريضة . ولم تتح لي فرصة لاجراء أية عملية (نسائية) أثنــاء ذلك . وكان الدكتور كندي ، خصوصاً في ساعات الليل ، ينجز بنفسه جميع هذه العمليات صغيرة أو كبيرة . وكنت أطلبه تلفونياً في كثير من الليالــي وفي بعضها أكثر من مرة ، ويلبي ندائي بسرعة تفوق تقــديري ، ويحضــر بكامل ملبسه وكأنه قد عاد تواً من وليمة عشــاء أو كأنه ذاهب إليهــا . ولا أذكر يوماً دخل الردهة ليلاً بلباس النوم بالرغم من انه يسكن في إحدى دور الأوقاف الملاصقة للمستشفى الملكــي ، أو أنه حضر وللكرى أثــر في

عينيه • فيسرع في خلع ملابسه ويرتدي الصدرية الطبية البيضاء ويبدأ بالعمل بهمة ونشاط • وحالات الولادة ليلاً أكثر منها نهاراً ، وأكثر أيضاً من حالات الامراض النسائية ، وهو لا ينفك يسألني عن المريضة التي طلبته ليفحصها :

- بكر ؟ كم ساعة أو كم يوم في الطلق ؟ وهل ان جيب المياه قد تمزق ؟ ونبض الأم ؟ ونبض الجنين ؟ وهل رأسه منحشر في مدخل الحوض ؟ وما هي سعة فتحة عنق الرحم ؟ وهل ان فروة رأس الجنين تظهر أثناء الطلق ؟ ••• (ثم يسألني عن) سبب عسر الولادة في هذه الحالة بالذات ، فأجيبه عن الأسباب التي أقرأها في الكتاب • ويسألني :
- أريد أن أعرف منك السبب في هذه المريضة بالذات ، لا في الحالات التي تماثلها •

وأسكت دون جواب ، فيقول لي هي الحدبة التي على رأس الجنين• وان التأخير في ولادة الجنين هو قوة دفع الرحم لاصطدامه بالعجّان ، أي أن العجّان له عمل سلبي حين يلامسه رأس الجنين،أو حدبته• ثم يسألني كندي:

- إذا قطعنا العجّان فهل يتخلص الرحم من التأثير السلبي عليه؟ (ثم يقول) دعنا نجرب • ويقطع كندي العجّان بعد حقن أعصابه بالمخدر وينظر إليّ فتصطدم نظرته النفاذة بعيني فيبدو عليّ الخضوع والموافقة قبل أن يشرع الرحم بالدفع • وهكذا كان كندي يعلمني فن التوليد كما يقطر الدواء في فم المريض قطرة فقطرة •

وفي ليلة شديدة البرد ، بينما كنت مضطجعاً في سريري وبين يدي كتاب (إيدن أند هولاند) الذي أعارنيه كندي ، إذ سمعت نقراً خفيفاً على باب غرفتي ، اندفع بعده الاستاذ كندي الى داخلها •

- كمال ، هل أنت نائم ؟

فاعتدلت في فراشي وقلت له :

— لست الى الآن يا سيدي •

فقال لي :

— انهض واتبعني •

وأردت أن أبدل ملابس نومي بأخرى فاذا هو يصيح بي :

— لا تكن أبلها يا كمال ، ضع الصدريه البيضاء فوق بجامتك ، وهذا يكفي •

وتبعته من خلال الردهة الى غرفة التوليد ، وسمعته يقول لي :

— مريضة الصرع النفاسي قد توفيت ، وكنت أعرف أن هـذه المريضـة تحت المراقبة ، وقد غادرتها الى حجرتي قبل قليل ، فقلت له :

— لم تخبرني الممرضة الخفيرة •

فقال لي :

— ولا هي اخبرتني أيضاً وانما جئت لأراها فاذا هي ميتة ، هيا •

وندخل غرفة التوليد ، فأسرع يخلع سترته ويلف كمي قميصـه الى مرفقيه ، ويدفع رباطه في فرجة قميصه ، ثم كشف بطن المريضـة المنتفخـة بالحمل وشقها طولاً بالمبضع ، وبسرعته المعهودة في العمليات الجراحية شق الرحم واستخرج منه الجنين والمشيمة ، ثم شرع يستأصل الكبد والكليتين والرئتين والقلب ، ويرمي هذه الأعضاء في طبق ، وبعد ذلك بدأ يخيط بطن المتوفاة بعجالة ولكن باتقان كما لو أنه يعمل في بطن امرأة في الحياة • وفي غضون ذلك يملي عليّ شهادة الوفاة وسببها (بالصرع النفاسي) • ثم يحمل بيديه الطبق المليء بالأعضاء التي استخرجها من بطن المتوفاة الى غرفتـه في الردهة ، ويوصد بابها ، ثم يفرك أكرة البـاب ليتأكد من غلقه باحكـام ، ويرمي بالمفتاح جذلاً في الهواء ثم يتلقاه بيده فرحاً كالطفل الذي يلهو بلعبة جديدة حصل عليها تواً • ثم يقول لي :

— الى صباح غد يا كمال ، وسوف تكون معي حين أعرض هذه الأعضـاء على الأستاذ ملز ، لفحصها نسيجياً •

وهكذا كان كندي أستاذاً وباحثاً لم أر مثله بين أساتذة كلية الطب يومئذ . وفجأة غمرتني فكرة طارئة أشغلت بالي وكأني أعالجها منذ زمان فلم أجد لها حلاً . فقد عملت مع كندي حتى هذا اليوم ما يقرب من السنة، فلم يمنحني فرصة لأنجز عملية نسائية بنفسي بينما صنواي وزميلاي نجيب اليعقوبي وأكرم القيماقچي قد بدءا يتمرنان على عملية النواسير والفتوق المغبنيـة .

★ ★ ★

وكانت ممارسة كندي لمعالجة الحالات العسرة في الولادة بالطـرق نفسها التي نقرؤها في الكتب المدرسية المقررة ، وداومت أتبع طريقة كنـدي حتى حدث ذات يوم حين كان كندي في اجازته خارج العراق فطبقت ملقط (وليت) على فروة رأس الجنين في حالة مشيمة متقدمة ، ولما استمر النـزف استدعيت الأستاذ ابراهام ، وكان يومئذ رئيس قسم النسائيات بالنيابـة ، فأمر بنقل المريضة الى صالة العمليات وفيها أتم علاجهـا بالعملية القيصرية ، اختصاراً في الوقت لصالح المريضة وصالحنا. مع ذلك بقيت مدة طويلة أعتقد أن ابراهام ، وهو جراح قبل أن يكون مولداً ، قد خلط في هذه الحالة بين الجراحة والتوليد ، ولأول مـرة قلت لنفسي يمكن توليـد كل المـواخض القيصرية حتى اللواتي لا يستطب لهن هذه العملية ، ولكن ذلك ليس فيه فن أو اختصاص في التوليد ، فالمولّد هو الذي يعرف الحالات التي تسـتدعي المداخلة ونوعها . وكنت أسمع من استاذي كندي ان المولّد الالماني (يـم) يتقاضى أجوره عـن الولادات الطبيعيـة ضعف ما يتقاضاه عـن التوليـد بالقيصرية ، وحجته أن أي جراح ، أو مولد يستطيع أن يعمل القيصـرية بنصف ساعة وليس من بينهم من يعرف مقدماً فيما اذا كانت الولادة ستتم طبيعياً أو انها تحتاج الى مداخلة إلا المولّد المتمرّس .

ولما عاد كندي من اجازته الصيفية نقلت إليه رأي ابراهام في استطباب

العملية القيصرية للمريضة التي ذكرتها فيما تقدم . وبعد سكوت دام بضع ثوان ، قال لي :

— سيموت من التوليد عما قريب .

اول عملية توليد بالملقط ، واول عملية قيصرية

الوقت هو الساعة العاشرة من يوم ١٢/٦/١٩٣٨ . وكانت الحامل خروساً (أي في حبلها الأول) وهي من سكان الكرادة الشرقية . ولم تكن تعرف حساب يوم وضعها ، فلا تذكر متى كانت آخر عاداتها الشهرية فضلاً عن اول يوم فيها ، وهذا ما لا يساعدنا على تقدير عمر حملها ، غير أن بطنها المنتفخ بضخامة جعلتها تبدو كأنها قد أكملت أو تعدت اليوم المتوقع لولادة جنينها . وكان وجهها شاحباً وعيناها فزعتان ، ونبض رسغها سريعاً ، ونبض جنينها بطيئاً ، وفمها جافاً ، وهي في حالة طلق منذ يومين (على ما ادعت) ومع ذلك كان الجنين حيا ولو في حالة منهكة . وكشف لي الفحص المهبلي عن تورم شديد في جدرانه ، وتفتح واسع في عنق الرحم ، وحدبة ضخمة تتقدم رأس الجنين وتملأ جوف المهبل . واستعرضت هذه المعلومات واذا هي أدلة قاطعة على عسر الولادة ، وان ولادة هذا الجنين قد تطول حتى يهلك . كان عليّ أن أقف على جميع هذه المعلومات قبل أن أطلب الأستاذ كندي ليعمل ما يراه مناسباً او ضروريا لانقاذ حياة الجنين ، وأنا حريص أن أكون دقيقاً في نقل هذه المعلومات إليه . وتناولت التلفون وأدرتُ قرصه رقماً إثر رقم وأنا أفكر فيما اذا فاتني ما يجب أن يعرفه مني الأستاذ كندي عن هذه المريضة .. رنّ جرس التلفون طويلاً ولا إجابة ، وأعدت أطلب (النمرة) ولم أحصل على رد ، فبعثت خادم الردهة الخفير الى دار الاستاذ كندي وهي أولى دور الأوقاف الممتدة على الجهة الشرقية من شارع العسكري ، فأخبره طباخ كندي الهندي بأن سيده الدكتور لا يزال خارج الدار وانه لا يعرف مكانه . وكنت قد شاهدت مرات عديدة الأستاذ كندي يجري عملية التوليد بالملقط في

الولادات العسرة ، فرأيت أن أقدم إن لم أقل أجازف على سحب جنين هذه الماخض بالملقط • فطلبت من القابلة الخافرة بتردد أن تأتي لـي بأدوات هذه العملية ، فسألتني بالرغم من انها سمعتني جيداً :

ـ تجري هذه العملية بنفسك ؟

وحينئذ شعرت وليس قبل ذلك ، ان الأمر ليس سهلاً تطبيقه ، وانني أجازف فيه ، وكدت أحجم عن اجراء العملية ، وفي ذلك مخاطـرة أكبر على حياة الجنين ، وعلى حياة أمه أيضاً إذا تمزق الرحم من شدة الطلق واستمراره دون جدوى • فاستعرضت ما كان يفعله كندي في مثل هذه العمليـة خطوة خطوة • كان يرتدي الصديرية المطاطية الحمراء ، ثم يحكم شد طرفها العلوي على خصره ، ثم يضع اللثام على فمه وأنفه ، ويتحرك بعد ذلك نحو المغسلة، ويفتح صنبور الماء ، ويشرع يغسل يديه بالماء والصابون بضع دقائق ، ثم يستعمل الفرشة لتنظيف ما يعلق تحت أظافر أصابعه وبين طيات جلدهـا • وأقدمت على تقليد كندي وأعمل بتسلسل ما كان يعمله في توليـد المواخض بالملقط • كما حقنت محلول (التوتوكايين) في تجويف النخاع الشوكي كمـا كان يفعل كندي • وبعد أن تأكدت ان التخدير قد عمّ المنطقة السـفلى من جسم الماخض شرعت أطبق الملقط على رأس الجنين بدءاً بالقطعة اليسرى من الملقط • وارتحت كثيراً حين وجدت الملقط في مكانه الصحيح من رأس الجنين، وسحبته مرة ومرة أخرى ، فرأيت أن أقطع العجّان لأضيف مساحة أكبر من فتحة الفرج • وسحبت الملقط فاذا رأس الجنين يأتي في داخله بسهولة•وكانت الخطوات التالية في عملية الملقط يسيرة وقد أتممتها بسهولة • وفي صبـاح اليوم التالي رفعت تقريراً مختصراً عما حـدث في تلك الليلة الى الأسـتاذ كندي ، ولما وصل الى الفقرة التي تناولت فيها عملية الملقط رأيت جانب فمه يعلو لابتسامة خفيفة • ورفع رأسه وقال :

ـ جيد جداً يا كمال ، وهذا يريحني عندما يصعب عليك الاتصال بي • ثم

استدرك: «على أن تستمر تتصل بي في مثل هذه الحالات ولو انني من الآن فصاعداً سأعتمد عليك في التصرف بانجازها» •

★ ★ ★

وأنجزت بعد عملية الملقط تلك زهاء عشر عمليات تتفاوت في الصعوبة والسهولة • ويوماً سألني كندي :

— هل تعتقد ان هذا العدد من العمليات أكثر مما يجب ؟

وسكت ولم أجبه ، فقال :

— أنا أفضل تطبيق الملقط ، وبصورة خاصة في الولادات الخروص ، وان تجاهل تطبيقه أكثر خطورة من تطبيقه في كثير من الحالات •

وهكذا فتح لي الضوء الأخضر لممارسة عملية الملقط في ساعات الليل ، حين يتعذر الاتصال به في تلك الساعات • وكان زميلاي اللذان التحقا بشعبة ابراهام الجراحية قد تدربا على بعض العمليات الوسطى • وبحسّ ضمني رأيت أن لا أعرض هذا الأمر على كندي ، فأنا أعاونه في جميع العمليات الجراحية تقريباً ، وبصورة خاصة عمليات الليل المستعجلة أكثر مما يفعله معاوناه اسكندر وفؤاد اللذان سبقاني الى الشعبة بأكثر من سنة ، وواحد منهما بأكثر من ست سنوات • واهتمامه بتعليمي يرضيني بقناعة ، وأنا حريص على ارضائه ، فتحاشيت أن أشير إليه بما أحلم به ليمنحني فرصة كالتي سنحت لصنويّ نجيب اليعقوبي وأكرم القيماقچي في الشعبة الجراحية، فقد يغضب كندي لو أنني ذكرت له ذلك وفيه ما يعني المقارنة بين طريقة تعليمه وطريقة تعليم الاستاذ ابراهام ، فأفقد رضاه عني واهتمامه بتعليمي • بينما يكفيني قناعة أن يبقيني معه في الردهة ، فقد أنهار لو أُبعدت عنه • وحانت فرصة في ساعة رحمانية ليكون كندي نفسه هو الذي فتح الحديث معي بهذا الخصوص ، ففي طريقنا الى صالة العمليات صباح يوم ، قال لي :

— بلغني يا كمال أن بعض أترابك في شعبة الأستاذ ابراهام الجراحية قد

تعلموا اجراء بعض العمليات. وتابع يقول: واني أرى ان ذلك في هذا الوقت المبكر ليس صحيحاً لتعلم الجراحة، وأفضل أن تساعدني أطول مدة ممكنة لتشاهد السهلة والصعبة من العمليات، وطريقة التصرف بكل منها، فليس ثمة عمليتين متناظرتين من حيث التفاصيل والجزئيات.

وقطع كندي حديثه معي عند هذا الحد حين طلع علينا الأستاذ ابراهام على عتبة غرفته التي كنا قريبين منها، فبادره الأستاذ كندي قائلاً:

ــ أنت عملت المعجزات يا استاذ ابراهام، فقد خلقت من الطلاب جراحين كباراً! بينما الطبيب الذي في شعبتي وهو صنوهم في سنة التخرج لا يزال في دور التحضير الى هذا الاختصاص.

وحين لمس ابراهام هذا النقد اللاذع من كندي قال له:

ــ انهم يتدربون على الجراحة بعمليات صغيرة سهلة، هو تدريب على استعمال الأدوات الجراحية والقطع وخياطة الجروح، ولا أكثر من ذلك.

ورد عليه كندي:

ــ ان العمليات الصغيرة التي تستسهلها لا تزال تخيفني يا استاذ ابراهام!

ولم ينتظر كندي من ابراهام تعليقاً، فتحرك نحو صالة العمليات وسألني

ــ ما هو رأيك يا كمال؟

فأجبته وأنا أريد أن أظهر أمامه أكثر ما أكون اتفاقاً معه:

ــ أنا مقتنع بطريقة تعليمك.

وولجنا صالة العمليات لاجراء عملية قيصرية على ماخض تعمل في دائرة الغسيل بالمستشفى الملكي اسمها (هيلانة)، وكانت أماً لثلاثة أولاد. ووقفت اغسل يدي الى جانب كندي. وهو حين يغسل يديه قبل البدء بالعملية يصفر بنغم حنين رقيق تكاد تلمس شفافيته فأنصت إليه بكل جوارحي وأنا منهمك في غسل كفي الاثنتين. وغادرنا غرفة الغسيل الى طاولة العمليات لنرتدي لبوسها من القطن المصبوغ باللون الأخضر. وبعد أن أحكمت ممرضة

العمليات بأقة هذا اللبوس وحزامه حولي رأيت كندي يقف الى يمين طاولة العمليات ، وطلب مني أن أغطي بطن المريضة بالطريقة التي يعملها بنفسه • وكندي وغالبية الجراحين النسويين يقفون الى يسار الطاولة ليسهل عليهم حركة أيديهم اليمنى في جوف المريضة الحوضي • فاستغربت من وقوفه في الجانب الأيمن ، وقلت لنفسي لعله سها فوقف بهذا الجانب ، ثم تذكرت انه أضبط أي انه يعمل بيده اليسرى كما يعمل بيده اليمنى بسواء ، وهي ملكة يقل وجودها بين الجراحين ، فهو بهذه الموهبة لا فرق عنده أن يقف الى يمين المريضة أو يسارها • فتحركت لأقف الى يسار الطاولة امتثالاً لما فهمته من موقف كندي من الطاولة • ووضعت المشرط أمامه على بطن المريضة التي صبغتها باليود ، فرفعه ووضعه أمامي ، وهو يأمرني قائلاً :

— ابدأ

فالتقطت السكين بذهول ، وسمعته يقول لي :

— اعمل دون عجلة ، وتجاهل وجودي معك ، ان ذلك ليس باستطاعتك ، ولكن حاول •

فارتبكت ، وكانت ممرضة هذه العملية الى يساري فكدت أسألها :

— كيف أبدأ ؟••

وأحجمت عن ذلك ، لأن ذلك سيؤدي بي الى موقف لا يرضي أستاذي كندي ، وآتاني الله عز وجل الرشاد فانفتح أمامي كل مغلق ومبهم في خطوات هذه العملية • واستمر كندي يعاونني بسكون وطاعة ، فلا يعترض ولا يشير مسبقاً إليّ بشيء • وانتهيت من هذه العملية والفرح يطير بي الى أعالي السرور والفخر • ومن العادة أن يشكر الجراح معاونه بعد الانتهاء من العملية ثم يشكر الممرضة التي شاركت فيها، فطبقت هذه العادة ،ولم يرد كندي على شكري إلا بابتسامة لم أنسها ولكن رده المكبوت قد تردد في صدري بفرح وغبطة • وانتهيت أنا وراء كندي الى غرفة الاستراحة الصغيرة التي تنفذ

إليها صالتي العمليات الكبرى • وأخذنا مقعدين حول الطاولة الصغيرة التي تتوسط هذه الغرفة • وقدّم لي كندي سيكارة من علبته المعدنية ، وأشعل لنفسه واحدة ثم شرع يناقشني على خطواتي في هذه العملية ، قائلاً :

ـ لا تكثر من استعمال الخيوط إن أمكن على أن لا تقصها قريباً من العقد• ولا تقارب بين عقد الخياطة ، ولا تشد على (البريتوان) كثيراً ، وضع الثرب وراء الرحم لا أمامه • ولا تكرر حركاتك قبل البدء في عملها • وحاول أن تجعل كل حركة هي الأولى والأخيرة •

ولما رأيته قد انتهى من هذه النصائح شكرته مرة أخرى وهو ساه ولاه عني فاذا هو يهيىء لي سؤالاً ، فداهمني به قائلاً :

ـ هل تلاحظ أن كثيراً من حالات المشيمة المتقدمة تظهر علاماتها الأولى في ساعات الليل ؟ وسكت

فأجبته :

ـ أحسب ذلك •

وكانت العملية التي أنجزتها تواً لحالة مشيمة متقدمة ، فقال لي :

ـ اسأل المريضة بعد أن تستفيق من المخدر فيما اذا حدث النزف بعد علاقة جنسية ، وأضاف يقول ان هذه مجرد فكرة •

وبعد لحظات سكوت قال :

ـ ان المريض الذي يصاب بكسر في عظم فخذه مثلاً ، يكون نومه مضطرباً فلا يغلبه النعاس حتى تنبسط العضلات التي تمسك طرفي العظم المكسور فلا يحتك الطرفان من الكسر ليسببا الألم • (ثم قال) فاذا صح أن أقول ان الرحم يهدأ أو (ينام) فتتوقف فيه قوته العضلية التي تضبط فوهات الأوعية الدموية ، فتنفتح هذه الفوهات ويبدأ النزف من المنطقة التي تلتصق عليها المشيمة •

ثم سمعت كندي يهمس لنفسه :

ـ هل هذا التفسير صحيح ؟
ويجيب نفسه على مسمع مني أيضاً :
ـ لماذا لا يصح !
ويسكت هنيهة ثم يقول :
ـ لا أدري •
أما أنا في ذاتي فقد قلت :
ـ ما أعظمك يا أستاذي كندي !

أول محاضرة سريرية في الامراض النسائية/ ١٩٣٩

منذ وقت مبكر وأنا أميل الى مهنة التعليم ، وكانت بداية ذلك حين صار يجتذبني مدرس التاريخ الاسلامي درويش المقدادي وهو يلقي محاضرته باسلوبه القصصي المشوّق ، خصوصاً إذا ما تحدث عن شخصيات الخلفاء الراشدين • وكان بقامته المديدة وضخامته وصوته المتلىء وهو يصف عمر ابن الخطاب (رض) حين يمسك بيده (الدرّة) لأخاله وهو يتكلم عن هذه الشخصية الجبارة إلا وكأنه الخليفة ابن الخطاب نفسه • كان المقدادي رحمه الله محاضراً مؤثراً • غير ان المحاضرين الاطباء كانوا انموذجاً آخر بالغ التأثير ، ولكل واحد منهم سمة مميزة في محاضراته • كان أستاذ طب العيون الدكتور سبنسر يبدأ محاضرته بقوله : أيها السادة ••• ويبدأ أستاذ الطب العدلي الدكتور حنا خياط محاضرته قائلاً : ذكرنا في المحاضرة الأخيرة الأزباب (الأسباب) التي ••• ، أما أستاذ الپاثولوجي الدكتور ملز فيستهل محاضرته بقوله : يا أولادي ••• ويبدأ أستاذ الأمراض النسائية والتوليد الدكتور كندي بقوله : تذكّروا ما قلته في المحاضرة الأخيرة في ••••

كان هؤلاء المحاضرين يسحرونني بقيافاتهم وهم يرتدون الروب الجامعي الأسود ، ويأسرونني بعباراتهم التي يصوغونها باسلوب لا يصعب فهمه على من لا يعرف اللغة الانكليزية بسهولة • ولم أنقطع عن حضور

دروس الأستاذ كندي حتى بعد تخرجي في الكليـة ، لا لأستزيد من علمه الغزير في اختصاصه فقط بل لأتابع أيضاً حركاته وما يقوله وما يكتبه أو يرسمه على السبورة لتوضيح المادة العلمية التي يحاضر فيها • فقد كان كل ما يأتي به هذا الأستاذ أثناء الدرس في نظري درساً بحد ذاته • وحلّت يوماً ساعة عصيبة بالنسبة لي ، فقد طلب مني يوماً أن أنوب عنه في إعطاء محاضرة سريرية لطلاب الصف الرابع • وكان طلبه هذا مفاجأة أرعبتني وأفرحتني معاً ، وتمنيت لو أنه أخطرني قبل يوم بهذا الطلب لأعدّ له ما يجعله سهلاً عليّ • قال لي : لا بد أن أكون في السفارة البريطانية بعد نصف ساعة ، وطلاب الصف الرابع مجتمعون في قاعة الدرس في الجناح الثامن• وأضاف: تكلّم معهم في أي موضوع تعرفه ، خذ مريضة ، أية مريضة من الردهة الحادية عشرة ، حالة سقوط الرحم ، وفي الردهة الآن حالة من هذا النوع مثالية للدرس ، وهي امرأة مسنّة ولا تعارضك لو أردت أن تكشف رحمها المتدلي بين فخذيها أمام الطلاب •

ووقفت أمام الطلاب في قاعة الردهة الثامنة ، وتملكني خوف وحذر من أن أنشل في هذه المهمة ، وهي تجربتي الأولى في حياتي الجامعية ، ولا بد ان موقفي امام الطلاب يدعو الى السخرية أو الى العطف ، فقد بدأت باستجواب هذه المريضة وفي نطقي شيء من اللجلجة والارتجاف في سبك العبارة الانكليزية :

ــ اسمك يا أمي ؟

ــ عمرك ؟

ــ كم ولد عندك ؟

ــ ممَّ تشكين ؟

ــ وكيف بدأت هذه الشكوى ؟

الى آخر مثل هذه الأسئلة النمطية في استجواب المريضات اللاتي في

مثل حالة هذه المريضة • وهي أسئلة لا يخطىء مبتدىء في تسلسل توجيهها للمريضة • وخفضت رأسي في ما أقوله بعد ذلك ، فوقع نظري على أقــلام الطباشير الملونة التي كانت على الطاولة التي أقف وراءها ، وكان فيها انقاذي من الحرج الذي تورطت فيه ، فتناولت أحد أقلام الطباشير ورســمت على السبورة موقع الرحم وملحقاته في الجوف الحوضي ، ومكان المثانة وعلاقته بالرحم ، وأنا أحسن التعبير بالرسـم منذ صغري • والتفت الى صفـوف الطلاب الذين أمامي ، وبدوا لي وكأنهم ليسوا إلا عيوناً وآذانــاً ترصـد ما أقوله وما أفعله أمامهم • وشرعت أقول متابعاً ما رسمته على السـبورة :

ــ هذه هي الأعضاء الانثوية الداخلية في حالتها الطبيعية •

وعدت الى السبورة وقلت :

ــ أما في حالة هذه المريضة فان الحاجز الذي يفصل بين المثانة وجوف المهبل قد إنمط وتضعضع بفعل ضغط رأس الجنين أثناء الولادات المتعاقبة •

ومسحت هذا الحاجز بالاسفنجة لأجعل الرحم يحتل مكانه الى جانب المثانة ، ورسمت هذا التخريب الذي حصل ، بالطباشير الأحمر ، وصــار في هذا الرسم مخطط واضح ، لا بد ان الطلبة قد استوعبوه •

وحين عدت الى الردهة وجدت الأستاذ كندي قــد وصلها في التو ، فســألني :

ــ كيف كانت محاضرتك يا بني ؟ خبرني عما قلته وفعلته أمام الطلبة •

فأخبرته بما أراد وهو ينصت إليّ ، وأخيراً قال :

ــ سأكون حاضراً في محاضرتك القادمة •

تطور نقل الدم/ ١٩٣٩

كثيراً ما ينزف المريض قدراً من الدم أثناء العمليات الجراحية والولادات فيتعرض لخطر عاجل أو آجل قد يقوده الى الموت • وكان أطباء المستشــفى الملكي هم الوحيدون الذين يعوضون الدم الذي يفقده المريض بدم يأخذونه

من شخص آخر • ولا بد لاجراء هذه العملية أن يفحص مختبريا كل من دم المريض ودم الشخص الذي يؤخذ منه الدم للتأكد من تلاؤمهما • وهذا الفحص على بساطته وسهولة عمله لم يكن يخلو من خطورة الخطأ في صنف أحد الدمين • وكنا يومئذ نستحصل الدم من مرضى (مجانين) دار الشفاء الملحق بالمستشفى الملكي ، دون الالتفات باهتمام الى صحة هؤلاء المرضى وضعف أبدانهم فضلاً عن التأكد من خلوه من الامراض الأخرى ، وقد يتكرر باضطراد أخذ الدم من مجنون أكثر من مرة حتى يضحي دمه ذات يوم غير ذي فائدة للمريض الذي ينقل إليه الدم • وكانت ردهة الولادة يومئذ أكثر الردهات التي تحتاج الى دم مرضى دار الشفاء ، فيؤتى بهؤلاء الى الردهة الولادية وهم مستسلمون كالاغنام التي تقاد الى المجازر ،ويضطجعون على طاولة أخذ الدم وعلى أفواههم ابتسامة بلهاء ينهونها بضحكة قصيرة ، ثم يهداون صامتين طيلة سحب الدم من أوردتهم • فاذا انتهيت من هذه العملية كتبت ورقة صغيرة الى مطبخ المستشفى ليزود هذا المريض بنصف دجاجة مطبوخة ليأكلها زيادة على نصيبه الاعتيادي من وجبة الطعام الاعتيادية• وقد تحدث في هذه الحالة بعض المفارقات والمضحكات ، فقد سألني يوماً مريض من هؤلاء عما في هذه الورقة ، فلما قلت له : فيها نصف دجاجة لك، فما أن سمع مني ذلك حتى دفع الورقة في فمه وصار يمضغها بتلذذ وازدردها بسرعة • فكتبت ورقة أخرى عوضاً عنها وأعطيتها في هذه المرة للمضمد الذي كان يقود ذلك المجنون • ومرة أخرى مع مريض آخر وهو يسأل عما في هذه الورقة ، فلما أخبره المضمد انها أمر للمطبخ لاعطائه نصف دجاجة زيادة على حصته الاعتيادية من وجبة الغداء ، أخذ هذا المريض الورقة وفتلها مرة ومرتين ودفعها الى المضمد وهو يقول له ساخراً بغضب : ادفعها في مقعدك أحسن !

وكنا نستحضر المريض الى صالة نقل الدم قبل استحضار المريض

المجنون ، ثم نأتي بهذا المجنون ليضطجع قريباً من المريض ، ونأخذ منه الدم بمزرقة وندفعه في وريد زند المريض الذي يحتاج الى الدم • وهذه العملية عدا البطء في خطواتها فثمة احتمال كبير في تخثر الدم في المزرقة أو في إبرتها ، كما قد يهدر من الدم على الأرض بقدر أو أكثر مما يعطى منه الى المريض • وذات يوم من خريف ١٩٣٩ زار ردهة الولادة ممثل شركة (قناني باكستر) ، واختار هذه الردهة لزيارتها دون غيرها من ردهات المستشفى لعلمه ان مرضى هذه الردهة أكثر المرضى الذين يتعرضون للنزف الدموي • وعرض هذا الممثل عليّ قنينة (باكستر) بسعة لتر واحد ، مفرغة من الهواء وبداخلها قدر قليل من محلول سترات البوتاسيوم ، ويسد فوهة هذه القنينة غطاء مطاطي ينفذ منه انبوبان من الزجاج يتصل أحدهما بانبوب مطاطي ينتهي بابرة تدفع في وريد الشخص الذي يتبرع بدمه الى المريض فتشفط الزجاجة المفرغة من دمه بفعل خوائها من الهواء • ويربط بالانبوب الثاني انبوب مطاطي آخر ينتهي بابرة تدفع في وريد ساعد المريض ، ثم ترفع القنينة الى مستوى أعلى من مستوى المريض فينساب الدم من القنينة الى دم المريض • ولا يتخثر الدم الذي في القنينة لوجود سترات البوتاسيوم في داخلها •

وأجرى أمامي ممثل (قناني باكستر) نقل الدم من شخص الى مريضة في الردهة ، فاذا هي عملية سهلة ولا تهدر قطرة من الدم خارج مجراه من المتبرع الى المريض • وكان ممثل الشركة ذكياً أو هكذا يجب أن يكون من يعمل في الدعاية لتصريف البضائع ، فحمل إليّ من سيارته صندوقاً فيه اثنتا عشرة قنينة باكستر هدية الى الردهة ، وسرعان ما أتت هذه الهدية بفوائدها لشركته ولمرضى الردهة ، فقد طلبني الأستاذ سندرسن لاعطاء دم الى أحد مرضاه في دار التمريض الخاص ، وكان وجه هذا المريض شاحباً بلا لون جراء النزف الدموي من قرحة في أمعائه • ووقف الأستاذ سندرسن

يراقبني وأنا استعمل قنينة باكستر لنقل الدم الى مريضه فأُعجب بهذه القنينه وطلب مني أن أرفع إليه طلباً لاستيراد خمسمائة قنينة ليطلبها عن طريق وكلاء التاج البريطاني • ومرة اخرى طلب مني الأستاذ سندرسن تليفونيا ان أستحضر مريضه لأنقل إليها دم من شخص آخر لتكون هذه العملية جزءاً من محاضرته في معالجة فقر الدم الحاد • وهكذا انتشر استعمال هذه القنينه بين ردهات المستشفى حتى صارت العملية في استعمالها رتيبة لاصعوبة فيها • كما توقف تدريجيا اخذ الدم من مرضى دار الشفاء ، وصار يؤخذ من ذوي المريض أو من أشخاص آخرين متبرعين ، ثم صار يشترى من الأعراب ، حتى صار لهذه البضاعة سوق لمن يتعاطاها بأجر •وقبل أن يؤسس مصرف الدم صار من يمارس هذه (البضاعة) يطوفون المستشفيات الحكومية والأهلية لتزويدها بصنف الدم الذي يحتاجونه •• وكان منظر بعض الأشخاص الذين يجيء بهم (دلاّل الدم) كما كان يسمى ، محزناً ومؤلماً حين نعرف ان هؤلاء يتاجرون بحياتهم في سبيل لقمة العيش • ولم تختف هذه الظاهرة إلا بعد تأسيس مصرف الدم الحكومي في سنة ١٩٦٥ ، فصار هذا المصرف يزود الدم بحسب طلبات المستشفيات •

اعارة الكتب/١٩٣٩

ذات يوم احتجت الى مزيد من المعلومات عن (الغدة النخامية) فسألت الأستاذ ليونيل ابريهام أن يهديني الى كتاب يبحث في هذه الغدة ، فقال لي:

ــ عندي ذلك الكتاب الذي تحتاجه •

وفي اليوم الثاني جاء الأستاذ ابريهام بذلك الكتاب ، ودعاني الى مكتبه اللصيق بصالة العمليات الكبرى لأراه ، واستغربت أشد الاستغراب إذ قال لي :

ــ سيبقى هذا الكتاب على منضدتي ، وباستطاعتك أن تدخل غرفتي في أي وقت تشاء ، وتقرأ فيه وتنقل عنه ما تريد ، فأنا لا أعير كتاباً لأحد،

وهذه وصية عمي (وليم بريهام) فقد كانت له مكتبة ضخمة عامرة بمختلف كتب المعرفة الطبية القديمة والحديثة ، ويوما طلبت منه كتاباً لبضعة أيام ، فقال لي :

— لا يخرج هذا الكتاب من مكتبتي يا بني • واضاف يقول: انظر الى مكتبتي الضخمة هذه فاعلم ان الكثير من كتبها قد استعرتها من أصحابي ولم أرجعها إليهم • وكان هؤلاء مغفلين كما ترى ، ولا أريد أن أكون مغفلاً مثلهم •

وبعد لحظات وابريهام ينظر إلي وأنا أنظر إليه ، قال :

— صار هذا مبدئي لا أحيد عنه •

فقلت له : في الكتب العربية التراثية مقولة تتفق والمبدأ الذي تتبناه •

وسألني الأستاذ بريهام :

— وما هي المقولة ؟

فأجبته وأنا أترجمها له بالانكليزية :

— عبيط من يعير كتابا وأكثر منه عباطة من يعيد الكتاب ••

فضحك بكبرياء ، وقال لي :

— إذن أنا وعمي لسنا من العبيطين •

من أحداث أيام الاقامة

(أ) امرأة تلد قرداً !!

شاع بين الناس ان امرأة من سكان الكاظمية قد ولدت قرداً ، وان هذا القرد حين خرج الى الدنيا هاجم القابلة وعضّها فصرخت مستنجدة برجال البيت ، فسارعوا لنجدتها وقتلوا ذلك القرد الشرس • والشائعة بمجملها لا تصدق ، غير انها انتشرت بين عامة الناس حتى صاروا يضعون لها تفسيرات بمثل غرابة هذه الولادة • ولا أعلم كيف وصل الخبر الى الأستاذ كندي ، فطلبني الى غرفته وسألني :

ـ كمال ، ما خبر القرد المولود في الكاظمية؟ فلنبحث أين دفن ذلك القرد، ولنصوره إن كان من غرائب المخلوفات .

وذهبت بصحبة نندي الى قائمقامية الكاظمية ، واذا القائمقام يؤيد ما سمعه عن ذلك القرد الوليد واصدر امره الى الشرطة لاستقدام القابلة التي أشرفت على توليد الحامل (ام القرد) فاذا جواب القابلة ما يؤيد الشائعة التي انتشرت بين الناس مع زيادة في التعليقات المتناقضة وهي تحاول أن توثق حقيقة ما حدث ، ودلت ان زوج المرأة قد رأى القرد بعينه وانه هو الذي قتله ثم أخذه ودفنه ، وطلب القائمقام احضار زوج المريضة فنفى انه رأى او قتل ذلك (القرد) غير انه أكد انه سمع القابلة تصرخ « قرد ، قرد » وليس أكثر من ذلك . ووصلنا الى قبر (القرد) واستخرجناه من قبره فاذا هو طفل اعتيادي سوى ان ليس له دماغ ، فبدا وجهه هو الرأس بكامله . وهكذا وضحت الحقيقة ، وان الشائعة لكاذبة ، وكثيرا ما تكون الشائعات من هذا الضرب مع الفرق في التفاصيل ..

(٢) الأستاذ ابراهام يقتل مريضا مصابا بالسرطان

في إحدى الليالي عالج الأستاذ ابراهام مريضاً أوصى به حكمت سليمان باجراء عملية جراحية نأتي على ذكرها لاحقاً ، كان أحد مرضى الردهة الخامسة الجراحية يصرخ بوحشية من آلام سرطان القولون وقد أجرى له ابراهام عملية فتح الامعاء وخياطتها الى سطح البطن . وقد سمع ابراهام صراخ هذا المريض بينما كان يعبر الكريدور أمام الردهة الخامسة ، وسألني ـ وكنت أمشي الى جانبه ـ :

ـ كمال ، أهذا هو مريض سرطان القولون ؟ أليس كذلك ؟

ـ نعم ، هو ذلك المريض .

ـ استحضر لي عشر حبات مورفين .

وكان المورفين يجهز يومئذ على شكل حبيبات ، لا في امبولات كما

صار يجهز بعد ذلك بسنوات ، فتذاب حبة او اكثر بحسب الحاجة في ملعقة كبيرة مليئة بالماء ، على مصباح كحولي • واستحضرت ما طلبه مني ابراهـام وحملتها إليه في مزرقة ، فقال لي :

— هيا الى المريض ، فقد آذنت ساعة خلاصه من العذاب •

وقد أدركت ما قصده ابراهام حين صرنا الى جانب سـرير المريض ، وأخذ المزرقة من يدي وحقن ما فيها عميقا في إلية المريض • ونام المـريض بعدها ولم يسمع له صوت في تلك الليلة ولا في أية ليلة بعدها ، فقد حمله أهله في صباح الغد جثة هامدة •

وحين غادرنا الردهة قال لي ابراهام :

— ان ما عملته جريمة في نظر القانون ، ولذلك تعمدت أن أعملهـا بيدي لا لتعملها أنت ، فهذا المريض لا محالة سيموت في أيام قريبة ، ولكنها أيام فيها من العذاب ما لا يتحمله الحيوان البهيم •

وتوجه ابراهام نحو داره المجاورة للمستشفى ، أما أنا فقد مكثت في مكاني وأنا أودعه بنظراتي واسأل نفسي فيما إذا كان أستاذي ابراهام محقاً ومصيبا فيما عمله لانهاء حيـاة هذا المريض •• واذا كان قد أجـرم بعرف القانون والدين ، فهل يتوجب عليَّ أن أخبر المسؤولين لأدفع عـن نفسي جريمة اخفاء هذه الجريمة ؟ وكنت يومها أعرف ان في فرنسا جمعية تدافـع عمن يفعل ما فعله ابراهام بعد توثيق الضوابط التي تتبع هذه العمليـة • وغادرت مكاني الى الردهة العاشرة دون قناعة بما عمله الأستاذ ابراهام •

(٣) قطة تأكل اذن طفل وأنفه

ترتفع بنايـات المستشفى الملكي عـن الأرض بما لا يقل عـن المتر ، وفيما بين أرضية الردهات وسطح الأرض فضاء ربما كان القصد منه إبعـاد أرضية الردهات عن رطوبة الأرض ، ويتحرك هواء ذلك الفضاء من خـلال منافذ صغيرة محصنة بشبكة من الحديد لتمنع دخـول الحيوانات البيتيـة

كالجرذان والقطط ، غير ان تلك الشبكات لم يبق منها يوم التحقت بالمستشفى إلا حواشيها بفعل الاهمال والزمان ، فصارت القطط تدخل الى تلك الفضاءات وتتوالد فيها ، فكان عدد كبير من هذه الحيوانات يقتات على ما يتبقى على صحون المرضى وهو كثير ، طعام دسم للقطط ، فتدخل لتفتش عنه في ردهات المستشفى ، وخصوصا حين ترتفع اصوات الصحون وهي توزع على المرضى ، وقد تقفز القطط الى أسرة المرضى ومهود الاطفال وراء الدفء في الشتاء إن لم يكن وراء الطعام •

وحدث في يوم ما ادهلنا وارعبنا ، فقد اكتشفت إحدى ممرضات الردهة في ساعة من الليل قطا يجثم على صدر طفل بعمر ساعة ، لم ينظف بعد من الدم ، ورطوبات الرحم التي علقت بوجهه ، ويقضم ذلك القط بشهية أرنبتي انف الطفل بعد ان أتى على غضروف اذنه اليسرى ، وأم الطفل تغط في نومها من شدة ما عانت من اوجاع الولادة • وانتشر هذا الحادث الغريب بين منتسبي المستشفى وتسرب الى خارجها ، وتناولته الصحف ، وتشكلت لجنة للتحقيق في الاهمال وأسبابه ، وعوقبت القابلة المسؤولة التي اشرفت على ولادة الطفل ، ولم يكن ذلك علاجا للوقاية من حادث مماثل •

(٤) مجنونة في المخاض بدار الشفاء

هذا حادث طبي لا أنساه ، غريب وبشع من وجوه عدة ، ففي ليلة باردة من شهر شباط سنة ١٩٣٩ أيقظني (أبو جواد) وهو يقول لي عبارته التقليدية : « مريضة مستعجلة » • فوضعت صدريتي فوق بجامتي وخرجت مسرعاً الى الردهة وما يزال أثر الوسن يطبق على عيني بارتخاء ،وفي المدخل الى الردهة ، قابلتني المولدة (موزلي) الخفيرة وأخبرتني ان المريضة في دار الشفاء لا في الردهة ، فتوجهت أنا وموزلي عبر الممرات المظلمة التي كانت يومئذ غير معبدة الى دار الشفاء الواقعة على الطرف الشرقي البعيد من ردهة الولادة ، فاستقبلتنا حارسة قسم النساء في دار الشفاء ، وقادتنا الى

المريضة التي جئنا من أجلها • كان العنبـــر الذي كانت فيه هذه المريضـــة المجنونة طويلاً ونتن الرائحة وباردا يضم زهاء ثلاثين مجنونة بأعمار مختلفة، وهن يرتدين لباسا موحدا من القماش الخشن بلون البن فضفاضا ،لا يخلو من تمزق في كتفيه وأطرافه السفلية ، وتبدو في بعضهن أقسام غير قليلة من أجسامهن العارية من الألبسة الداخلية • كما كانت واحدة او اثنتـــان منهن عاريتين • كما شاهدت في زاوية من العنبر مجموعة منهن في كومـــة تنـــام فيه بعضهن على بعض طلباً للدفء ، أما من انعزلن عن هذه الكومة فكانت كل واحدة منهن تضطجع على جنبها وهي تثني رجليها وتحني ظهرها حتى تمس ركبتاها عنقها المنثني على أعلى صدرها • وكان بعضهن القليل يقـفن هادئات متجهمات وينظرن إليّ بعيون مستغربة ، وعلى فم آخريات بســمات ليس لها معنى • وحين خطوت لأرى المريضة من بين هاته المخلوقات التعيسة، صاحت حارسة العنبر والعصا الطويلة بيدها ، أن تفسح المجنونات الطريــق لأصل الى المريضة • ووقفت على رأس امرأة في مقتبل عمرها تتلوى بأوجاع الطلق • لقد كانت حاملاً وحـــان وقت وضع جنينهـــا • وبرق في رأســـي تساؤل : متى حملت هذه الصبية التعيسة ، أفي دار الشفاء هذه ؟ فان كان كذلك فهذا أمر لا يمكن أن يفعله رجل سوي العقل • وهل حملت من رجل مجنون في دار الشفاء تسرب إليها من ردهات الرجال في هذه الدار ؟ أم انها أُدخلت الى الدار وهي حامل ؟ فسألت الحارسة عن تاريخ ادخالهـــا الى دار الشفاء فأجابتني بما ارتاح له وجداني الانساني :

ـــ قبل اسبوعين •

إذن دخلت وهي حامل •

ـــ وهل تعرفون أهلها ؟

ـــ جاءت بها الشرطة حين كانت تتجول في الطرقات على غير هدى ، ولـــم نضبط حتى حقيقة اسمها الى الآن •

وحين كنت أتحدث مع الحارسة قفزت إحدى المجنونات لتقترب مني وهي تقول :

ـ جرّه (تقصد أن أسحب الجنين)

وتقدمت مني مجنونة أخرى وقالت :

ـ جرّه من إذنه ، هذا إبن حرام ..

وقالت أخرى :

ـ هو إبن نابليون !

وقالت المجنونة الأولى :

ـ يعني غير معروف أبوه ، لو نابليون لو ابن نابليون ، يعني نغل !

وكثرت المتكلمات من المجنونات وعلت أصواتهن بصخب فصاحت بهن الحارسة وهي تضرب الارض بعصاها الطويلة ليبتعدن عني ، فقفزن متقهقرات وهن يتضاحكن باستهتار . واستدارت إحداهن وقالت تخاطب المريضة الماخض :

ـ مريم العذرة ، قولي انت مريم العذرة يا فاجرة ..

وثار نقاش بين المجنونات عن كون حمل هذه المجنونة سفاحاً أم شرعياً ؛ وسرعان ما تلاطمن وتناثرت من أفواههن أقبح الأوصاف والسباب. وفجأة صرخت مجنونة وهي تتكىء على الحائط :

ـ صلوات على محمد وآل محمد

الحقيقة ان الموقف الذي صرت فيه أرعبني أكثر من أن يزعجني ، والقابلة موزلي خافت هي الأخرى ، فاقترحت نقل المجنونة الى الردهة العاشرة لأن ذلك أفضل ما يمكن أن نفعله لحالتها ولتخرج كذلك من بين حشد المجنونات المخيف ، فارتحت لاقتراحها ، فحملت هذه المريضة على نقالة وهي لم تنبس بكلمة ، ولا بدت عليها علامات الألم إلا انقباض يسير في عضلات وجهها . وفي الردهة العاشرة وضعت هذه التعيسة طفلها عند

بزوغ الشمس • وبعد ساعة أو ساعتين نهضت متعجلة عن سريرها وقفزت على سرير مريضة تجاورها ورفعت ثوبها الى خصرها وبالت وهي واقفة على رجليها وقد أفرجتهما على وجه المريضة فاستيقظت هذه من نومها فزعة لتدفع عنها المجنونة ، وقفزت هذه الى سرير آخر لتكمل تبولها على وجه مريضة أخرى فقفزت هذه من نومها ترتعد من الخوف ، فكان لابد أن نعيد هذه المجنونة الى دار الشفاء حيث كانت هناك في شقاء وجحيم •

(٥) بابا برهاد في الموصل وامتحانه في بغداد

هو أبو اسكندر برهاد ، طبيب نسائي ناجح في ممارسة التوليد والأمراض النسائية في الموصل ، وله تجربة واسعة في علاج حالات عسر الولادة ، وقاعدته في ذلك التجربة لا الدراسة العلمية • ويوماً اكتشفت دوائر الصحة انه لا يحمل شهادة طبية ، ولا اجازة في ممارستها ، وبوصفه لم يخطىء في علاج المرضى ولا سبب لهم ضرراً يستوجب الشكوى منه ، رأى المسؤولون عن الصحة في الموصل حلاً لمشكلته أن يمتحن في معلوماته الطبية ليمنع من الممارسة أو يجاز فيها • وقد حضرت امتحانه من قبل الأستاذ كندي في موضوع الأمراض النسائية والتوليد • وحضر بابا برهاد في تمام الساعة التاسعة صباحاً الى ردهة التوليد • وكان في عمر الستين سنة ، ولم أرَ أباً يشبه إبنه كما كان بابا برهاد يشبه ابنه اسكندر برهاد ، وبخاصة في لون بشرته وملامح وجهه وتكوير رأسه • ولم يكن يعرف اللغة العربية إلا ما تستعمله العامة من مفرداتها ، وكذلك كان في اللغة الانكليزية ، بل كان يتقن التحدث بالفرنسية التي يجيدها الأستاذ كندي ، فامتحن كندي معلوماته الطبية بهذه اللغة ، وأنا لا أعرفها بأي قدر ، ولكني استطعت أن أعرف الأجوبة التي اقتنع بصحتها الأستاذ كندي • وكان جل الامتحان سريرياً على المريضات الراقدات في الردهة العاشرة • ووقف كندي عند سرير إحدى المريضات ، فتقدمت منه رئيسة ممرضات الردهة زريفة وقالت

ه بالفرنسية : ان هذه المريضة تدعي أن طفلها لم يبل منذ ولد قبل يومين. وكان كندي لا يبخل عليّ في تعليمي ، فترجم لي هذه الشكوى الى اللغـة الانكليزية ، وأضاف يقول لي :

ـ ان هذه الحالة تصلح أن تكون مادة في هذا الامتحان . والتفت نحـو بابا برهاد ، وقال له :

ـ أنت سمعت ما قالته الممرضة زريفـة عن هذا الطفل ، فما هو رأيـك في حالته ؟

فتقدم بابا برهاد من مهد الطفل، وحلّ قماطه، وحدّق بدقة في الخرقة المحشورة بين فخذيه ، وعلى عضوه الذكري ، ثم رفع الخرقـة وشمّها . وهمس كندي في أذني يقول عما رآه :

ـ هذه خطوة جيدة لفحص هذا الطفل .

ورفع بابا برهاد رأسه عن الطفل وقال للأستاذ كندي ما معناه :

ـ نعم ان هذا الطفل لم يبل .

ثم كشف عانة الطفل وتلمّس أسفل بطنه . وسأله كندي عما يقترحـه لعلاج هذه الحالة ، فأجابه بالفرنسية وهو يرفع الطفل ويضجعه على جنبـه الأيمـن :

ـ هذا هو العلاج يا أستاذ كندي .

ولم يكمل الأستاذ كندي مـروره على مرضى الردهة ، حتى جـاءت زريفة وأخبرت كندي وهي تبتسم وقالت له :

ـ لقد بال الطفل ..

وبدت الدهشة على وجه كندي ، ثم التفت نحو بابا برهاد وقال :

ـ ولماذا أضجعته على جنبه الأيمن ، وليس على الجنب الأيسر ؟

فأجابه بابا برهاد :

ـ هذه تجربتي ..

وضحك كندي وهو يقول لي :

ــ ان التجربة أصدق مصادر المعرفة في الطب •

وتوجه كندي الى الردهة الحادية عشرة ونحن من ورائه كما يتبع الظل صاحبه • ووقف عند سرير مريضة مصابة بالتهاب انبوبي الرحم الصديدي وكنت أعرف مرضها مقدماً • وعرف بابا برهاد انها حالة مرضية لامتحانه في تشخيصها وعلاجها ، فسأل بابا برهاد هذه المريضة بعربية مفككة

ــ انت شـو بيك ؟

فأجابته :

ــ عمي بطني توجعني ••

ــ متزوجة ؟

ــ متزوجة ولكن ليس لي خلفة ••

ــ هل حاولت استشارة الأطباء أو القابلات ؟

ــ راجعت الجدّة غزالة بالقراغول •

واكتفى بابا برهاد بهذه الاسئلة ، ثم بسط كفه على بطن المريضة، وهو يتطلع الى ما يبدو على وجهها من علائم الألم ، وهنا قال له كندي :

ــ كفى يا سيد برهاد ، فما رأيك في نوع إصابتها ؟

فأجابه دون ابطاء :

ــ التهابات في الاعضاء الانثوية الداخلية •

وكان بابا برهاد مصيباً في هذا الجواب ، واجتاز الامتحان بنجاح •

(٦) شوندرة أيضا/١٩٣٩

أمضيت سنتين في مدرسة الحلة المتوسطة، وسنتين في المدرسة الثانوية المركزية ببغداد ، وست سنوات في كلية الطب ، وسنة في ممارسته بالردهة العاشرة في المستشفى الملكي ، فلم يبق في خواطري شيء كثير مما له علاقة بصبة الحلة (شوندرة) ، غير انني ما كنت أحياناً أستطيع مقاومة استذكارها

حين يكون الشوندر على مائدة طعامي ، أو حين أشرب عصارته الخمرية الشهية ، فتخطف صورة شوندرة في مخيلتي كما لو أنها حزمة من الشقائق الزاهية المتعالية على ما حولها من الاعشاب الصغيرة • وذات يوم وأنا أقطع كريدور المستشفى الملكي في طريقي الى الردهة العاشرة التي أعمل فيها ، رأيت خالة شوندرة في حالة آلمتني حتى أعمق أحشائي ، فقد بان عليها العوز والحاجة بأوضح صورهما ، وهي التي كانت يوماً تنوء بحمل ما عليها من الحلي الثمينة • وكان زوجها قد غرق في الديون على الموائد الخضر ، فباع مزرعته في (عنّانة) القريبة من خرائب بابل على الجانب الآخر من نهر الحلة، وصار يعيش هو وزوجته على راتب شوندرة التي توظفت معلمة في المدرسة نفسها التي درست فيها • نادتني (الخالة) بينما كنت أقطع كريدور المستشفى نحو الردهة العاشرة النسائية • ولما تقدمت منها بدت لي كأنها قد كفّت لتوها عن البكاء ، وفي صدرها مزيد منه ، قالت مستنجدة :

ـ عيني كمال ، شوندرة !

فسألتها بجزع :

ـ ما بها يا خالة ؟

فأجابتني :

ـ ادخل الى (القاووش) يا بعد خالتك وشوفها ••

كانت شوندرة مستلقية باعياء على حشية بين قوائم سريرين من سرر الردهة ، ووجنتاها متوهجتان من فرط الحمى ، وأنفاسها تتقطع بضيق • وناديتها وأنا أجلس الى جانبها على بلاط الردهة البارد :

ـ شوندرة ؟ يا شوندرة ؟

ونتحت عينيها باستعطاف وذل ، أثارت ذكرياتي عنها في الحلة حين كانت في عمر كله حيوية وخفة روح ، فأين تلك العينان البراقتان ، والنحر البلّوري ، والشفتان النابضتان بالجمال ، والبشرة الطافحة بالحياة ؟

وسمعت الخالة وأنا في غمرة المقارنة بين ماضي شوندرة وحاضرها ..سمعت الخالة تذكر لي شكوى شوندرة :

ــ سخونة عالية وألم في بطنها (وأضافت) سوّي لها صورة حل ، الله يرضى عليك .

وتشجعت بتردد أن أكشف بطن شوندرة فاذا تحت سرتها انتفاخ مؤلم للتلمّس ، تنتو على سطحه بقعة لينة رجراجة ، وهي علامة قاطعة لخراج تحت تلك البقعة ، ولكن ما هو سبب الخراج في هذه المنطقة من البطن ؟ وإذ أن فحص حالة هذه المريضة لتشخيص حالتها المرضية لا يكتمل إلا بالفحص المهبلي ، وهذا ما لا أستطيع نفسياً عمله لشوندرة ، لذلك طلبت من أستاذي كندي أن يفحصها ، ونقلت إليه وهو يمعن النظر الى وجهها وبطنها ، ما أعرفه عن تاريخ حياتها النسوية ، وموضع شكواها وما الى ذلك مما يتطلبه الاستجواب الطبي في مثل هذه الحالة المرضية . وسأل كندي

ــ متزوجة ؟

ولما لم أكن أعرف ذلك ، أحلت السؤال الى خالتها ، فأجابت بالنفي ، استدركت قائلة :

ــ مخطوبة ، مقطوعة مهر ..

وكنت أتوقع أن تكون متزوجة منذ سنوات عدة ، فمثلها يتهالك على الزواج منها كل من ليس في عينيه غشاوة أو في نفسه خلل . وسأل الأستاذ كندي :

ــ وماذا عن العادة الشهرية ؟

ولم أكن قد سألت شوندرة عن ذلك ، إذ ليس في وسعي أن أفترض شوندرة مريضة فيثير ذلك ذكرياتي المريحة عنها بألم ، فأحلت هذا السؤال الى خالتها ، فأجابت :

ــ لا أذكر أنها شكت يوماً من عادتها الشهرية .

ـ ومتى كانت آخر عادة ؟

فسألتها الخالة عن ذلك • غير أن شوندرة لم تجب على سؤالها•وكررت الخالة سؤالها فلم تجب أيضاً ، وشوندرة تتظاهر باغماءة أو كانت حقيقة في هذه الحالة • ويبدو أن كندي فهم الجواب وهو يعرف قليلاً عن الكلمات الطبية باللغة العربية ، فقال لنا :

ـ يكفي ، أنا فهمت !•

وطلب كندي نقلها الى صالة العمليات• وفحصها تحت المخدر العمومي بمزيج من الكلوروفورم والإيثر (٤:١) • وأكمل كندي الفحص باصبعيه السبابة والأوسط ، فاكتشف وجود ما له ملمس خراج يملأ جانباً من الجوف الحوضي • ورأى كندي ان هذه الحالة المرضية درس ثمين لي ، فقال :

ـ ضع قفازاً مطاطياً على يدك يا كمال لفحص هذه الحالة الغريبة وجرب أن تشخصها ••

أما أنا فقد قبحت الدنيا في عيني وغامت فكرهت أن أفحصها فقلت له:

ـ لا أريد أن أفحصها يا سيدي •

ونظر إليَّ باستغراب ، وسألني :

ـ هل هذه المريضة من أقاربك ؟

وكان جوابي سكوتاً مطبقاً ، وأظن أن كندي أدرك حينذاك ما في نفسي ، فلم يكرر طلبه مني لأفحصها وأكمل العملية بنفسه فشق الجلدة الرقيقة التي تنتو على الامتلاء الذي يترجرج تحتها ، وهو يقول :

ـ ألمس جسماً مدبباً ينتهي الى سقف الرحم •

وسحب ذلك الجسم المدبب فاذا هو (ليطة) من سعف النخل أُقحمت من خلال عنق الرحم الى جوفه فنفذت جداره وسببت الالتهابات الواسعة آلت الى تكوين خراج غطاه الثرب ولفائف الأمعاء الدقيقة •

والتفت كندي نحوي قائلاً :

— انها حالة إسقاط جنائي يا كمال ، وقد عرفت ذلك مقدماً حين تجاهلت السؤال عن آخر عادتها الشهرية • ثم انها غير باكر ، وكان الحبل من خطيبها أو من غيره ، فرأت الحبل قد حدث قبل أوانه فأرادت التخلص منه ، وهذه هذه النتيجة •

كان كندي يتكلم عن هذه الحالة وأفاض عن الجريمة الطبية في عملها، وأنا في عالم بعيد عن عالمه ، وهو عالم شوندرة في ريعان شبابها الخلاب، وهي الآن على أبواب القبر •

وبعد خمسة عشر عاماً من وفاة شوندرة دخلت عيادتي بمستشفى السامرائي خالة شوندرة بحالة يرثى لها من علامات العوز المادي البادي على وجهها وملبسها ، فاستغربت من السرعة التي فني فيها غنى هذه المرأة ، وسألت نفسي أيضاً :

— هل استطاعت أن تنسى مأساة شوندرة التي كانت تفضلها على نفسها وعلى زوجها وعلى جميع أقاربها ، ومتى جف دمعها بعد تلك الفاجعة ؟

وبادرتني الخالة حين دخلت عيادتي :

— جئت أسأل عنك يا كمال •

— شكراً ، وأنتِ كيفك يا خالة ؟

فأجابتني بحسرة تنبىء عما في داخلها من هم وغم :

— هذا الذي تشوفه !

وعرفت ما عنت بذلك ، والهدف من زيارتها ، فوخز الأسف قلبي بخشونة ، وتوقفت عند شفتي عبارات كان يجب أن تكون ذات مناسبة ومسلية ، لكنني لم أقل شيئاً • وخرجت الى سكرتيرتي وأخذت منها ما كانت أخذته من مرضاي في عيادة ذلك المساء وأضفت إليه شيئاً مما كان في جيبي ، وعدت الى الخالة في غرفتي ، ودسست المبلغ في جيبها وهي تمانع انحدار دمعة رطبت عينيها التعبتين ، ولم تنس مع ذلك أن تقول لي :

ـ أشكرك •

وغادرت عيادتي ، ولم أرها بعد ذلك •

(٧) مصرع الملك غازي ١٩٣٩/٤/٤

ساءت حالة حجرتي التي كنت أقيم فيها ، وصار سقفها ينضح مما تراكم عليه من مياه الامطار ، فيتناثر منه الجص على طاولتي وفراشي ، فانتقلت الى غرفة داخل الممر الذي أنشيء ملحقاً بالردهة العاشرة • وتنفذ الى هذا الممر غرفة للممرضات وغرفة لمريضات الصرع النفاسي وغرفة لرئيس الشعبة وغرفة أخرى للأطباء وطلبة الكلية ، وصالتان للتوليد • وبالرغم من أن غرفتي التي انتقلت إليها قريبة جداً من صالتي الولادة التي لا تنفك يصلني منها صراخ الماخضات بلا انقطاع ، وصخب الداخلين الى الممر من زائري المريضات ، فضلاً عن بعد المرافق الصحية عن حجرتي فقد كان محل اقامتي الجديد أفضل من حجرتي الأولى • وكانت المسؤولة الاولى عن هذه الشعبة ممرضة انكليزية اسمها (ستيرم) ونناديها في الردهة باسم (الأخت ستيرم) • وهي في منتصف العقد الثالث من عمرها ، فارعة الطول ، ممتلئة الجسم بتناسق ، حنطية السحنة وذات عينين بين الخضرة والزرقة•ولا يصح أن أصفها بالجمال لولا حركاتها الطبيعية الموزونة وجرس نطقها الانثوي • وقد استقدمتها الحكومة بتعاقد مع مستشفى داندي باسكوتلندا ونسبتها مديرية المستشفى الملكي مسؤولة عن الردهة النسائية التي أعمل فيها •

كانت (مس ستيرم) نشطة وملتزمة بدوامها في الردهة وحريصة على القيام بخدماتها للمرضى • كما كانت فطنة وواعية على ما يدور في المستشفى بشكل عام ، وعما تراه وتسمعه ممن يدخلها من المرضى أو زائريهم•وسرعان ما صار لها معارف وأصدقاء من مختلف الطبقات الاجتماعية والحكومية مما لم يتحقق مثل ذلك لأترابها من الممرضات الأجنبيات بمن فيهن رئيسة التمريض في المستشفى الملكي المس كنكستون التي سلخت قرابة

عشر سنوات من عمرها في هذا المستشفى • وكان بينها وبين الممرضة ستيرم ود مفقود وكراهية متبادلة مكبوتة ، وكنت أعزو ذلك لوسامة الشباب الذي تتمتع به ستيرم وجفاف الشيخوخة الذي ولجته كنكستون • وتضيق هذه أحياناً بتصرفات ستيرم في الردهة فتغادر الردهة حانقة قبل أن تكمل تفتيشها جوانب الردهة واعمال الممرضات فيها وهي تردد كلمة (بج) ويومها كنت أفسر هذه الكلمة بمعنى (كلبة) فاستقبح هذا الاسلوب في كلام المس كنكستون ، ثم عرفت أنها تقصد بتلك الكلمه اقبح من ذلك المعنى وهو المرأة العاهر • وأعتقد أن ستيرم كانت تسمع هذا السب القاذع ، غير أنها لا تعيره اهتماماً ولا ترمش له عيناها ، فتتجاهله ببرود وكأنها صنعت من ثلج أو كان في أذنيها وقر •

وذات ليلة وأنا نائم في الهزيع الأخير من يوم ٤ نيسان ١٩٣٩ اقتحمت مس ستيرم الحجرة التي كنت أنام فيها ، وهزت كتفي بعنف وطلبت مني بهلع أن أستيقظ وهي تقول :

ـ قتل الانكليز ملككم غازي • ولم أعِر لحظتئذ كلامها وأنا ما زلت متعباً وعيناي نصف مغمضتين بعد سهرة عمل مع مريضاتي في الردهة ، ومع ذلك تبادر الى ذهني بسرعة سؤال هو : كيف تعزو ستيرم قتل الملك غازي الى الانكليز وهي نفسها انكليزية ؟ ثم قلت لنفسي انها قد تعني أن الالمان هم الذين قتلوا الملك لا الانكليز ، والهفوة إنما جاءت من سبق اللسان لهول الحادث وفظاعته ، غير أن ستيرم عادت تستحثني على النهوض لارتداء ملابسي وهي تعيد قولها : ان الانكليز قتلوا الملك غازي يا دكتور كمال • هيا أسرع • وقطعت تفكيري بغريب ما ادعته مس ستيرم حين دخلت حجرتي ممرضة الردهة الخفيرة وهي تقول لي :

ـ ان الدكتور صائب يطلبك عاجلاً على التلفون •

وهرولت الى التلفون ، فكانت مكالمته عن مصرع الملك غازي واحتمال

نقله الى المستشفى الملكي • وطلب مني اخطار صالة العمليات احتياطاً•وحين انتهيت من مكالمة الدكتور صائب عدت افكر فيما قالته لي ستيرم وهي تعزو مقتل الملك الى الانكليز لا الى الالمان المتحاربين في اتجاه المشرق العربـي ، ثم من الذي انبأ ستيرم بمصرع الملك بعد منتصف الليل وهي فيدارالممرضات لا في الردهة العاشرة ؟• وبعد اسبوع واحد من تلك الليله ودعت ستيرم أطباء الردهة وممرضاتها وسافرت الى مملكة سيام لمثل عملها بتعاقـد مـع تلك الدولة • ولم يمض سوى شهر واحد أو أقل بعد ذلك حتى دخلـت غرفتي المس كنكستون وبيدها لفة من الاوراق وبدأت تفك طياتها لتريني بتشف وهي تمر باصبعها على سطر في إحدى أوراقها قائلة :

ـ اقرأ يا دكتور كمال ••

وقرأت ما معناه ان الممرضة ستيرم قبض عليها وهي متلبسـة بجريمـة التجسس لحساب المانيـا وقد أعـدمت رمياً بالرصاص • ثـم قالت مس كنكستون :

ـ ان اسمها ليس (ستيرم) بل (شتيرم) أي نجمة باللغة الالمانية•(وأردفت قائلة) ها قد صدق حدسي حين اشتبهت بأنها غير انكليزية •

(٨) الدولة تنهي عقدها مع الدكتور كندي/١٩٣٩

ان دوافع إنهاء عقد الأستاذ كندي تستحق التسجيل • فقد حدث أن أحيلت إليه زوجة وزير الداخلية لفحصها ومعرفة ما إذا كانت حاملاً أم غير حامل ، وكان كندي في هذا التشخيص يعتمد على فحص ادرار المرأة بتعامل (فريدمان) على مبيضي انثى الأرنب ، وهو فحص اذا جاء موجباً فهو دليـل قاطع على وجود الحبل • أما إذا جاء سلبياً فقد يكون الخطأ فيه بنسبة(٨و١) بالمائة• وفحص كندي بول زوجة وزير الداخلية بهذه الطريقة فكانتالنتيجة سلباً ، ولما توثق الحبل بشكل واضح سخط السيد الوزير على الـدكتور كندي ، كما شاع في تلك الأيام ان الراديوم الذي اشتراه كندي من باريس

لمعالجة حالات السرطان غير صالح للاستفادة منه،إذ نفد مفعوله،وزادآخرون على ذلك ان كندي قد اختلس قدراً من المبلغ المخصص لشرائه فحصل على نوعية رديئة منه ، والناس أحياناً لا ينصفـــون ؛ فوصلت تلك الشـــائعات بطريقة ما الى كندي فاستشاط واتخذ قراراً حاســماً ، وكتب الى مديريــة الصحة العامة يقترح استقدام خبير من أية دولة لفحص الراديوم الذي اشتراه من باريس ، وانه هو الذي سيدفع أجوره اذا ثبت لديه أي تلاعب أو تمويه في المعدن الذي اشتراه • أما إذا امتنعت الدولة من تنفيذ هذا المقترح فانه يرجو اعفاءه من استمراره في العمل بكلية الطب والمستشفى الملكي •ولما لم يصل إليه رد من مديرية الصحة العامة أنذر عمادة كلية الطب انه ســيغادر العراق بعد شهر واحد ـ وهي مــدة كافية لتجــد الكلية من يحل محلــه للتدريس ومعالجة المرضى ـ • وغادر بغداد بسيارات نيرن ، ولم يودعه في محطة الانطلاق بمنطقة الصالحية إلا مس ويد رئيسة صالة العمليات الكبرى بالمستشفى الملكي وكاتب هذه المذكرات •

★ ★ ★

قد أكون أنا أكثر من أصابه الضرر من مغادرة الأستاذ كندي ، فقــد لمست حالاً انني ما أزال بحاجة الى التتلمذ عليه ، إذ كنت في كل لقاء معــه أحصل منه على معلومة جديدة ما أحوجني إليها • انني لا يمكن أن أنســى أفضال هذا الطبيب العالم عليّ ، فضلاً عن هــديته الثمينة لي وهي ســتة (ملاقط انسجة) Tissue Torcers وكتاب روبنسون الموسوم بـ (الطب العربي) ، وكلاهما لا يزالان في حوزتي ، ويذكراني به وبفضله عليّ •

(٩) الاستاذ صائب شوكة يترأس قسم النسائيات وكالة /١٩٣٩

حين سافر الأستاذ كندي أوكل الاشراف على ردهتي التوليد والأمراض النسائية الى الأستاذ صائب شوكت • وحين دخل الردهة العاشرة أول مــرة شعرت كأنني أنا الذي استدعيته ليزور هذه الشعبة • وحين رآني منهمكـاً

في فحص مريضة وقف الى جانبي يراقب ما استجوب فيه هذه المريضة ، وانتهيت من فحص المريضة فرأيت على وجهه إمارات الرضا والتقدير ، وحرضني على دوام القراءة في كتب اختصاصي ، وأن لا أحدد اهتمامي على الحالات الرتيبة ، وقال لي :

ـ هذه أيامك يا كمال ، سجّل لنفسك كل حالة مرضية تمارس فحصها وعلاجها ، فذلك هو سبيل تعلّم هذه المهنة ، وافحص المريضة في كل يوم وسجل على استمارتها التغييرات المرضية الجديدة التي تظهر عليها وما اختفى من أعراض وعلامات مرضها • وفي حالة النفاس درجة نكوص الرحم في كل يوم ، وارسم خطاً بيانياً لها • وصحبته وهو يمر على مرضى الردهة وكانت إحداهن باهتة السحنة بافراط ، ولما أشار الى ذلك قلت له انها فقدت كثيراً من دمها بسبب المشيمة المتقدمة •

وكانت شعبة الولادة أكثر شعب المستشفى حاجة لمحاليل الزرق ونقل الدم لمن تصاب بالنزف الدموي ، فقال لي الاستاذ صائب انه يدرك هذه الحالة الخطرة وانه يعمل جاهداً لانشاء مركز لتصنيع محاليل الزرق ومركز آخر لمصرف الدم • وقد رأيت ذلك آنياً ان فكرته ضرب من المحال أو التمني ، غير انه سرعان ما حقق ذلك ، وسار المركزان مسيرة جيدة نحو الكمال • وفي الوقت نفسه أسس مركزاً لتعقيم الحليب للأطفال ومرضى ردهات المستشفى •

(١٠) **حالة مرضية غريبة ، واعتداء على طالب في كلية الطب/١٩٣٩**

في حياتي الطبية بالمستشفى الملكي لم أُكلف بطبابة الخفر إلا مرة واحدة ، وكنت يومئذ حديث التخرج وبوصفي مقيماً في الردهة العاشرة ، والعمل في هذه الردهة وبخاصة في الليل متواصل ، فلم يشملني جدول الخفيرين • غير ان الدكتور عبدالرحمن الجوربهجي رجاني أن آخذ مكانه

في إحدى الليالي • وبينما كنت أغط في نومي في غرفة الطبيب الخفير بالعيادة الخارجية ، رنّ تلفون الغرفة ، فرفعت سمّاعته الى أذني ، واذا رجل يسأل:

ــ من المتكلم ؟

فأجبته :

ــ طبيب الخفر بالمستشفى الملكي ، تفضلوا

ــ إسمك رجاءً ••

ــ كمال السـامرائي •

ــ اسمعني يا دكتور كمال ، أنا حكمت سليمان ، بعد قليل سيصلكم أحد الفلاحين وقد أصيب بطلق ناري فاتصل بالدكتور صائب ليعمل له ما يراه مناسباً أو ضرورياً •

ومعرفتي بحكمت سليمان أكثر من كونه أحد قادة انقلاب بكر صدقي في سنة ١٩٣٦ ، فاتصلت بالدكتور صائب شوكت ونقلت إليه مخابرة حكمت سليمان عن الفلاح المصاب بالطلق الناري • غير ان الدكتور صائب شـوكت أجابني ان هذا الاسبوع من خفارات الدكتور ابراهام ، وطلب مني أن أتصل به في نادي العلوية وأبعث إليه بسيارة الاسعاف لتنقله الى المستشفى • وكان الفلاح الجريح قد وصل أثناء هذه المكالمة التلفونية وأدخل الى الردهة رقم (٥) التابعة لوحدة الدكتور صائب شوكت • وحضر الدكتور ابراهام ، وبعد دقائق حضر الدكتور صائب وتقابل الاثنان وأنا أقف الى جانبهمـا • قال الدكتور صائب وهو يخاطب الدكتور ابراهام :

ــ كلمني حكمت بك تلفونياً وطلب مني أن أرى الفلاح الجريح ، فطلبت من الطبيب الخفر أن يتصل بك لتتولى علاجه بوصفك الجراح الخفير في هذا الاسبوع •

فقال الدكتور ابراهام :

ـ إذن تفحص هذا المريض معاً ، إذا لم يكن عندك مانع •

كان هذا المريض مثالاً للفلاح العراقي ، هيئة وخبراً ، ولم يكن عمره يتجاوز العقد الثالث ، حافي القدمين ، حاسر الرأس ، داكن البشرة • سأله الدكتور صائب بعض الأسئلة ذات العلاقة بالطلق الناري ، ثم كشف بطنه فبان منفذ الطلقة صغيراً كالعادة ، ثم قلب المريض على بطنه فلم ير مخرجاً للطلقة النارية ، وتلمس بطن المريض فلم يجد ما تفيد معرفته • فاقترح الدكتور ابراهام إرجاء العلاج الجراحي الى صباح غد بعد أن تفحص البطن بالأشعة لمعرفة موقع الطلقة ، واقترح الدكتور صائب العمل فوراً لاستخراج الطلقة • واتفق الاثنان أخيراً على فتح بطن المريض ؛ فوجدا عدة ثقوب في الأمعاء سببها مسرى الطلقة بين لفّانها ، فخاطا الثقوب ، غير انهما في أي واحدة منها لم يجدا مخرجاً للطلقة ، فعرفا أنها توقفت في جوف الأمعاء ولم تنفذ منه • وبعد ان أكملا خياطة جميع ثقوب الامعاء بدءا يتلمسان الأمعاء بحثاً عن الطلقة فوجداها في الامعاء الغليظة ، فدفعاها في اتجاه فوهة المقعد ، وتركاها في مكان قريب منه • وطلبا مني أن أراقب اندفاعها مع غائط المريض • وخرجا من صالة العمليات وهما يتندران في ما يعمله الطلق الناري أحياناً في جوف المريض •

وحين تهيأ الدكتور صائب لمغادرة غرفته الملاصقة لصالة العمليات كان على نقالة المرضى أحد تلامذة كلية الطب ووجهه ملطخ بالدم المتجمد عليه حتى لا تكاد تستبان معالمه ، فعرفته من نطقه لا من ملامح وجهه ، واسمه (رفيق طاهر) وهو من أهل كويسنجق بشمال العراق ، فانتبه الدكتور صائب إليه • وسألت أنا رفيق طاهر على مسمع من الدكتور صائب :

ـ ما الأمر يا رفيق ؟

فأجابني والدكتور صائب ينصت إليه :

— ذهبت لزيارة أحد أقاربي في فندق جبهة النهر الواقع على رقبة جسر الملك فيصل ، فقابلني على مدخل الفندق ضابط وهو مخمور يعربد ، فضربني على رأسي ، ولما سألته عن سبب هذا الاعتداء ، إستل مسدسه وضربني على رأسي بقبضه عدة مرات •• وما كدت أتماسك خوفاً من السقوط على الأرض حتى ركلني رفيقه برجليه وغادرا الفندق دون اهتمام بما أحدثاه بي •

وسأل الدكتور صائب ، رفيق طاهر :

— تعرف الضابط ؟

فأجابه رفيق طاهر :

— لم أره بحياتي • غير ان الضابط الاول كان يعرج قليلاً ، وعرفت من خدم الفندق انهما من مرافقي بكر صدقي ، قائد انقلاب سنة ١٩٣٦

ودخل الدكتور صائب غرفته الملاصقة لمدخل صالة العمليات وطلب من في بدالة تليفون المستشفى ان يوصله برئيس الوزراء حكمت سليمان في بيته • وتكلم معه باللغة التركية التي لا أفهمها ، وعرفت حدساً ان أول مكالمته كانت عن الفلاح المريض • ثم تحول يصف ما فعله مرافقا بكر صدقي بأحد طلاب كلية الطب • وبين الدكتور صائب وحكمت سليمان رابطة عائلية ، فكان كلام الدكتور صائب لا يخلو من النقد والعتب ، وقد عرفت ذلك من لهجة كلامه لا من لغته • وأغلق الدكتور صائب التلفون وعاد الى رفيق طاهر الذي ما زال على النقالة ، وقال له بحدة وتأثر :

— اتصلت برئيس الوزراء ، فلا تتنازل عن حقك إذا اعتذر منك ذلك الضابط ، فاعتذاره لا يكفي بل يجب أن يناله العقاب •

وفي صباح اليوم التالي جاء ذلك الضابط الأعرج يسأل عن رفيق طاهر

الذي كان قد أدخل الى الردهة تحت المراقبة الطبية وانحنى عليه وهو في سريره وقبّله ووقع الصلح ٠

الاستاذ ماهاني/١٩٣٩

خلف الأستاذ كندي بعد مغادرته العراق الأستاذ (ماهاني) ، وهو بريطاني بعمر يزيد على الستين سنة ، طويل القامة ، نحيف البنية ، متواضع وسهل التعامل ، وله خبرة طويلة في (دندي) باسكوتلندا في الأمراض النسائية والتوليد ٠ وبعد بضعة أشهر أصيب بالزحار وذبل جسمه في بضعة أيام ٠ واتصل بي تلفونياً ذات صباح من غرفته بفندق (دجلة) طالباً أن أذهب إليه لأمر معين ٠ وكان في سريره حين دخلت مخدعه ، وبدا لي متعباً ٠ وما كدت أجلس على كرسي الى جانب سريره حتى طلب مني أن أتناول ورقة كانت على طاولة قريبة منه ، وان اقرأها ٠ كانت هذه الورقة مكتوبة بخط يده وموجهة الى عميد كلية الطب الأستاذ سندرسن وفيها طلب لقبول استقالته من وظيفته في كلية الطب بسبب صحته وجو بغداد الذي لايلائمها ٠ وختم مضمون الرسالة بثناء عليّ قائلاً «إنني أثق بالدكتور السامرائي كمال ليأخذ مكاني الى أن تجدوا أستاذاً في التوليد والأمراض النسائية، الخ ٠٠»

ولما أتممت قراءة ما كتبه في تلك الورقة ، قلت له :

— ألا ترى يا أستاذ ماهاني أنك تسرعت بتقديم هذه الورقة ؟ فالحالة المرضية التي أنت فيها طارئة ، وتحدث لأي شخص في بغداد وأي شخص في انكلترا ٠٠

فأجابني :

— لا ، ان جو بغداد لا يتفق مع طبيعتي ، وقراري في تقديم الاستقالة نهائي ولن أتراجع عنه ٠ ثم قال: «أنا ممتن منك يا كمال، وهذا يجب أن تعرفه ٠ »

ولما نهضت لأغادر غرفته قال لي :

ــ نسيت الورقة ، فأنا طلبتك لتحملها بنفسك وتعطيها بيدك الى الدكتور سندرسن .

وبعد يومين ودعته في محطة نقليات (جيري نيرن) في الصالحية ، وصافحني وهو يبتسم ببرود .

أول أجر أحصل عليه من ممارسة الطب/ ١٩٣٩

قبيل انتهاء الدوام الحكومي في المستشفى الملكي من يوم ١٩٣٩/٨/٦ قال لي أستاذي الدكتور حيقاري :

ــ كمال ، لديّ مريضة سأجري لها عملية فتح خراج (حوضي) صباح يوم غد (الجمعة) وأريدك أن تعطي لها (البنج) في هذه العملية . وهذه أول مرة يطلبني فيها الدكتور حيقاري أو غيره من الأطباء لمساعدته في عملية خارج المستشفى . واعطاء البنج في البيوت عملية لا تخلو من خطورة لعدم توفر الاوكسجين عند الحاجة . فترددت في سري في تلبية طلبه ، غير أني لم أرض لنفسي أن أكون في عجز عن القيام بهذه المهمة ، خاصة وان أستاذي الدكتور حيقاري هو الذي طلبني إليها . وكان كثير من الناس يومئذ لا يثقون بخدمات المستشفى الطبية لاعتقادهم ان في المستشفى تقبض الأرواح وتنتهي الأعمار ، فباتوا يفضلون الاتكال على الأطباء الخصوصيين ليعالجوهم في بيوتهم مع ان هؤلاء الأطباء في تلك الايام هم أنفسهم الاطباء الذين يعالجون المرضى في المستشفى . والدكتور حيقاري من جملة من كانت لهم ممارسة واسعة في الطب النسوي ، وكان يجري بعض عملياته الولادية بلا بنج ، وحجته في ذلك ان آلام الطلق أشد من آلام تطبيق الملقط على رأس الجنين وسحبه الى خارج القناة الولادية .

وفي الساعة العاشرة صباحاً كنت أجلس الى جانب الدكتور حيقاري

بسيارته في طريقنا الى بيت المريضة في محلة (خضر الياس) بجانب الكرخ • وحين توقفت السيارة عند باب بيت المريضة تماماً ، وضح لي أن سائق سيارة الدكتور حيقاري يعرف هذا البيت مسبقاً ، وبالتالي ان أهل هذا البيت هم من زبائن الدكتور حيقاري • وترجّل الدكتور حيقاري من سيارته بنشاط واستدار الى مؤخرة السيارة وفتح صندوقها الخلفي وأخرج منه طاولة عمليات من الحديد بدائية الصنع معمولة بهندسة يمكن طيّها ليسهل حملها الى بيوت المرضى • وحمل الدكتور حيقاري هذه الطاولة بنفسه الى داخل بيت المريضة حيث استقبلنا رجل الدار بترحيب بالغ وقادنا الى (نيم سرداب) فبسط الدكتور حيقاري الطاولة في وسطه بسهولة ويسر •

وكان خراج الجوف الحوضي يومئذٍ من الحالات المرضية التي ليست غير مألوفة ، وتحتاج لفتحة آلة جراحية خاصة تعرف باسم (كرستوفر–مارتن) التي أصبحت هي والخراج الحوضي بعد عقدين من الزمن لا يُعرفان إلا في الكتب والخزانات الأثرية •

وحين شرعت برش مزيج الكلوروفورم بالإيثر ، وهو المخدر المستعمل يومئذٍ ، قاومت المريضة استنشاقه بقوة غير انها انهارت أخيراً وغطّت في نوم عميق • ولم تطل عملية فتح الخراج • وتهيأ الدكتور حيقاري لطي طاولة العمليات ، وحملها بيده ، وعند باب (النيم سرداب) كان يقف رجل الدار فاستقبلنا يقول :

— بارك الله بكم وكثّر من أمثالكم •

ورأيته يدس شيئاً ما في جيب سترة الدكتور حيقاري ، ولما تحركت السيارة بضعة أمتار أخرج الدكتور حيقاري ما دفعه الرجل في جيب سترته فاذا هي لفة من الدنانير ، وحسب عددها فكانت ثمانية ، فقال الدكتور حيقاري :

— حساب مضبوط ، يعني أنها مائة روبية • وأضاف : وهؤلاء الناس من مرضاي القدماء ، وهم طيبون وكرماء •

ثم فرز دينارين من اللفة ودفعها في جيب سترتي • ورفضت قبولها ، فقال لي :

— كمال ، هذا حقك الحلال ، ورفض الحلال ضرب من الكفر !

وسكت وأبقيت الدينارين في جيبي فكانا أول أجر أحصل عليه من ممارسة مهنتي خارج المستشفى الملكي •

الاستاذ كروكشناك/ ١٩٣٩

أعلنت سفارة العراق في لندن عن حاجة الكلية الطبية في بغداد الى أستاذ في الأمراض النسائية والتوليد ، فتقدم الى هذه الوظيفة الأستاذ كروكشانك واسمه الأول وليم ، وهو أمريكي الجنسية من أصل كندي ، وحاصل على شهادات عالية من كلا البلدين ، ومن انكلترا أيضاً • وقد عمل جراحاً في كلية الطب ببيروت مدة تزيد على خمس سنوات متواصلة • وكان من شروط حكومة العراق أن يكون المتقدم الى الوظيفة في كلية طب بغداد بعمر لا يزيد على الخمس والأربعين سنة ، فكتب كروكشانك الى السفارة العراقية بلندن انه يقرب من الخمسين إلا انه بنشاط من في الأربعين • وبعد اسبوعين وصل كروكشانك الى بغداد • وفي اليوم السابع من شهر تشرين الأول ١٩٣٩ دخل الردهة العاشرة التي أعمل فيها ، عميد الكلية الطبية الأستاذ صائب شوكت ، وبصحبته شخص قريب من عمره ، وأقصر منه قليلاً ، وردي البشرة ، أزرق العينين ، قدّمه لي الأستاذ صائب باسم الأستاذ كروكشانك الذي سيتولى (أستاذية) شعبة الأمراض النسائية والتوليد في كلية الطب والمستشفى الملكي • ولم أفاجأ بذلك إذ أن الدكتور صائب قد سبق أن ذكر لي أن وزارة الشؤون الاجتماعية قد أبرمت عقداً مع

أستاذ أمريكي في الطب النسوي يعمل في كلية بيروت ، كما لم أهتم برئاسة هذا الأستاذ على الشعبة فبيني وبينه الدكتور فؤاد مراد الشيخ وهو أسبق مني في الشعبة بما يزيد على خمس سنوات . ومع ذلك قال الأستاذ صائب وهو ممسك بعضدي ومخاطباً الأستاذ كروكشانك :

ـ تستطيع أن تعتمد على كمال ، وسوف يعطيك المعلومات التي تحتاجها لمعرفة ما في هذه الشعبة .

وفي غرفة دكتور كروكشانك التي كنت أشغلها قبل التحاقه بهذه الشعبة تحدثت معه عن كادر الشعبة من الأطباء والطلاب والممرضات والقوابل . وكانت لهجته أقرب الى اللهجة الانكليزية منها الى الامريكية . وفي غضون حديثي معه لمست منه ما يوحي بأنني سأحصل منه على معارف جديدة في الجراحة النسائية . وصدق حدسي فقد ثبت لي بوقت قصير أنه جراح قدير وانه ذو مكنة عالية في الاعمال اليدوية داخل الجوفين البطني والحوضي . وبالرغم من ضخامة كفيه فقد كانت حركاته الجراحية تجتذب انتباهي باعجاب ، كما كانت له طريقة غريبة في عقد خيوط الجراحة ، وفي استعمال المقص في فك الالتصاقات فيما بين أعضاء الحوض . كما رأيته يفضل المقص المنحني على المقص المستقيم في هذه الاعمال . وسمعته ذات مرة يقول في تعريف الجراح النسائي (هو الجراح الذي يقطع بمقص منحنٍ جرحاً مستقيماً) .

★ ★ ★

وبعد شرح لم يطل كثيراً عن علاقة هذا القسم بكلية الطب ، تحول الى الكلام عن نفسه فقال :

وصلت البارحة صباحاً بسيارات (جيري نيرن) ولم أمهل نفسي لأرتاح بل أسرعت الى الشارع العام ماشياً ، كما دخلت بعض أزقته ، وبهرني النظر الى مئذنة بحوضين . وهذا ما ليس له مثيل في سوريا أو لبنان،

ثم قال متسائلاً : ولكن ما الهدف من الحوضين وحوض واحد يكفي ليسمع الناس نداء المؤذن للصلاة ! وقلت له :

ـ سترى الكثير في بغداد مما ليس له نظير في سوريا ولبنان • وسألني:

ـ ألا يوجد كتاب مصور عن بغداد باللغة الانكليزية ؟

ولم ينتظر مني جواباً ، بل سألني فجأة :

ـ هل ثمة مانع ديني أو حكومي من تصوير ما أراه في بغداد ؟ وأين أجد بغداد القديمة ؟ (واستطرد يقول) أحسن أوقات التصوير هو قبل بزوغ الشمس حيث لم تتكون بعد الظلال • فقلت له :

ـ سوف ترى الكثير عن بغداد القديمة •

والأستاذ كروكشانك هو الثالث الذي ترأس قسم الأمراض النسائية والتوليد بكلية الطب والمستشفى الملكي • وهو طويل القامة باعتدال،وعمره بنحو الخمسين سنة ، كندي الأصل بلكنة امريكية ، وقد تكون انطبعت فيه هذه اللهجة أثناء عمله جراحاً في الكلية الامريكية ببيروت على مدى خمس سنوات متتالية قبل أن تستقدمه الكلية الطبية الملكية ببغداد • وكان أول ما استرعى انتباهي إليه هو بعض تصرفاته الغريبة ، فقد كان يدخن السكاير التي يلفها بأصابعه ، لا بخلاً أو اقتصاداً بل هواية أو رغبة في ممارسة العادات غير المألوفة • كما لم يكن يستعمل أعواد الثقاب لإيلاعها ، بل يتلذذ بوضع الفتيل على حجر الصوان ثم يضربها بزناد من الصلب ، فيقدح الشرار من بينهما فيشتعل الفتيل ليشعل له السكارة ، وهذه هي الطريقة التي كان يستعملها الفلاحون في العراق الى وقت قريب • وكان أيضاً يحمل في جيب سرواله حفنة من المفاتيح يجمعها بشريط من الجلد يشدّه الى حزامه • وله أيضاً حركات غريبة في فحص المريضات ، فيضجعهن على جوانبهن لا على ظهورهن لهذه الغاية • ويلحّ بتركيز في استجواب المريضة عن تأريخ مرضها، وله تفسيرات غريبة في سبب الحمى الالتهابية ، وعسر الولادة • وفي أيامه

لم تكن مضادات الحياة الدوائية متوفرة فيستعمل الكنين عوضاً عنها ، كما لم يكن يستعمل الكحول على يده بعد غسلها عندما يستحضر نفسه للعمليات الجراحية ، ويكتفي بوضع يده في القفازات المطاطية المعقمة ، فاليد كما يقول : « لا يمكن تنظيفها إلا بشيّها على النار • »

وكان كروكشانك هاوياً لاقتناء التحفيات من ثياب وأحجار ومخطوطات وأواني قديمة ، وصارت بينه وبين تجار هذه البضائع صداقة غير متكافئة • كما كان يهوى التصوير الفوتوغرافي ، وله من أدوات هذا الفن ماكنات ضخمة وغالية الثمن ، ومختبر في بيته لطبع الافلام التي يسجل فيها ما فيه المتعة أو الأهمية الوثائقية • ومما له من هذه الاعمال صورة تمثال الملك فيصل الأول ، وقد التقطها بعد أن راقب سقوط نور الشمس عليه في أوقات مختلفة من النهار ، فوجد ان خير ساعة لتصوير ذلك التمثال هي قبيل ارتفاع الشمس عن أفق مطلعها ، حيث لا تكاد تكون لأجزاء التمثال ظلال تخفي محاسن دقائقه • وقد قال لي يوماً وهو يطنب في إعجابه بالتوافق الذي أجاده النحّات بين نظرتي الملك فيصل والفرس التي يمتطيها :

— ينفذ الألم الى عظامي حين أرى أسلاك الكهرباء أو التلفون في طريق نظري الى الفن العالي في هذا التمثال الجميل •

واجتهد كروكشانك بطرائقه الخاصة فمحا ظلال تلك الاسلاك من صور التمثال حتى بدا طليقاً شامخاً من اسرها الذي يحيط به من كل جانب•

وذات يوم ترجل الدكتور كروكشانك من سيارته وبصحبته غجري كان يجلس الى جانبه وهو يحمل ربابته ، وكأن كروكشانك قد عثر على كنز في شخصية هذا الغجري ؛ وأخرج من صندوق سيارته آلة تصوير ضخمة وحاملتها الثلاثية ، وأوقف الغجري أمام جدار الردهة العاشرة ، وطلب منه أن يضرب على ربابه ويغني ما يشاء ، إذ هو وراء تسجيل التغييرات التي

تظهر على معالم وجهه بتأثير معاني غنائه وتأثره بها ، لا ليسمع تلك الأنغام.
وأخذ كروكشانك لهذا الغجري ما يقرب من عشر لقطات تصويرية ، وقد رأيت بعضها بعد أن أكمل طبعها وكأني أسمع منها غناء الغجري وألحان ربابه المتناغمة معه .

★ ★ ★

كذلك كان كروكشانك ولوعاً بالتحدث عن الخيول ، فاذا ورد ذكرها طاب له أن يأخذ الكلام في وصفها ، وما في تركيبها من رشاقة وجمال ، وما في حركاتها خببا أو حفرا من تناسق وموازنة . ولديه اضبارة ضخمة عن الخيول التي فازت بسباقات ببيروت مؤشراً على كل واحدة منها باسمها وعمرها ونسبها ولونها . وهذه هي هوايته التي لا يستطيع الفكاك منها ، حتى كان على منضدة مكتبته تمثال من البرنز لفرس نافرة تأبى أن تطأ حوافرها الأرض . وكروكشانك حين يتكلم عن الخيل فانه يصف العربية منها حصراً ، ويحب منها الخفيفة الشعر ، وذات الغرة التي لا تنحدر الى خشمها، ولا تتسع الى خديها . كما يفضل الفرس المحجلة بثلاث أرجل ، وذات العينين الوسيعتين ، والهامة العالية ، والاشداق الواسعة ، والاعناق الطويلة . واستغربت جداً حين قال لي : لا تلد الأفراس مهراً بلون أبيض ، بل تلده بألوان أخرى ثم يتبدل لونه الى الأبيض . وكان مصيباً في ذلك ، بينما كنت أنا لا أعرفه ومسقط رأسي في سامراء مشهورة بخيولها من كل الألوان والأنساب . كما كان كروكشانك يتردد على اسطبلات خيول السباق بجانب الكرخ ببغداد ويصادق بتودد أصحابها والسائسين الذين يهتمون بشؤونها، ومن يمتطيها في حلبة السباق .

وكان في جعبة كروكشانك على ما بدا لي كثير من الاسئلة قد يكون استحضرها قبل أن يصل بغداد ، والأجوبة على أسئلته الكثيرة يطول ، فسألته لأبتر سيلها :

ـ أين تسكن الآن يا استاذ كروكشانك ؟

فأجابني :

ـ لي معرفة قديمة بالدكتور (بيتي) الباكتريولست في كليتكم الطبية وقد اتفقت معه بالمكاتبة أن أشاركه الدار التي يسكنها ، وهي قريبة جداً من كلية الطب ، ولا تفصل بينهما إلا طريق غير وسيع .

ولفت كروكشانك نظري الى انه حتى الآن لم يسألني عن نطاق عملي في شعبة النسائيات والولادة ، وما سيكون عمله فيهما ، وهي أسئلة كنت أتوقع أن تكون مفتاح تعرفه بي وعلى الشعبة النسائية ، وفي خلال تحدثه معي دخن أكثر من ثلاث سكاير حتى بدا لي انه ليس جاداً ولن يكون متفرغاً بفكره ووقته للتعليم في كلية الطب وبالمستشفى الملحق بها . وأخيراً تحوّل يسأل في حدود ما سيكون من واجبه في الدائرتين ، فسألني :

ـ هل تكثر الولادة العسرة في بغداد ؟

فقلت له :

ـ انها ليست قليلة .

واستغربت حين قال لي بصراحة :

ـ ليس لي خبرة واسعة بهذا الموضوع . وكانت أكثر أعمالي في بيروت في الجراحة العامة ومن ضمنها عمليات حوض المرأة .

وحين وصلنا في حديثنا الى حالة سقوط يد الجنين في الاعتلان المستعرض سألني :

ـ هل تعالج ذلك بالعملية القيصرية ؟

فأجبته :

ـ كلا بل بقطع رقبة الجنين .

وأردت أن أتباهى أمامه فقلت له :

ـ طوّرت عملية قطع رقبة الجنين لاحتمال انحباس رأسه بعد سحب

جسمه الى الخارج ، فصرت أبقي اليد التي لم تسقط الى الخـــارج متصلة بكتف الجنين ورأســه لتساعــدني على ســحب الرأس بعد استخلاص جسم الجنين من الرحم .

ورأيت كروكشانك يوسع عينيه ليتصور خطوات العملية ، وقال :

ـ لم أقرأ ذكراً لهذه العملية ، ويبدو لي انها مبتكــرة ، وأريد أن أراك تعملها بحضوري .

وذات يوم أجريت هذه العملية بحضوره ، غير انه لم يبدُ لي متحمســاً لها فقال :

ـ انها تأخذ وقتاً أكثر مما تأخذه العملية التقليدية .

زوجة الاستاذ كروكشناك في بغداد

صباح يوم من شهر مايس سنة ١٩٤١ قال لي كروكشانك :

ـ ساعدني يا كمال ، فان (مسز كروكشانك) ستصل بغداد غداً صباحاً ، فاحجز لي ولها غرفتين في أحد الفنادق لمدة ثلاثة أيام .

وسألت نفسي ، ولماذا غرفتين وهما زوج وزوجته ؟ فسألته للتأكيد :

ـ غرفتين ؟

فأجابني ببساطة :

ـ نعم غرفتين .

فاتصلت بالصديق (أبي جلال) صاحب فندق السندباد ليحجز غرفتين باسم كروكشانك ومســز كروكشانك . وفي صباح اليــوم التالي حضــر كروكشانك كعادته الى الردهة العاشرة ومعــه زوجته مسز كروكشــانك ، وهي في مثل عمره تقريباً غير انها أطول منه وأنحف عوداً ، وردية البشــرة وعلى وجهها نمش قليل ، يكثر في جيدها وأعلى صدرهــا الذي يتدلى عليه

عقد من المرجان غير المشذّب ، ويحيط بمعصمها سوار من الفضة يبدو عليه القدم • قالت لي :

ــ سمعت عنك كثيراً من وليم (تقصد زوجها وليم كروكشانك) ، وأنــا مسرورة بلقائك • فقلت لها :

ــ شكراً ومرحباً بك في بغداد •

ثم قالت لي بلهفة :

ــ ستدلني على معالم بغداد القديمة ، وأريد أيضاً أن أرى بابل إن أمكن، وأريد شراء مزهرية من النحاس المطروق •

والتفتت الى زوجها كروكشانك تسأله : هل اشتريت الختم البــابلي الذي طلبته منك ابنتك (أدث) ؟ فأجابها :

ــ اشتريت لها ختماً بابلياً ، إلا أنني أعتقد أنه مزيف ولكن باتقان •

فقالت له :

ــ وأنا أريد واحداً أصلياً لا مصطنعاً •

فقال لها مازحاً :

ــ إذن لا بد من أن أسرق واحداً من المتحف العراقي !

فردت عليه تقول :

ــ اسكت ، فأنت تنسى كل شيء إلا المزاح •

والتفتت نحوي وقالت :

ــ أريد أن أشتري فروة نسائية •

وسمعها كروكشانك فقال لها :

ــ اشتريت فروة من نوع جيد ، إلا انها رجالية •

وسألته زوجته :

ــ ماذا تقصد بالرجالية ؟

فأجابها :

— طويلة تصل الى القدمين .

وفي اليوم التالي اصطحبتها الى سوق الصفافير ، فبدت على وجهها الدهشة والاعجاب حين شاهدت عمال النحاس يمتطون المحامل الخشبية التي يطرقون عليها صفائح النحاس ويكيفونها بالاشكال التي يريدونها ، فقالت :

— يا إلهي ، كيف يضبطون ضربات مطارقهم بالقوة نفسها والابعاد نفسها على صفحة النحاس !

وشرعت تتنقل من حانوت الى حانوت في سوق الصفافير وهي تمعن نظرها في أعمالهم بصنع القدور ودلال القهوة ومشارب الماء ، ومنافض السكاير وما الى ذلك . وبعد نحو ساعة في هذا السوق دون أن تشتري شيئاً منه ، قالت لي وعلى وجهها مزيد من الرغبة في أن تبقى فيه :

— أخذت فكرة جيدة عن صناعة الأدوات النحاسية وما في هذا السوق منها ، وسوف أعود إليه لاشتري منه ما أريد اقتناءه .

وكنت أنا وكروكشانك ننتظرها في اليوم التالي في الفندق لتناول الشاي ، وعادت من سوق الصفافير وهي تحمل بيدها مزهرية صغيرة من النحاس ، وبادرت زوجها تقول :

— وليم ، رأيت ما لم أكن أتخيل أنه يصنع بالمطارق اليدوية البدائية،وبأيد لا تعتمد في عملها إلا على التجربة والتقليد ، انه أمر رائع يا وليم ويجب أن تراه . وفي مساء اليوم نفسه اتصلت بي تلفونياً وأنا فيبيتي:

— كمال ، أنا أخطأت في اختيار المزهرية ، فهل نستطيع إبدالها بواحدة غيرها ؟ انها غير مستوية في طرف من حاشيتها ، فقلت لها :

— نحاول مع البائع ولا أظنه سيمانع .

وفي بعد ظهر اليوم التالي كنت وإياها في حانوت من باع لها تلك المزهرية ، وصارت تفحص بدقة عدداً من المزهريات مثيلات التي اشترتها منه ، فتكشف عيباً في كل واحدة منها وتقول :

ـ هذه لو كانت أعمق لكانت أفضل ، وتلك لو كانت بلا هذا الاعوجـاج لفضلتها على التي اشتريتها ، وهذه لو ان الطرق فيها أعمق لكانت هي التي أريدها ، وهذه مقرنصاتها غير متساوية ..

وهذا ما كانت تقوله عن كل مزهرية موجودة في الحانوت . علمـاً بأن كل واحدة منها بدينار ونصف لا أكثر . وبدا لي أن البائع قد فهـم من متابعة ما كانت تقوله لي وهي تؤشر على الأماكـن التي تعيبها ـ بدا انه عرف ما كانت تقصده ، فقال لها بالعربية :

ـ خاتون ، يرحم أباك ، هذه من صنع اليد لا من عمل ماكنة ، وهذه هي قيمتها الفنية .

فترجمت ما قاله البائع لمسز كروكشانك ، فاذا هي تطلب مني أن أسأل البائع : هل يمكن أن يعمل لي واحدة بحضوري ؟

فقلت لها :

ـ وما الفرق يا مسز كروكشانك؟ فان جميع هذه المزهريات من صنع يده .

فقالت لي :

ـ أريد أن أرى مزهريتي وهي صفيحة من النحاس وأتابع ضرب المطـارق عليها خطوة خطوة حتى ينتهي العمل منها وتصير المزهـرية التي تزين صالون بيتي .

ونقلت ذلك الى صاحب الحانوت فقال لي :

ـ عمي هذه الخاتون مترهية على زمانها ، والمزهرية بدينار ونصف . ومدَّ صاحب الحانوت يده وأخذ من يدها المزهرية التي سبق أن باعها اليها، ودخل حانوته وأخرج من درج تحت منضدة صغيرة دينـاراً ونصف وقدمها لمسز كروكشانك وهو يقول :

ـ هذه فلوسك ، وهذه مزهريتي تعود إليَّ والله يرحم أباك .

ورأيت ان صاحب الحانوت محق في تصرفه مع مسز كروكشـانك ،

فاعتذرت منه غير انه أصر على استعادة مزهريته • وفهمت مسز كروكشانك الموقف وغادرت الحانوت وكأن لم يحدث شيء الى حانوت ثانٍ وحانوت ثالث فلم تقف على مزهرية ترضيها ، فقالت لي :

— المزهرية الاولى التي أعدتها الى البائع الأول هي أحسن ما رأيت الى الآن في هذا السوق ••

وغادرنا سوق الصفافير ولم نشتر شيئاً منه •

كروكشنك والسيد شيبان

دخل ذات يوم غرفة الأستاذ كروكشانك رجل في عمر الثلاثين أو أكثر قليلاً ، وكان بيده سوط محبوك من الجلد بمقبض أسود أبنوسي الشكل واللون ، ويرتدي سروالاً كالذي يلبسه فرسان سباق الخيل ، وهو ككل (جوكي) صغير الحجم وقصير القامة ، ثم رأيته مرة أخرى وبصحبته سيدة ذات وجه مستدير بض ، وعينين واسعتين ، ثم رأيتها بعد نحو ثلاثة أو أربعة أشهر في غرفة الأستاذ كروكشانك وبطنها منتفخة بالحبل • وعرفت من كروكشانك أن هذا الرجل كان من الجوكية المشهورين في حلبة السباق ببيروت ، وهناك كانت أول معرفته بهذا الرجل ، وهو لبناني واسمه (شيبان) • وقد كبت به فرسه ذات يوم وهو على ظهرها في ميدان السباق ، فدهسته الجياد التي وراء فرسه وحطمت بعضاً من أضلاعه وعظم فخذه الأيمن ، فلم يعد صالحاً لركوب الخيل والتسابق على ظهورها •

وكان كروكشانك يهوى مشاهدة الخيول وعلى ظهورها الفرسان ، وكأن الفارس والحصان (كما يقول) كتلة واحدة تحملها الأرض بذلة ، وتخضع لضربات حوافرها باستكانة • وتوثقت بين شيبان وكروكشانك صداقة وتكررت مقابلاتهما يتحدثان فيها عن الخيول العربية وصفاتها الحميدة • وكان لكروكشانك بنت في منتصف عقدها الثاني لا يذكر اسمها

لا ويثني عليها كمتطلّعة لتعلم الفروسية على ظهر جواد اشتراه لها أبوها كروكشانك ليدربها صديقه شيبان على ركوب هذا الجواد • وقال لي كروكشانك يوماً انه ينوي أن يجعل منها (جوكية) لتكون أول فتاة تمارس هذه المهنة في لبنان وربما في العالم كله •

وحان يوم أن تضع زوجة شيبان وليدها ، فأدخلها كروكشانك دار التمريض الخاص بالمستشفى الملكي ، وفحصها فاذا جنينها معتلن بالمقعدة أو كما تسميه العامة (مرجّل) ، وهو اعتلان لا يخلو من خطورة عند اندفاع الجنين من المسلك الولادي • فرابط كروكشانك قريباً من غرفتها بانتظار انحدار الجنين ليقوم بمهمته في تخليص رأسه من مخرج الحوض • وحان الوقت ليعمل ذلك ، وحاول بكل ما عنده من علم وتجربة غير انه أخفق في انقاذ (ابن) صديقه الحميم ، ومعلم ابنته الفروسية شيبان • كان يتمنى من صميم قلبه أن يعطي شيبان ولداً حياً ، فأعطاه ولداً ميتاً •

ورأيت كروكشانك يلقي نظرة كئيبة على ذلك الوليد وهو مسجى بلا حياة على طاولة جانبية • وتقطب جبينه وتهدلت شفته ، وتهاوى على مقعد صغير الى جانب طاولة الوليد الميت • ولا بد انه كان آنئذ يفكر بجسامة النتيجة المفجعة ، حين يصل خبرها الى صديقه شيبان ، وما عساه أن يقول له إذا تقابلا بعد دقائق • ودخلت الغرفة القابلة (خاتون) بينما كان كروكشانك يطوي ظهره ويسند رأسه على راحتي يديه ، ومرفقيه على ركبتي رجليه ، فأدركت ما به من هم ومن خوف حين يعرف زوج المريضة شيبان النتيجة الأليمة ، فأسرّت القابلة خاتون في أذنه أن يغادر غرفة الولادة من بابها الخلفي ، وفهم كروكشانك غرضها من ذلك فأطاعها بامتنان وذلّة • وحينذاك تناهى إلينا ونحن في الغرفة صياح شيبان يتعالى بالسب والشتم حين فوجىء بوفاة ابنه الذي كان عقد عليه الآمال بعد طول عزوبة ، وزوجته بعمر تجاوز سني الشباب ، وسمعته يزعق :

— يا للكلب كروكشانك ، انه قاتل ، ولا بد ان اقتله •

وكان كروكشانك قد خرج هاربا عن طريق باب الغرفة الخلفي،واختفى عن المستشفى طيلة ذلك اليوم واليومين التـاليين • وفي اليوم الثاني بعـد الولادة ارتفعت حرارة زوجة شيبان ، فجنَّ شـيبان وعاد يسـب ويشـتم كروكشانك وكان مصابه بوفاة ابنه قد وقع توا لا قبل يومين ، وصمم على اخراج زوجته من المستشفى ، وعبثا حاولت اقناعه لابقائها يوماً آخر لنعرف سبب الحمى ونراقب تطورها • وفاجاني بعد ساعة يقول انه قرر ابقاءها حتى صباح غد ، وفي صباح يوم غد آدركنا بعد ان أخرج زوجته قبل بدء الدوام الحكومي ، سبب ابقائها في المستشفى هذه الليلـة ، فقد سهرها والمرضـى والممرضات نيام ، في كتابـة كل ما هو بذيء وقبيـح في وصف صديقـه كروكشانك ، كتبها على جدران غرفة زوجته ، وجدران كريدورات الردهة، وعلى سطوح الطاولات ، وأغطية المصـابيح ، وستائر النوافذ ، وأبـواب الخزانات ، وحتى على بلاطة الغرفة • كتب كل ذلك بالدهان الذي لا يمحوه المـاء والصابون ••

— (الموت لكروكشانك المجرم ، الموبوء ، والنصيحة لكل امرأة أن لا تعتمد على هذا الدجّال ، فانه لا يعرف من الطب إلا ما يقتل المرضى) •

كان حادث ولادة زوجة شيبان دفعني الى أن أستذكر حق أسـتاذيَّ كندي وحيقاري حين يعالجون ولادة الجنين بالمقعـدة ، فاذا (التوليد) فـن وتجربة وموهبة ، وجميعها متوفـرة في الأستاذين كنـدي وحيقاري • أما كروكشانك فهو جراح مقتدر ولكنه مولد رديء • فهو لم يمـارس هـذا الاختصاص في بيروت بل مارسه متطفلاً حين ترأس وحدة الولادة والتوليد بالمستشفى الملكي ببغداد ، فكان من أمثلة أعماله الخائبة ما حدث لزوجـة شـيبان •

أم تخنق ابنتها حتى الموت/١٩٤٠

طلبني تلفونياً في باكر صباح يـوم من شهر كانون الاول سنة ١٩٤٠ السيد (م...) وكان هذا يوماً ما حاكماً بمرتبة عالية في دوائر وزارة العدلية العراقية ، وهو كردي من عائلة مشهورة بشمال العراق ، قال لي باضطراب :

ـ تحضر الى بيتنا حالاً ، أرجوك !

وقطع المخابرة دون أن يقول أكثر من ذلك ، وبقيت أنا في حيرة لأعرف ما دعا السيد (م) الى هذه المكالمة المبهمة . وكنت أعرف مكان بيته في محلة العيواضية ، وقد دخلته أكثر من مـرة بدعـوة من أخ زوجة الحـاكم (م) صديقي الدكتور (...) فتوجهت حالاً الى بيته فوجدته ينتظرني على عتبة داره بحالة قلقة ، وبادرني يعتذر عن ازعاجه لي بهذا الاستدعاء المبكـر في الصباح ، وتقدمني الى غرفة جانبية في (هول) بيته ، وحين دخلناهـا كانت عبقة برائحة حادة خانقة ، فأشـرت الى ذلك باستغراب واستعلام ، فأجابني ببرود :

ـ أعرف ذلك !

ثم قال لي وهو يشـير الى امرأة كبيرة العمـر تستلقي على ظهرهـا بتراخٍ ، وقال :

ـ هذه أم زوجتي .

ولم تكن ثمة حاجة أن يعرفني بها ، فأنا أعرف انها أم صديقي الدكتور (...) ثم حوّل اشارته الى فتاة في منتصف عقدها الثاني ، وقال :

ـ وهذه ابنتها في حالة تسمم بغاز الفحم ، وأمها أيضاً بحالة تسمم .

فطلبت منه اخراج الأم من الغرفة حـالاً . وتقدمت من الفتاة أتلمّس نبض رسغها فوجدتها بلا قلب ينبض . وتأكـدت بالفحص المتكرر فاذا هي جثة بلا حياة . وأمسكني السيد (م) من عضـدي وقادني الى غرفة عنـد مدخل بيته ، وسدّ بابها وراءنا ، ثم قال لي :

ــ دكتور ، سأكون صريحاً معك ، وأنت صديق العائلة ، فأنا أعتقد أن الأم هي التي قتلت ابنتها بغاز الفحم • ولما أنجزت ما قررت أن تفعله بابنتها ، حاولت خنق نفسها بالطريقة نفسها •

فوجئت بهذا التصريح الخطير ، فلماذا تقتل الأم ابنتها ؟

ــ ان هذا الموضوع يصعب عليَّ شرحه ، فدبّر لي شهادة وفاة الفتاة ، أرجوك !

فقلت لنفسي : ان في الأمر جريمة ، وان السيد (م) لا بد يعرف ذلك ، فأخذت حذري وأنا أجهل قدر اشتراكي بها إذا كتمت خبرها عن السلطات الحكومية ، فقلت له :

ــ يا أستاذ (م) أنت أعلم مني بالقانون ، وتعرف ان شهادة الوفاة من اختصاص الأطباء الممارسين ، وأنا لست ممارساً بعد •

فسألني :

ــ ألا تكتب وصفات الى مرضاك ؟ احسب هذه الشهادة كالوصفات التي تعطيها للمرضى ؟

ورأيت منطق السيد (م) مردوداً ، ففسرته بسبب اضطرابه في أمر أخت زوجته الذي يملأ في نظره فضاء البيت كله • فقلت له :

ــ غير مسموح لي بكتابة وصفة طبية ، إذ أني طبيب مقيم ووصفاتي لا تصرف إلا في صيدلية المستشفى الملكي •

ورأيت السيد (م) يبتعد بفكره عني ، ثم التفت نحوي وقال كمن يسأل نفسه :

ــ كيف أدبر الأمر ، يا إلهي ؟

وودعته وانصرفت الى المستشفى ، وأنا أفكر بما رأيت • وبعد نحو عشرين سنة ، كنت يوماً مع صديقي الدكتور (ن) ، فشكى لي وهو مخمور من أخيه (آ) ، وذكر لي دون تردد حكاية الفتاة التي قتلتها أمها بغاز الفحم؛

قال والنقمة تتفجّر من فمه على أخيه :

ـ انه مجرم بالخلقة ، ولا يتورع من أن يعتدي على أعراض الناس حتى لو كانوا من جيرانه ، ويقابلونه صباحاً ومساءً ، ويا ما حذرته من التلصص على فتيات الجيران ، غير انه لم ينصت الى نصائحي فكان من ذلك ما حدث لجارتنا تلك الفتاة التعيسة .

وحينذاك عرفت كل شيء عن وفاة أخت صديقي الدكتور (...) بغاز الفحم .

مشروع زواج لم يتم/ ١٩٤٠

أيقظتني في الصباح الباكر ضربات على باب حجرتي بالردهة العاشرة بطريقة لم آلفها من إحدى ممرضات الردهة ، أو من الفراش الذي يخدمني في هذه الحجرة ، فاستيقظت لأرى الطارق ، وانحدرت عن سريري لأفتح باب حجرتي وفي عيني وسن ، كما كنت متعباً من أعمالي في تلك الليلة ، وفتحت الباب قبل أن أرتدي كامل ملابسي فكانت المفاجأة التي اضطرتني أن أتظاهر بالسرور لملقى هذا الطارق ، فقد كان الدكتور (ق) وهو أحد أساتذتي الذي يوليني اهتماماً خاصاً بتعليمي وتوجيهي ..

ـ صباح الخير يا كمال .

ـ صباح الخير يا أستاذي ، والمعذرة فقد كنت متعباً فلم أجبك سريعاً .

ـ كمال ، عندي مريضة يهمني أمرها ، وهي الآن في الغرفة الجانبية بالردهة العاشرة ، فأرجو أن يكون اهتمامك بها خاصاً .

ـ أمرك يا أستاذي .

ـ أنتظرك في حجرة المريضة ، ولا عجلة في ارتداء ملابسك .

وخطر ببالي سؤال : إذا كانت المريضة بحالة مستعجلة اضطرت أستاذي أن يجيء بنفسه الى مخدعي ، فلماذا قال لي لا عجلة في ارتداء ملابسي !

المريضة تجاوزت العقد الرابع من عمرها ، أحست بألم مفاجيء بينما

كانت تغط في نومها قبل أربع ساعات ، وكانت حين دخلت الى غرفتها في الردهة العاشرة تضطجع منبسطة على ظهرها ، وتجلس على كرسي الى جانب رأسها فتاة في عز شبابها ، ذات وجه صبوح وملامح حبيبة ، وعينين سوداوين ونظرات ساخنة متواضعة ، وشفتين رطبتين فيهما تهيؤ الى الابتسام بأدب ، وجسم لا ممتلىء ولا نحيل ، وبساطة وذوق في لباسها المحتشم . وسألتني هذه الفتاة :

ــ دكتور ، أخرج من الغرفة ؟

وحتى لو كان ما يستوجب خروجها من الغرفة لما استطعت أن أطلب منها ذلك ، فقد غلبتني على أمري من أول نظرة ، فقلت لها :

ــ لا ، ابقي في مكانك ، أهي أمك ؟

فأجابتني بما يشبه الفخر :

ــ نعم ، هي أمي .

ولم أجد صعوبة في تشخيص مرضها ، كانت مصابة بورم مبيضي ملتوٍ ، عرفته دون حاجة الى فحوص كثيرة . وشرحت الأمر لأستاذي الذي كان ينتظر خارج الغرفة ، ونادى بدوره على ابنتها لتسمع قراري، وكان العلاج الجراحي مفهوماً بالنسبة لأستاذي ، أما ابنتها فسألتني :

ــ والعلاج يا دكتور ؟

ــ عملية مستعجلة .

ــ خطرة ؟

ــ بسيطة باذن الله .

وحُملت المريضة على نقالة الى صالة العمليات ، ولم يكن لي الى ذلك اليوم تجربة واسعة في مثل هذه العملية ، غير أني قد شاهدت كثيراً مثلها وساعدت أستاذي كروكشانك في عدد غير قليل منها . وكروكشانك يومئذٍ

خارج القطر في عطلته السنوية ، وهي عملية بسيطة •

لقد كان ذلك اليوم بالنسبة لي حافلاً ، فأستاذي (ق) يأتي بنفسه الى مخدعي ليطلب مني معالجة مريضة تقربه (على ما قال لي) ، وابنة المريضة قد هزت مشاعري حتى أعماقها لأقوم بخدمة لأمها ، ثم انجاز عملية (فتح بطن) لم أكن قد مارست مثيلة لها قبلاً • والذي أعذرني لأتقلد هذه المسؤولية غياب أستاذي كروكشانك عن القطر•لقد كنت في ذلك اليوم كأنني أمرّ بامتحان عسير لا بد أن أجتازه بنجاح لأكون شيئاً ما يجلب انتباه تلك الفتاة إليّ • وحين أتممت العملية خرجت من الصالة بزهو ازداد فجأة حين رأيت ابنة المريضة تقف عند مدخل الصالة وهي تسند رأسها على اطار بابها الخشبي ، ودموع تنحدر بصمت على خديها • وكالعادة حين يخرج الجراح من صالة العمليات يسأله أهل المريض بلهفة وقلق :

ـ دكتور ، العملية ناجحة ؟

وسألتني هذه الفتاة القلقة :

ـ كيف أمي يا دكتور ؟

وعددت سؤالها مديحاً لي ، فقلت لها بما يقابل ذلك :

ـ جيدة ، والعملية ناجحة باذن الله •

وصرت بعد ذلك أزور المريضة مرة أو مرتين في اليوم ، فأرى ابنتها تجلس على كرسي قرب رأسها وهي تمرّ براحة يدها على جبهتها بحب وعطف ، وصرت بعد ذلك أنتهز الفرص لأكلمها وأنا أتمنى لو أنها تكثر من طلباتها مني أياً كان نوعها •

شغلت بالي هذه الفتاة ، أنا أكبرها قرابة عشر سنوات ، ولا أعرف شيئاً عن نسبها وثقافتها غير أني أعتقد أن الخلق لا بد أن يكون موازياً للخلقة في كثير من الامثال ، وتصرفاتها تدل على نبل منبتها ، وصممت أن أطلبها للزواج ، دون أن يخطر على بالي احتمال رفضها أو رفض أهلها

لطلبي ، بل رأيت أن احتمال القبـول ليس أكثر من احتمال انتمائي الـى عائلتها نسباً • كما صرت أخجل حين أقارن جمالها بشكلي وهيئتي ، كذلك تناسيت أنني في أول طريقي الطويل في الحياة ولم أكوّن بعد لنفسي مركـزاً في ميدان مهنتي • كل هذه الأفكار خطرت ببالي حين حكمت مع نفسي ان هذه الفتاة كفؤ لتكون زوجة صالحة لبيت سعيد • غير ان مخططات الأقدار غير ما تقرره الأفكار ، فقد علمت بعد بضعة أيام أن أستاذي (ق) قد سبقني الى طلب يدها من أهلها ، فاعتذرت أمها عن قبوله نسيباً بسبب الفارق بين عمره وعمر ابنتها ، فارتحت لهذا الخبر وقررت حالاً زيارة أمهـا في بيتهـا ومكاشفتها بطموحي لخطبة ابنتها ، فاذا القدر أسرع مني وأمضى عزمـاً ، فقد أجابتني أمها الوقور ان ابنتها خُطبت قبل يومـين وتم القبول وقرئت الفاتحة • وغادرت دارهـا وأنا أتظاهـر بروح رياضية ، والزواج قسـمة ونصيب ••

بين الدكتور سندرسن والاميرة راجحة

كنت أعنى بسمو الأميرة راجحة بنت الملك فيصل الأول أثناء حملهـا الأول من زوجها عبدالجبـار محمود ، وهو من طيـاري القوة الجويـة العراقية ، وذو وسامة رجولية وخلق دمث ، وقد أحيل على التقاعـد بطلب منه بعد أيام قليلة من زواجه من الأميرة • وصرت أزور الأميرة في بيتها في الشهر مرة وعلى نحو منتظم ، وأستجيب لعيادتها إذا وصلني طلب منها في أي وقت • وكانت تسكن في بيت مأجور متواضع في منطقة الكرادة داخل قريب جداً من بيت الفنان شوكت الرسام • ومرت شهور حملها دون شكوى مهمة إلا زيادة في وزنها ومن الأرق ، وحتى هذه كانت طفيفة لم تضطرني الى علاجها إلا بتنظيم غذائها كماً ونوعاً • كما كانت الأميرة راجحـة متفهمـة وصبورة ولا تطلبني لزيارتها إلا لسبب•وفي مساء يوم عشرين من شهر حزيران سنة ١٩٤٠ حان وقت وضعها ، وكان ذلك اليوم قريباً جداً من اليـوم الذي

حددته لولادة جنينها فوصلني نداء تلفوني من زوجها السيد عبدالجبار لأزورها ، وأتحقق من طبيعة شكواها • وحين دخلت مخدع الأميرة كانت الى جانبها الأميرة صالحه أخت الملك فيصل الأول ، وسيدة أخرى هي أخت زوجها عبدالجبار ، واكتشفت بعد فحص الأميرة انها في حالة مخاض صادق• وفحصت موضع الجنين في رحمها فاذا هو يتقدم برأسه في الحوض لا برجليه ، وهو الاعتلان الطبيعي الذي كنت أتابعه في الشهرين الأخيرين من الحبل • فطمئنت الأميرة على طبيعة حالها وحالة جنينها • وكان زوجها السيد عبدالجبار يقف الى جانبها ويسمع ما ذكرته للأميرة • وسرعان ما اشتدت آلام الطلق ، وانحشر راس الجنين في مدخل الحوض • غير انه لم يتقدم الى داخله بسرعة محسوسة • وسألني السيد عبدالجبار : كم يطول هذا الحال لتضع الأميرة وليدها ؟ فأجبته قد يطول ساعات • وهذا غير مهم طالما كل شيء طبيعي في هذه الولادة ، فقال معترضاً : ولكن الأميرة تتألم ولو ان ذلك لا تظهر علائمه عليها • فهي هكذا دوماً صبورة وكتومة • فقلت له ان آلام الطلق الولادي ضرورية لانحدار الجنين وولادته ، ولولاه لما حصلت الولادة • وأضفت اقول : وأنا باقٍ هنا لأرى متى يحين ضرورة تداخلي لراحتها وسلامتها ، وان القابلة التي الى جانبها كفوءة لتهتم بأمرها• وقد أخبرتها متى تطلبني لاعادة فحصها • واقتنع السيد عبدالجبار ، وبدا عليه شيء من الاطمئنان • وتوجهنا معاً الى حديقة بيته لنجلس على أرجوحة في أحد أركانها غير ان القلق ما زال يطوف على وجهه بالرغم من ظاهر هدوئه وقلة تحدثه إليَّ • ورفَّه عن خاطره وأراد أن يتكلم ، فسألني إن كان يستطيع أن يرى الأميرة فأجبته : لا مانع أن تبقى الى جانبها حتى يحين الوقت الذي يسبق اندفاع الجنين • فنهض ودخل داره ولم يطل فيه حتى عاد وهو يحمل بيده سبتاً مليئاً بالفواكه ، ولم يمكث طويلاً الى جانبي على الأرجوحة حتى نهض ودخل الدار مرة أخرى ثم عاد وهو يحمل طبقاً من الحلوى • وأنا أعرف معنى ما يفعل فقلت له : إهدأ يا سيد عبدالجبار فليس

في حالة الأميرة ما يقلق • وطالت آلام الأميره وزوجها الى جانبها • وكنت وحدي في الأرجوحة فغلبني النعاس فنست نوما متقطعا وأنا اسـمع في خلال ذلك حين أنصت بتركيز الى ما يجري داخل البيت ، إلا أن ذلك لم ينزع عن عيني الوسن وصرت بين اليقظ والنائم حين وخزتني بأطراف أناملها القابلـة وهي تقول لي : أعتقد ان فحص الأميرة قد وجب الآن • إذ قد مضى وقت كاف دون أن يتقدم رأس الجنين في الحوض ، كما بدا التعب على الأميرة • فنهضت من مكاني أتبع القابلة الى مخدع الأميرة • وبعد فحصهـا ارتأيت أن أسحب الجنين بالملقط الولادي لأوفر للأميرة إطالة آلام المخاض • وكنت الى هذه السنة أمارس التوليد بالملقط في بيوت المواخض على طريقة أستاذي الدكتور حيقاري دون استعمال التخدير بدعوى ان آلام الطلق أشـد من آلام تطبيق عملية الملقط • فضلاً عن عدم توفر من يعمل بالتخـديـر من الأطباء في تلك الأيام • وتطبيق هذه العملية في غير المستشفى لا يخلـو من الأذى وقد لا يخلو من الخطورة أيضا ، غير أنها كانت تمارس بهذه الكيفية بطلب ملح من أهلها ليتحاشوا حملها الى المستشفى الذي لم يلمسوا منافعه بعد ، وفي حالة الأميرة راجحة كان لزاماً عليَّ أن أطلب طبيباً مخدراً ، كما يتعين عليَّ أن أخبر الدكتور سندرسن بوصفه طبيب العائلة الهاشـمية في بغداد عن قراري بتوليد الأمـيرة بالملقط • ورأيت أن أخبر الأمـيرة أولاً بهذا القرار ، ولما قلت لها إنني سأطلب الدكتور سندرسن ليشاركني في هذه المسؤولية ، قالت لي بامتعاض « إبعد عني هذا الرجل يا دكتور فاني لاأريد أن أراه » فقلت لها إذن سأكتفي باخباره ، فقالت « ولا أرجو ذلك أيضـاً وأنا أقرر مصيري بنفسي ، وعمتي الأميرة صالحـة وزوجي يشـهدان على ذلك » وحاولت تلفونياً أن أحصل على طبيب مخدر فأخفقت فلم يكن يومها ثمة اختصاص في التخدير ، فكل طبيب يستطيع أن ينهض بعمليـة التخدير وبالطريقة البدائية التي كنا نمارسها برش مزيج من الكلوروفورم والإيثـر

على قناع يغطي أنف المريض وفمه ، فشرحت ذلك للأميرة وضرورة استدعاء الدكتور سندرسن اضطراراً فأجازتني على مضض لاستدعائه ليقوم بعملية التخدير • وحين استدعيت الدكتور سندرسن تلفونيا كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة صباحاً، ونقلت إليه قراري في تطبيق الملقط ، ولما سألني: وما حاجتك بي ؟ وكفاية انك أخبرتني بذلك ، والأمر من اختصاصك ، فقلت له : ولكنني أحتاج الى من يخدر الأميرة ، وسمعت الدكتور سندرسن يقول لي : سأتوجه إليك حالاً وسأمر في طريقي الى صالة العمليات في المستشفى الملكي لآخذ منها قنينة المخدر وقناعه ، وسأقوم أنا بتخدير الأميرة واستدركت أقول له أن يأتي أيضاً بأدوات الملقط الولادي ، ووصل سندرسن بيت الأميرة بسرعة لم أتوقعها ، وهو بكامل لباسه وكأنه ذاهب الى حفلة ساهرة أو عائداً منها وحيا الأميرة راجحة فردت عليه بتحية تخلو من الصميمية والحرارة • وتجاهل سندرسن موقفها وتشاغل عنها بخلع سترته • وشرع برش المخدر على القناع الذي غطى به أنف الأميرة • وهذا المخدر قوي الرائحة خانق فقاومته الأميرة بقوة خارقة من يديها ، وحاولت أن تنهض فأعدناها الى فراشها • وحاول سندرسن بمعسول الكلام أن يقنعها بأن تستلقي هادئة وتستنشق المخدر بارتياح وهدوء • وقال لها : « كوني فتاة طيبة واسترخي » فما سمعت الأميرة هذه العبارة حتى أمسكت قناع المخدر وقذفته في وجه سندرسن فاستغرب من حركتها المفاجئة وهي على وشك أن تغط في نومها تحت تأثير المخدر ، وزأرت كاللبوة الجريحة تخاطب دكتور سندرسن بلغة خليط من العربية والانكليزية « كن مؤدبا يا رجل وخاطبني بلقب الأميرة ولا تنسى انني بنت الملك فيصل الأول ولست أي بنت أخرى فأنا أفضل الموت على أن لا تخاطبني بكامل اسمي ولقبي »• وبهتت سحنة الدكتور سندرسن وتهدل حنكه فأسرع الى الاعتذار منها غير أنها بقيت حانقة مخيفة فرأيت أن أشرح للأميرة ما قاله الدكتور سندرسن

وان عبارته مألوفة عند ملته الانكليزية ولا يقصد منها الاهانة بأي حال ..
فردت الأميرة تقول « بل هي الاهانة بالنسبة لي وأية اهانة » وعاد الدكتور
سندرسن يعتذر منها وهو يعلم ان من سلوك المهنة أن يحتمل الطبيب شتيمة
المريض ، فكيف إذا جاءت الشتيمة من هذه الأميرة ، وعاد بتوجس فوضع
المخدر على القناع حتى نامت الأميرة وأتممت عملية تطبيق الملقط الـولادي
بسلام وكان الوليد بنتاً سُميت حزيمة .

٩٢٦/١
س ٢٨٤ السامرائي ، كمال
حديث الثمانين سيرة وذكريات/
كمال السامرائي . بغداد : دار الشؤون
الثقافية العامة ، ١٩٩٤ .
جـ١ (٣١٠ص) ، ٢٤سم .
السامرائي ، كمال (طبيب)
م.و آ. العنوان
٩٩٤/٣٥٠

المكتبة الوطنية (الفهرسة أثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣٥٠ لسنة ١٩٩٤



طبع بمطابع دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ـ ١٩٩٤م



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص·ب· ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الغلاف : ابراهيم عبد الرزاق



بغداد - ١٩٩٤

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

فهرس موجز للجزء الأول

تنويه: هذا الفهرس الموجز ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى رؤوس المواضيع . م. سرمد حاتم شكر السامرائي